ألكسندر شارف

تاريخ مصر

من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية

ترجمة

د. عبد المنعم أبو بكر

الكتاب: تاريخ مصر من فجر التاريخ حتى إِنشاء مدينة الإِسكندرية

الكاتب: ألكسندر شارف

ترجمة: د. عبد المنعم أبو بكر

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

شارف، ألكسندر

تاريخ مصر من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية / ألكسندر شارف، ترجمة: د. عبد المنعم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٢٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ١٧٦ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٦٤٩ / ٢٠٢١

تاريخ مصر

من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

ربما من الضروري – قبل أن نبدأ في عرض التاريخ المصري القديم بأحداثه – أن نجيب عن سؤالين، أما أولهما فهو: ترى هل ثمة نفع من وراء دراسة تاريخ وحضارة شعب كان له المقام الأول في الأحقاب السالفة .. على دثوره وانقطاع ما بيننا وبينه من صلات؟ .. وأما ثانيهما فهو: لماذا نعيد المحاولة اليوم في تقديم عرض جديد لتاريخ الشعب المصري القديم وننشره في ألمانيا التي تمزقت أوصالها ووقعت فريسة لأقسى تجربة مرت على أي شعب من الشعوب في أية فترة من فترات التاريخ البشري؟

إن كل هؤلاء الذين لا يعيشون في حاضرهم، ولا يقنعون إلا بأن يمدوا أبصارهم نحو آفاق أوسع مما تحيط بهم. ويشعرون بالقيم التاريخية، والذين يحاولون التعرف على كنه الأشياء .. يتساءلون من أين أتت وكيف نشأت؟ وهؤلاء جميعًا لا يجدون إجابة عن أسئلتهم إلا عند ذلك الشعب المتحضر الذي عاش على ضفاف النيل.

ويكفي أن نذكر أمرين لا يمكن لحياتنا اليومية أن تقوم بدونهما، وكلاهما نشأ في مصر القديمة: أولهما تقويمنا الشمسي وتقسيم السنة إلى أثنى عشر شهرًا، والشهر إلى ثلاثين يومًا، وثانيهما فكرة الحروف الأبجدية، أو بمعنى آخر أنه أصبح في الاستطاعة كتابة أية لغة في العالم بواسطة علامات محددة العدد .. كل علامة منها تدل على حرف معين.

نزيد على ذلك أن "التاريخ" نشأ بمعناه الحقيقي ويمكننا أن نتتبع بدايته الأولى الموغلة في القدم عند الشعبين المتحضرين اللذين سكنا وادي النيل ووادي الفرات، بل أكثر من هذا أنا لا نشك في أن المقومات الأولى للحضارة الأوروبية سواء في بلاد اليونان أو في إيطاليا، قد قامت على أسس الحضارة الشرقية القديمة. فإذا تركنا جانبًا كل ما قلناه عن أهمية التاريخ المصري، فستظل مصر بالنسبة لنا وفي ميدان الحضارة بمثابة المعلم الأول.

وليس هناك أمة واحدة من أمم العالم تستطيع منافسة مصر في ترابط عصور تاريخها، فنحن نستطيع أن نتتبع تطور الأحداث التاريخية والتدرج الحضاري لها طوال أربعين قرنًا دون أن تنقطع بين أيدينا حلقات السلسلة التي تبدأ مُنذ العصور المبكرة وتتدرج على مر السنين، تارة تزدهر وتارة أخرى تكبو، وتنتهي في آخر الأمر بخاتمة مرة، إلا أنها كانت الخاتمة لشعب مكافح عاش قرونًا طويلة أدى فيها واجبه كاملًا كشعب حر مستقل .. الخاتمة التي فرضها عليه شعب الفرس حين دخل قمبيز أرض مصر وسلب أهلها استقلالهم عام ٥٢٥ ق.م واضطرتهم الظروف أن يعيشوا تحكمهم شعوب أجنبية حتى عصرنا الحديث (وحتى عام ١٩٥٢ حين قام نفر من أبنائها وأعادوا إليها استقلالها وكرامتها وقضوا على الاستعمار وأبعدوه عن بلادهم إلى غير رجعة).

وعلينا أن نتساءل الآن، وفي معرض الحديث عن النتائج التي تعود علينا من دراسة التاريخ المصري القديم، هل نستطيع غض النظر عن أهرام مصر وعن آثارها المختلفة القائمة فيها، وعن تلك التحف الرائعة التي تملأ متاحف العالم في أوروبا وأمريكا؟ وبعبارة أخرى هل نستطيع تصور وجود جيل من

الناس ينظر نظرة عابرة إلى الأهرام بلا دهشة وبلا إعجاب، ثم تتملكه مشاعر "الواقعية" التي تطغى على مهندسي العالم في عصرنا هذا. ويقوم بهدم الهرم على أساس أنه جبل من الأحجار لا تقع فيه، ويستعمل حجارته لبناء سد من السدود الضخمة العالية؟ إني أعتقد أنه ما دامت هناك مشاعر الاحترام تملأ قلوب بعض الناس عندما ينظرون إلى الهرم، وما دامت هناك رغبة ملحة في التعرف على أحداث التاريخ المصري القديم، فليس هناك ما يدعونا إلى ذلك التساؤل، فلتطمئن قلوبنا! أن اعتراف الناس بأهمية التاريخ وبعظمة الحضارة المصرية، فيه ما يكفي للرد على السؤال الثاني الذي ورد ذكره في مستهل هذه الكلمة.

وما زالت بعض فترات التاريخ المصر تحتاج إيضاحات ومعلومات، كما لا تزال أعمال الحفر تسفر عن نتائج قيمة تلقي ضوءًا على التاريخ المصري، وهكذا نضطر إلى الوقوف على نتائج المكتشفات الحديثة لتطبيقها، وكثيرًا ما تلجأ إلى تعديل النظريات القائمة، وبذلك يطرأ من حين إلى آخر تبديل واضح على بعض نواحي التاريخ.

وليس من شك في أن واجبنا العلمي يدفعنا إلى أن نكون على بينة من كل التطورات الحديثة التي تزيدنا علمًا بأحداث التاريخ المصري. ونظرًا لأن آخر كتاب تاريخي مفصل قد نشر عن مصر القديمة عام ١٩٣٣، ونظرًا لأن مجموعة من الحقائق قد ظهرت مُنذ ذلك الوقت مع الآثار المكتشفة حديثًا، لذلك نرى لزامًا علينا إصدار كتاب تاريخي جديد باللغة الألمانية.

الفصل الأَول

عصور فجر التاريخ

(من حوالي ٥٠٠٠ ق.م إلى ٢٨٥٠ ق.م)

١- مصر، أرضها وشعبها

تتكون مصر من واد ممتد يخترقه النيل العريض الذي يجري في تؤده بمياهه الفياضة دون أن يصب فيه رافد. وهو يجري في الأرض المصرية، وإلى الشمال من العاصمة القديمة منف (بالقرب من القاهرة الحالية) يتشعب إلى فروع متعددة بلغت في العصور القيمة سبعة. وتقلصت الآن إلى فرعين يخترقان دلتا النيل ذات الخصوبة الفائقة، ويصبان في البحر المتوسط.

ولقد حتمت هذه الطبيعة أن تنقسم مصر مُنذ أول عصورها إلى قطرين: مصر العليا وهي ذلك الوادي الممتد المحصور بين سلسلتين من الجبال في الشرق والغرب. ثم مصر السفلى؛ أي الدلتا الواسعة ذات الأراضي المنبسطة التي تمتد حتى البحر المتوسط.

هذا التقسيم الذي فرضته طبيعة مصر جغرافيًا ظهر لنا بوضوح في التعريف المثنى الذي أطلقه المصريون على أنفسهم على بلادهم "القطران" وهو التعريف الذي لازم مصر طوال عصورها القديمة.

ولقد صدق هيرودوت حينما قال أن "مصر هبة النيل" وهو المؤرخ الإغريقي الذي زار مصر في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وخلف لنا

أقدم ما كتب عن مصر، تاريخًا وحضارة باللغة الإغريقية، فإن مصر تغمر مرة في العام بمياه الفيضان التي يأتي بها النيل في الصيف محملًا بكميات من الغرين الذي يحمله معه من أواسط أفريقيا فيكسبها الخصب بعد أن تنحسر المياه عنها.

هذه الظواهر الطبيعية دفعت المصري مُنذ أول عصوره التاريخية إلى التعاون في العمل حتى تكتمل له طرق الانتفاع بهذه النعمة الطبيعية، فحفر الترع والقنوات حتى يدفع بالمياه فيها لتصل إلى كل مكان، ثم رفع المياه إلى الأراضي العالية بواسطة آلات حتى ترويها وتصبح صالحة للزراعة. ولولا هذا التعاون لبقيت مساحات شاسعة من أرضه جافة مجدبة.

واستطاع المصري بعد تقدمه الحضاري الرائع أن يقيم سدودًا ضخمة مزودة بفتحات عديدة تنظم جريان نيله، وهي ظاهرة اختصت بها مصر الحديثة أيضًا. ودفع انتظام الفيضان الرجل المصري إلى العمل المتواصل في أرضه. وكان عمله هذا المضني يعود بالجزاء الطيب عليه نظرًا لما تتمتع به التربة من خصب.

واضطر إلى العمل الجماعي ليحفر القنوات وليحدد مساحات أراضيه بعد أن تنحسر عنها مياه الفيضان. فكان "مسح الأرض" و"عزق الأرض" من أهم الأحداث التي كان يقوم بها الملك بنفسه في أقدم العصور. ودونوها على الآثار الملكية التي وصلت إلينا من عصر الأسرات الأولى. وقصارى القول أن الاهتمام بفيضان النيل كان من أهم الأسباب التي ساعدت على تكوين الدولة المصرية.

وليس من شك في أن طبيعة البيئة المصرية هي التي منعت انتشار المساكن متباعدة متناثرة، وحتمت أن يتجمع الناس في قرية تحيط بها الأراضي المزروعة. وتكون الإقليم من عدد من هذه القرى، ونحن نعتقد أن تجمع قرى عدة في إقليم واحد هو بمثابة الدور الأول من نظام التكوين الإداري للحكومة عند المصريين.

ولقد حوى الإقليم أيضًا نظامًا جماعيًا يهدف إلى عبادة إله خاص بمعنى أن سكان إقليم معين كانوا يتعبدون إلى قوة معينة تتمثل لهم في أحد الطواطم على هيئة حيوان أو أي شيء رمزي آخر. وانقسمت مصر في العصور المتأخرة إلى اثنين وأربعين إقليمًا خص مصر العليا منها اثنان وعشرون ومصر السفلى عشرون.

ومُنذ أول العصر التاريخي، أي مُنذ أن طلع علينا المصري بوثائق مكتوبة مقروءة، اتحدت هذه الأقاليم وتكونت منها مملكة عاشت ما يقرب من خمسة وعشرين قرنًا تمتعت خلالها باستقلال لم تنفصم عراه إلا في فترات محدودة، وهذا الاستمرار الطويل والتسلسل الرتيب الذي تميز به التاريخ المصري القديم من أكبر الأسباب التي تدعونا نحن الذين نعيش في زمن مليء بالتطورات السياسية القاسية والتطاحن البشري المر، أن نقدر هذا الشعب العريق ونفخر به، وإن كنا نعتقد أن انحصار مصر بين صحراوين شاسعتين أتاح لها أن تتكون وتتطور في إطارها هذا البعيد المدلل، وساعدها أيضًا أن تبقى في تطورها على مر السنين واضحة متسلسلة.

وقد أطلق بعض العلماء على الحضارة المصرية، حضارة الواحات، اعتمادًا على أن مصر انحصرت بين حدود طبيعية منيعة. ففي الشمال البحر

المتوسط وفي كل من الشرق والغرب صحراء شاسعة مجدبة، إلا أن هذا ليس معناه أن مصر عاشت منطوية على نفسها بعيدة عن المؤثرات الخارجية، فالواقع أن الصحراء الممتدة كانت أكبر حافز أمام أولئك الذين سكنوا من ورائها إلى أن يرنوا بأبصارهم نحو أرض الدلتا اليانعة الخصيبة يرغبون في الاستقرار بها، كما أن المصريين أنفسهم وهم من الشعوب التي تميل إلى السلم، لم يبقوا داخل حدودهم المنيعة بل خرجوا إلى ما وراءها يطلبون الفتح والاستعمار، بل أن التنقيبات على طول الساحل السوري وفي جزيرة كريت أظهرت من الآثار المنقولة ذات الطابع المصري البحت ما يدل على وجود صلات مصرية مع هذه المناطق أقل ما توصف به أنها تجارية .. فالتاريخ المصري مع ما يتميز به من تسلسل رتيب، يدل على اتصالات متعددة بين مصر وجميع بلدان الجزء الشرقي من البحر المتوسط مُنذ أقدم العصور.

ولعل هذه العلاقة القوية التي قامت بين مصر وبين البلاد المتاخمة لها، وهي حقيقة تثبتها تلك الآثار المتزايدة التي يكشف عنها معول المنقبين في مصر، تعتبر من أهم الدوافع التي تستحثنا عن دراسة تاريخ وادي النيل، وهو التاريخ الذي تبدؤه بعصر الأسرة الأولى أي حوالي عام ٢٨٥٠ ق.م.

ويسبق هذه فترة طويلة تنتظم مئات من السنين تسميها فترة "فجر التاريخ" أو "ما قبل التاريخ" سوف يكون حديثنا عنها مجملًا شاملًا الخطوط العريضة لتطور الحضارة أبانها.

وهذه الفترة لها أهميتها الكبرى في التأثير على العصور التاريخية، نظرًا لأن دراستنا لمخلفات إنسانها الأول تجعلنا نتعرف على العناصر الحضرية المختلفة التي تفاعلت فأنتجت الطابع الخاص الذي تميزت به حضارة

المصري في العصور التاريخية، ذلك الطابع الذي كان أساس النهضة المبكرة للعشب المصري.

٢- العصران "الحجري القديم" و"الحجري الحديث" في مصر

عاش في مصر – كما عثر في غيرها من بقاع الأرض – على مخلفات من حضارة الإنسان الذي عاش في العصر الحجري القديم والذي لا نستطيع أن نؤرخ له أو نحدد عصره فقد يرجع تحديده إلى آلاف السنين.

عاش هذا الإنسان البدائي الذي سكن مصر العليا فوق المرتفعات التي تحاذي وادي النيل، وهي المرتفعات الجدبة الخالية الآن من أي عشب أو نبات.

وحين كانت مناطق شمال أفريقيا أبان العصر المطير، والذي كان يقابله عصر الجليد في أوربا تتمتع بثروة نباتية ضخمة. كان وادي النيل غير صالح لسكنى الإنسان، إذا كان يزخر بالمستنقعات والبرك. ولم نعثر على الآلات الحجرية ذات الأشكال المعروفة، والتي عثر عليها بكثرة في المناطق الغربية من أوربا، فوق المرتفعات التي تقع إلى الغرب من طيبة فحسب، بل كانت أيضًا مطمورة على أعماق في الكثبان الحجرية بالقرب من العباسية التي تقع إلى الشمال من مدينة القاهرة حاليًا.

ولقد أثبتت الدراسات الجيولوجية أن هذه الكثبان تراكمت في وقت كانت الدلتا قد أخذت فيه تتكون من طبقات الطمي المترسبة، ومن هذا نستطيع أن نحكم – من الاختلاف الواضح بين الأماكن التي عثر فيها على مخلفات الإنسان الأول – أن مصر العليا أقدم بكثير من مصر السفلى وأنها كانت آهلة بالسكان قبل الشمالية. ومما يؤسف له أننا لا نستطيع الحكم

على الجنس البشري الذي كان يسكنها نظرًا لعدم العثور مطلقًا على هياكل عظيمة للإنسان الذي عاش فيها أثناء العصر الحجري القديم.

أما في العصر الحجري الحديث فقد حدث انفصال حضاري كبير بين مناطق شمال أفريقيا بما في ذلك أسبانيا وفلسطين وبين المناطق الأخرى في أوروبا، وتميزت حضارة شمال أفريقيا بذلك التطور الحضاري الذي نطلق عليه اسم "الحضارة الجفسية"، نسبة إلى تلك الصناعة الحجرية التي ظهرت أول ما ظهرت في قرية "جفسة" إلى الجنوب من مدينة تونس، ثم أخذ علماء دراسات ما قبل التاريخ يطلقون عليها أسماء محلية أخرى.

هذه الحضارة تتميز بأدوات حجرية صغيرة (مكروليتية) وعثر المنقبون على هذا النوع من الصناعة الحجرية في أماكن كثيرة من مصر (ويطلقون عليها اسمًا شاملًا هو "الصناعة السبيلية") وهذا يشهد بأن مصر كانت تتبع نفس التطور الحضاري الذي شمل مناطق شمال أفريقيا أبان العصر الحجري الحديث. ولا نستطيع أيضًا أن نعين الجنس البشري الذي كان يسكن مصر في هذا العصر نظرًا لعدم العثور على هياكل عظيمة لهذا الإنسان.

ويتفق علماء دراسات ما قبل التاريخ على بدء العصر الحجري الحديث حوالي عام ٥٠٠٠ ق.م بالنسبة إلى الشعوب المتحضرة التي سكنت الجانب الشرقي من حوض البحر المتوسط ومن بينها الشعب المصري الذي تمكن حوالي عام ٢٨٠٠ ق.م من أن يبدأ عصره التاريخي.

ولقد تمكنت هذه الشعوب من أن تسير بخطى جبارة في تطورها الحضاري وبخاصة شعبا مصر وبلاد ما بين النهرين اللذان استطاعا استخدام معدن النحاس في صناعة الحلي ثم لم يلبثا أن استخدماه في الأدوات

المختلفة، ولقد دفع هذا العلماء إلى تسمية الفترة من ٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ ق.م بالنسبة إلى هذين الشعبين بعصر استخدام النحاس (العصر الكالكيوليتي) العصر الحجري النحاسي.

٣- عصور ما قبل التاريخ (العصر الكالكيوليتي) الحجري النحاسي

أ- مصر السفلى (حضارة مرمدة):

استقر التكوين الجيولوجي لمصر واستمر في الفترات الأخيرة من عصر ما قبل التاريخ متماثلًا مع ما ساد مصر طوال العصور التاريخية فالدلتا ذات الخصوبة البالغة كانت قد تكونت، أما مصر العليا فكانت المرتفعات والتلال المحاذية لوادي النيل قد جفت وتحولت إلى صحاري واضطر قاطنها إلى أن يهرع إلى شواطئ النيل ليسكن الشريط الضيق من الأراضي الخصبة، ولقد وصل إلينا كثير من القرى التي سكنها إنسان هذا العصر ومن الجبانات التي دفن فيها موتاه بحيث نستطيع أن نتعرف الآن على هذا الإنسان وطريقة حياته، ويبدو واضحًا أن هناك اختلافًا كبيرًا في طرق الحياة وفي دفن الموتى بين مصريي الوجه القبلي والوجه البحري.

ولقد ساد الاعتقاد في أول الأمر أن الدلتا كانت طوال عصور فجر التاريخ غير صالحة لسكنى الإنسان وذلك لأنها كانت زاخرة بالمستنقعات، تكثر فيها قطعان الماشية. وساعدنا على هذا الاعتقاد عدم عثورنا على مخالفات بشرية فيها لإنسان هذا العصر، ولكنه حدث أخيرًا أن عثر المنقبون على آثار قرية تقع على مقربة من حدود الدلتا الغربية، وظهر بوضوح أنها كانت تشمل مساحة تزيد بكثير على القرى التي سكنها إنسان الوجه القبلي في نفس العصر. ولقد تعارف العلماء على تسمية هذه الحضارة باسم "مرمدة"

وتدل آثارها على أنها ترجع إلى العصر الحجري الحديث البحت، نظرًا لعدم العثور على أدوات من النحاس، سكن إنسانها كوخًا أقامه من القصب المجدول، وتدل آثار الحصير التي ما زالت مطبوعة على الأرض وكذلك الحفر الغائرة التي كانت تثبت فيها القوائم، على نواح متعددة من مظاهر الحياة السكنية لأقدم حضارة ظهرت في مصر السفلى. وتمكن المنقبون أيضًا من التعرف على أكثر من مخزن شيد من الطمي غير المشكل وهي مخازن تحفظ فيها المواد الغذائية.

ويبدو واضحًا أن المصري في هذه الحضارة لم يكن قد عرف بعد طريقة استعمال اللبن في أبنيته. ولعل من أهم ما عثر عليه في هذه الحضارة مخازن الغلال الكبيرة وفي قاعها بعض الحبات (الشعير والقمح المزدوج الحبة). وهذا يثبت أن إنسان الدلتا في هذا العصر كان قد تخلص من بدائيته التي قامت على القنص ورعي الحيوان واستقر تمام الاستقرار. واعتاد الناس دفن موتاهم داخل القرية، وكانت الجثة توضع منثنية دون أن تزود بأدوات جنازية على خلاف ما كان سائدًا في مصر العليا، ولعل السبب في ذلك أن الأحياء كانوا يقدمون لموتاهم القرابين في كل مرة يتناولون فيها الطعام، مثلهم في ذلك مثل كل القرى التي تحوي مقابر الموتى في جميع مناطق حوض البحر اللتين سكنتا مصر في عصور فجر التاريخ، إنه الاختلاف بين القبائل التي تسكن جبال أطلس حاليًا (وتتمثل فيهم أصحاب حضارة مرمدة والحضارات القريبة منها) وبين قبائل البشارين التي تجوب صحراء النوبة أو الصوماليين في الحبشة (وتتمثل فيهم أصحاب حضارتي البدارى ونقادة الأولى) وعلى هذا الأساس تنتمي المجموعة الأولى إلى الجنس الحامي المنتشر في الشمال الغربي من أفريقيا والمجموعة الثانية تنتمي إلى الجنس

الحامي المنتشر في المناطق الشرقية من أفريقيا. وبقيت بعض مظاهر حضارة المجموعة الثانية ممثلة في حضارة مصر أبان العصور التاريخية فطبعتها بذلك الطابع الأفريقي الحامي الذي استمر ونضج في العصور المتأخرة في بلاد النوبة السفلى.

ويجدر بنا هنا أن نؤكد عدم وجود التأثيرات الفنية أو الحضارية على الأدوات التي استخدمها المصري في حضاراته السالفة الذكر مستمدة من الحضارة البابلية، ويجب علينا ألا ننسى أن الحديث عن وجود اختلاط مبكر بين الجنسين السامي والحامي، لا يعني مطلقًا أن المصريين في أول عصورهم اختلطوا بالساميين خاصة مع اعتبار أن سكان بلاد ما بين النهرين في تلك الآونة لم يكونوا من الساميين بل كانوا من الجنس الذي ظهر في التاريخ تحت اسم الشوميريين. لقد كانت مصر ولا تزال جزءًا من أفريقيا، ولذلك ليس ثمة ما يدعو إلى تناولها بالحديث على أنها جزء من أسيا القريبة، وإذا كانت هناك بضع عناصر من الحضارة الشوميرية قد ظهرت في الحضارة المصرية فليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن مصر أنجبت حضارة كان الشوميريون أصلها.

ب- حضارة نقادة الثانية:

هناك مجموعة بشرية ثالثة ظهرت في مصر في عصور لاحقة وكانت لها أهميتها الخاصة في التأثير في حضارة مصر في العصور التاريخية، وتكاد تعتقد أن هذه المجموعة تسربت إلى مناطق شرق الدلتا عبر برزخ السويس آتية من سوريا وفلسطين واستقرت هناك، ولو أن القرائن على استقرارها هذا تكاد تكون مفقودة نظرًا لأن مناطق شرق الدلتا لم تبرز لنا أثرًا واحدًا يدل

على وجودهم، ولعل القرينة الوحيدة على ذلك هي اللغة المصرية القديمة التي تمثل لنا في أطوارها الأولى لغة تتكون من عناصر مختلفة بعضها سامي الأصل والآخر حامي الأصل، بل تكاد تعتقد أيضًا أن الكتابة الهيروغليفية اخترعت واستنبت قواعدها في هذه المنطقة، ونرى في شرق الدلتا الموطن الأول الذي لابد وأن تكون قد خرجت منه "حضارة نقادة الثانية".

حقيقة أن أدوات إنسان "حضارة نقادة الثانية" عثر عليها في نفس منطقة "حضارة نقادة الأولى" إلا أنها كانت مطمورة في مستويات من الأرض أعلى منها، حالها في ذلك حال "نقادة الأولى" بالنسبة إلى "البدارى" ومعنى ذلك أن حضارة نقادة الثانية كانت أحدث الحضارات. وحين استقرت حضارة نقادة الأولى في مناطق مصر العليا، ظهر بوضوح أن أثار حضارة نقادة الثانية قد انتشرت في كل مكان. في الجنوب وفي الشمال: في الجنوب متغلغلة في بلاد النوبة السفلى وفي الشمال متغلغلة في جرزة وفي أبو صير الملق.

وليس من شك في أن ظهور آثار حضارة نقادة الثانية في شمال الوادي بل وفي بعض المناطق التي نعتبرها جزءًا من الدلتا مثل قرية المعادي لدليل واضح على أن هذه الحضارة نشأت في الشمال وانتشر في الجنوب، أو بمعنى آخر طمرت آثارها في مستويات من الأرض أعلى من مستويات نقادة الأولى.

وفي اعتقادنا أن حضارة نقادة الثانية ذات طابع مصري حامي بحت، أي أنها لا تمت بصلة ما لمناطق آسيا القريبة، ولكن هناك بعض العناصر الأولى لعلاقات حضارية مع فلسطين أخذت تبدو واضحة ولاسيما في نوع الفخار الذي تميزت به هذه الحضارة، وهو النوع المسمى "أوان فخارية ذات مقابض

مموجة"، وهو أيضًا النوع الوحيد بين كل الأنواع من الأواني الفخارية التي ظهرت في حضارات مصر في عصور فجر التاريخ، وكان لها مقابض تحمل منها وبرزت هذه المقابض فوق سطح الآنية بشكل مموج، هذا وقد أظهرت أعمال الحفر والتنقيب – التي تمت مُنذ مدة طويلة في فلسطين – وجود علاقات حضارية بين البلدين ونخص بالذكر التنقيبات التي قامت بها البعثة الأمريكية في السنوات القليلة الماضية في فلسطين وفي "مجدو" نظرًا للأمثلة الواضحة التي أثبتت مدى هذه العلاقات، وجعلتنا نعتقد أن بعض الجماعات التي كانت تتحدث بلغة "سامية غريبة" قد وصلت إلى مصر، وأن هذه اللغة هي التي ساعدت على إعطاء اللغة المصرية شكلها النهائي.

وهكذا برزت لنا مصر لأول مرة في تاريخها كوحدة حضارية في عصر حضارة نقادة الثانية، ويبدو أن الاختلاف بين الشمال والجنوب وبين مصر العليا ومصر السفلى أخذ يختفي ويندثر، ولقد بلغت حضارة مصر في هذه الآونة حدًا من التطور بحيث نعتبرها بحق الخطوة التي سبقت حضارة مصر في عصر الأسرة الأولى. أما معلوماتنا عن مدى تطور هذه الحضارة فتقوم على أساس دراساتنا للآثار التي عثر عليها في المقابر، اللهم إلا إذا استثنينا منطقة المعادي التي كانت "محلة" مأهولة بالسكان. لقد أصبحت المقبرة في هذا العصر عبارة عن حفرة مربعة الشكل وكثيرًا ما كانت تقوى جدرانها الداخلية بحوائط من اللبن. ويدل استخدام الناس للنحاس الذي كان يستخرج من شبه جزيرة سيناء، وللقشاني في صناعة خرز الحلي، وللأواني الفخارية ذات الحجم الصغير، على تقدم كبير في مستواهم الحضاري كما يدل استعمالهم لأحجار اللازورد والأبسيديان على علاقات تجارية امتدت حتى بلاد إيران وحتى جزر بحر الأرخبيل.

لقد أراد بتري "أن يبرز لنا حضارة ثالثة لنقادة، وذلك على أثر الكشف عن منطقة "السماينة" في مصر العليا، وحاول في ذلك الوقت أن يجعل منها الحضارة السابقة لحضارة الأسرة الأولى. وكان "بترى" يهدف باستمرار إلى التدليل على حدود موجات مستمرة من شعوب أجنبية تدخل مصر ومعها حضارتها. ولذلك لم يكن من السهل عليه أن يتصور قيام الأسرة الأولى دون أن يرجع ذلك إلى شعب جديد دخل مصر قبيل ذلك. ونحن لا نعتقد مطلقًا أننا في حاجة إلى الأخذ بنظرية وود "حضارة نقادة الثالثة" ولاسيما أنها لم تقم على أساس علمي ثابت. بل أن الحديث عنها أصبح غير ذي موضوع نظرًا لازدياد ظهور بعض العناصر الحضارية من آسيا القريبة في مصر أبان عصر الأسرة الأولى، ومن الواضح أن هذه العناصر مستمدة من مناطق نفوذ الحضارة الشوميرية. وليس في استطاعتنا أن نفرد هنا مكانًا للحديث عن هذه النقطة الهامة نظرًا لأنها تدخل في نطاق الدراسات الأثرية كما أنها لم تكن ذات تأثير واضح على تطور الحضارة المصرية بوجه عام. وإذا عن لنا أن نلمس هذه النقطة فيحسن بنا أن نتحدث عن التأثيرات الشوميرية على نواحي الفكر المصري وهي تأثيرات لا تكاد تثبت طرفًا منها حتى يفلت من بين أيدينا طرفها الآخر. وإني أقصد من ذلك إلى احتمال وجود علاقة بين اختراع الكتابة عند الشوميريين وظهور هذا الاختراع عند المصريين وكذلك إقامة التوقيت المصري على أساس العدد الستيني الذي شاع وانتشر في بلاد ما بين النهرين.

وعلى كل حال فإن لهذه الموضوعات أهميتها التاريخية التي تقوم على أساس من أن عناصر المقارنة بين المخالفات البشرية في المنطقتين تكاد تنحصر بالنسبة إلى بلاد العراق القديم في آثار حضارة "جمدة نصر" وبالنسبة

إلى مصر في آثار حضارتي نقادة الثانية والأسرة الأولى، ونخرج من هذه المقارنة إلى أن هذه الحضارات كلها كانت متعاصرة. ومما يسعدني أن نظريتي التي أبرزتها مُنذ أمد طويل وهي النظرية التي تقول بمعاصرة حضارة "جمدة نصر" في العراق لحضارتي نقادة الثانية والأسرة الأولى في مصر، قد ثبتت أخيرًا بواسطة البعثة الأمريكية التي كشفت في تنقيبها الذي تقوم به في "تل الجديدة" في شمال سوريا، على آثار من حضارة "جمدت نصر" في نفس المستوى الذي عثرت فيه على آثار من عصر الأسرة الأولى المصرية.

وإذا كانت الدراسات الأثرية قد أثبتت المراحل الثلاث لتطور الحضارة المصرية – وهي المراحل التي تحدثنا عنها على الصفحات السالفة – فهناك إثبات آخر لهذا التطور يقوم على أساس الدراسات اللغوية. إذ نجح العالم "تسيلارتس" المتخصص في الدراسات الحامية والمصرية القديمة من أن يثبت أن اللغة المصرية القديمة في تكوينها الذي ظهرت به مُنذ أول العصور أي مُنذ عام ٣٠٠٠ ق.م. تقوم على العناصر اللغوية الآتية:

أولًا – العنصر الحامي الخاص بأهل البربر أي الذين سكنوا شمال غربي أفريقيا (وهو العنصر الذي نراه ممثلًا في حضارة مرمدة في غرب الدلتا)

ثانيًا – العنصر الحامي الخاص بالنحسيين أي الذين سكنوا شرقي أفريقيا (وهو العنصر الذي نراه ممثلًا في حضارتي البدارى ونقادة الأولى)

ثالثًا – العنصر السامي الخاص بمن سكنوا غربي آسيا. (وهو العنصر الذي نراه ممثلًا في حضارة نقادة الثانية على أساس أن أصحابها سكنوا في أول الأمر مناطق شرقي الدلتا وعلى أساس العلاقات التي أثبتتها الدراسات الأثرية بينها وبين فلسطين).

وتجمع هذه العناصر الثلاثة واختلاطها هو الذي أدى إلى ذلك الانبثاق المزدهر للحضارة المصرية في عصر الأسرة الأولى حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م. ومُنذ ذلك الوقت طلعت علينا مصر بلغة واحدة تكتب بطريقة واحدة وتقوم قواعدها على قواعد مختلطة من السامية والحامية. ومُنذ ذلك الوقت أيضًا أصبحنا نلتقي بعناصر موحدة من الآثار في مقابر المصريين سواء في مصر العليا أو في مصر السفلى.

وهكذا نستطيع أن نتحدث مُنذ ذلك العصر عن شعب مصر الموحد بل نستطيع أيضًا أن نتحدث عن الجنس المصري القديم.

(ج) أقدم الصور التي تخيلها المصريون عن آلهتهم

إذا عن لنا التحدث عن نواحي الفكر عند أقدم المصريين الذين عاشوا في عصور فجر التاريخ فلن نجد إلا القليل نذكره، نظرًا لندرة ما وصلنا من آثار تفسر لنا هذه الناحية. فمثلًا إذا تعرضنا لتقديس الآلهة فلا نستطيع إلا أن نذكر نوعين منها ونستمد معلوماتنا عنها من المتون الدينية، التي ترجع إلى العصور التاريخية وتتصل أيضًا بعصور فجر التاريخ. هذان النوعان هما ما أظهرتهما الرسوم المصرية أما على هيئة بشر برءوس حيوانات أو على هيئة بشرية كاملة. ونحن نعتبر النوع الأول حصريًا بحتًا. ولابد أن يكون قد نشأ في محيط تلك الحضارة الحامية الأفريقية التي تحدثنا عنها على الصفحات السالفة.

ولقد عثر أخيرًا على رسوم لآلهة مثلت رءوسها على هيئة رءوس الحيوان وهذه الرسوم منقوشة على الصخور في مناطق شمال أفريقيا وبخاصة في فزان، وهذا يدل طبعًا على مدى انتشارها إلى الغرب من مصر – ولعل أهم

الآلهة من هذه المجموعة هو الإله "ست" الذي يمثل برأس حيوان من ذوي الثدي لم نستطع حتى الآن أن نستدل بشكل مؤكد على نوعه، وتعتبره النصوص الدينية المصرية بمثابة الإله الأول لمصر العليا ومركز عبادته نقادة، وعلى هذا الأساس نكون على حق إذا اعتبرناه الإله الرئيسي الذي عبده أصحاب حضارة نقادة الأولى، وهم الذين أطلقوا عليه اسم "صاحب أمبو" (بالمصرية القديمة "نبوتي"). ويحسن بنا أن نطلق هذا الاسم عليه ما دمنا نتحدث عن الإله القديم الذي هيمن على مصر العليا. وكلمة "نبوت" (ويبدو أن النطق الحقيقي لها كان "أمبوت") ثم نطقها الإغريق فيما بعد "أمبوس" هي الاسم المصري الذي أطلق على عاصمة مصر العليا في عصور فجر التاريخ، وهي العاصمة التي بقيت منها تلك الآثار القليلة بالقرب من قرية "نقادة" الحالية التي تقع على الشاطئ الغربي وعلى مسافة قريبة شمالي مدينة الأقصر.

هذا الإله حين سمي باسم "ست" كان قد اندمج في مجموعة أخرى من الآلهة ظهرت في بيئة اختلف تخيل أهلها لآلهتهم تمام الاختلاف، فصوروها على هيئة بشرية كاملة، وهو النوع الثاني من الآلهة الذي ذكرناه آنفًا. ويبدو أنه ظهر في منطقة شرق الدلتا، كما يبدو أن آلهة هذه المجموعة كانت غير محلية أي لا تتصل بمظاهر معينة في مكان بعينه بل كانت تمثل بعض أجزاء الطبيعة (مثل الأرض والسماء) أو بعض مظاهرها العامة (مثل مياه الفيضان الذي يكسب الأرض خصوبة أو الحرارة التي تسبب الجدب).

ولعل أهم آلهة هذه المجموعة كان الإله "أوزوريس" وأخاه "ست" الذي اعتبر عدوًا لأوزوريس وأصبح يمثل مظهرًا من مظاهر الطبيعة، حاله في ذلك حال الآلهة التي ظهرت في شرق الدلتا.

وهنا نتساءل عن مدى صحة النظرية التي نادى بها العلامة "يونكر" والتي أقامها على أساس ما ورد في النصوص المصرية المتأخرة والخاصة بوجود إله عالمي قديم يهيمن على آلهة هذه المجموعة ويطلق عليه "العظيم" (بالمصرية القديمة "ور") فنقول أن القرائن التي تثبت وجود هذا الإله قليلة إلى درجة لا تسمح لنا أن نأخذ بهذه النظرية.

ومع أن آلهة هاتين المجموعتين قد اختلطت واندمجت مُنذ العصر التاريخي بحيث أصبحت مهمة الدارس للديانة المصرية من أشق المهمات، إذ يواجه عددًا لا يحصى من الآلهة تختلف في أشكالها وصفاتها، فإن من حقنا أن نعترف بأن التقسيم الطبيعي لهاتين المجموعتين هو بإرجاع كل مجموعة إلى مركز من المركزين الحضاريين سالفي الذكر، بمعنى أن مجموعة الآلهة ذات الرءوس الحيوانية ترجع إلى المركز الحضاري الخاص بمناطق شمال أفريقيا الآهلة بالجنس الحامي الأفريقي، ومجموعة الآلهة ذات الأجسام البشرية الكاملة ترجع إلى المركز الحضاري الخاص بمناطق غرب آسيا الآهلة بالجنس البشري السامي القديم. والاختلاف بين كنه كل من آلهة هاتين المجموعتين يعكس لنا طرفًا من الاختلاف بين التطور الفكري في المجموعتين البشريتين اللتين نشأت بين ظهرانيهما هذه الآلهة.

لقد حاول "زيته" أن يسرد لعصور فجر التاريخ المصري حقائق تاريخية ثابتة، وهو في محاولته هذه يتفق أحيانًا مع "يونكر" ولكنه لم يستعن مطلقًا بنتائج الكشوف الأثرية، بل أعتمد فقط على ما ورد في المنون الدينية القديمة. ومع الجهد العلمي الممتاز الذي بذله "زيته" في هذه المحاولة، فمن العسير علينا أن نأخذ بالكثير من عناصرها ونقبله. وعلينا أولًا أن نجعل هذه الحقائق التاريخية التي أقامها "زيته" تتجاوب وتتفق مع نتائج الكشوف الأثرية.

فمثلًا سبق الحديث عن "أمبوس" (نبوت) أي "نقادة" الحالية، وقلنا عنها أنها كانت بمثابة المركز الحيوي لمصر العليا في عصر فجر التاريخ وأن إلهها الرئيسي كان "نبوتي" الذي أصبح فيما بعد يمثل "ست" ولذلك اعتاد الناس أن يذكروه بهذا الاسم. فإذا تكرر الحديث في المتون الدينية عن ذلك الكفاح المرير الذي حدث بين الإلهين العظيمين "حوريس" و"ست" في العصور المبكرة، فليس من شك في أننا على حق إذا اعتبرنا هذا الكفاح تصويرًا رمزيًا للمعارك التي حدثت بين مصر السفلى ومصر العليا، فمن الواضح حقًا أن "ست" يمثل الإله الرئيسي لمصر العليا، ولكن المسألة تختلف تمامًا بالنسبة "لحوريس". فمع أن النصوص الدينية والرسوم المختلفة التي ترجع إلى العصور المتأخرة تذكره باستمرار على أنه الإله الممثل لمصر السفلى، فإن الدراسات الأثرية لم تستطع مع الأسف حتى الآن أن تثبت وجود مركز سياسي أو ديني لمصر السفلى يمكن اعتباره مماثلًا لنقادة بالنسبة إلى مصر العليا.

أن المتون الدينية تظهر باستمرار أن "حوريس" (أي مصر السفلى) قد انتصر وتمكن من توحيد البلاد (أي مصر السفلى ومصر العليا) تحت سلطانه، ونحن نستطيع أن نفسر هذا بما يتجاوب مع بعض النتائج التي أثبتتها الدراسات الأثرية، وهي النتائج التي سبق الحديث عنها. وأثبتت أن حضارة نقادة الثانية أخذت تنتشر جنوبًا حتى هيمنت على مصر العليا بأكملها وانتصرت على حضارة نقادة الأولى التي كانت تنتشر في المناطق الجنوبية فقط، أي في منطقة نفوذ "ست"، ولكننا لا نستطيع مطلقًا أن نستمر في تفسير هذه النصوص الدينية بوقائع تاريخية وذلك – كما قلت – لأن الكشوف الأثرية لا تساعد على أكثر من هذا.

ويتحدث "زيته" أيضًا في كتابه Urgeschichte عن ممالك في عصر فجر التاريخ فيذهب إلى أن هناك مملكة في شرق الدلتا يحكمها "أوزيريس"، الذي يعتقد أنه كان شخصية بشرية تعيش في هذا العصر المبكر، ولقد غلب على أمره من مملكة الجنوب التي يحكمها "ست" وهنا يبدو أن "ست" لم يكن شخصية بشرية بل كان إلهًا. وكانت هناك مملكة في غرب الدلتا يحكمها "حوريس" بن "أوزيريس"، الذي تمكن من أن يتغلب على مملكة ست ومن ثم استطاع أن يوحد قطري مصر لأول مرة في التاريخ(١).

ويعتقد "زيته" أن هذه المملكة الموحدة اتخذت من "هيليوبوليس" عاصمة لها. ولقد تعلق بهذه النظرية إلى درجة أنه رددها باستمرار في كل كتبه التي ظهرت في المدة الأخيرة من حياته. ولكن للأسف الكبير ليس هناك من القرائن العلمية ما يجعل هذه النظرية الخاصة بالمملكة الهيليوبولينانية الموحدة في أواخر عصر فجر التاريخ من النظريات الثابتة. وكل ما نستطيع قوله هنا أن حضارة نقادة الثانية من الناحية التاريخية – دون أن يكون لها ملك أو إله – تمثل لنا نوعًا من التوحيد في عصر ما قبل التاريخ وذلك لأن آثارها انتشرت في كل مناطق مصر شمالها وجنوبها وامتدت حتى بلاد النوبة السفلى.

(د) فترة الانتقال إلى العصر التاريخي مملكتا عباد حوريس

في متحف مدينة "بالرمو" بصقلية لوح من الحجر نقشت عليه قائمة بأسماء ملوك الدولة القديمة، ويعرف باسم "حجر بالرمو"، وتعتبر هذه القطعة الأثرية دليلًا على أن المصري القديم كان يعلم أن هناك ملوكًا حكموا مصر

---

(١) أن كل من درس أساطير الآلهة المصرية. يرى بوضوح أن هذه الممالك الثلاث هي الإخراج التاريخي لأسطورة "أوزوريس" ولأسطورة الكفاح بين "حوريس" و"ست".

المتحدة في عصر فجر التاريخ، أي في العصر الذي يسبق عهد الأسرة الأولى، لقد تمكن "برستد" الذي قام بدراسة هذه القطعة وشرح ما نقش على سطحها، من أن يدرك معنى تلك المخصصات التي سبقت عصر الأسرة الأولى، وهي مخصصًا للملك، فتارة يلبس التاج المزدوج وهو الرامز الذي اعتاد فراعنة مصر أن يضعوه فوق رءوسهم ليدللوا على أنهم الحكام لقطري مصر، وتارة يلبس التاج الأبيض أو التاج الأحمر بمعنى أن الملك كان يسيطر إما على مصر العليا وإما على مصر السفلى. ومما يؤسف له جزءًا من الحجر قد تهشم وضاع ولم يبق منه إلا صف من العلامات المخصصة للملك.

وهكذا يبدو واضحًا أن مصر قبيل عصر الأسرة الأولى كانت قد اضمحلت وانقسمت إلى قطريها المعروفين أي إلى الوجه البحري والوجه القبلي ونطلق عليها مملكتي "عباد حوريس" اللتين ورد ذكرهما في بعض النصوص الدينية. ونحن نعرف عواصم هاتين المملكتين ونعرف أن لكل منهما مدينتين لهما اسمان، على أساس أن إحدى المدينتين تمثل المركز السياسي والأخرى تمثل المركز الديني في المملكة، ففي مصر العليا سميت المدينتان "نخب" و"نخن" وأطلق الإغريق عليهما "ايليتيا سبوليس" و"هيراكونبوليس"، كلاهما يقع الآن في حدود مدينة إلى الجنوب من الأقصر، أما في مصر السفلى فقد سميتا "دب" و"بي" وسماهما الإغريق "بوطو"، وكلاهما يقع في غرب الدلتا ولا تزال بعض الكيمان قائمة حتى الآن في موقعهما وتسمى باسم "تل الفراعنة". وفي العاصمتين كان الإله الذي يعبد هو الصقر "حوريس" وإن لم يستطع أن يهيمن على "بي" إلا بعد القضاء على إله آخر قديم كان مستقرًا فيها ويرمز له بالطائر بلشون(٢).

---

(٢) بلشون بالعربية المصرية، وهي القبطية بلكوب ويعرف أيضًا بمالك الحزين (المترجم)

أما الإله الأصلي لمصر العليا "ست – نبوت" فقد صمتت عنه هذه النصوص ولم نذكره بشيء، ويبدو أنه كان قد غلب على أمره تمامًا أمام الإله الصقر "حوريس".

ومما يؤسف له أنه لم تصلنا وثائق ثابتة تاريخية عن عباد حوريس ولذلك لا نستطيع أن نتكهن بالفترة التي حكموا مصر خلالها، ولو أننا نعتقد أن فترة حكمهم هذه لم تدم طويلًا، إذ أن ما عثر عليه من آثار في مقابر الفترة المتأخرة من حضارة نقادة يكاد يستمر دون انقطاع إلى عصر الأسرة الأولى، وبذلك لا نكون مغالين أننا قلنا في فترتهم شملت السنوات القليلة التي سبقت الأسرة الأولى. ومصري الدولة القديمة نفسه لم يكن يعرف الكثير عنهم، إذ لم تصل إليه إلا صور غير واضحة عن كنه هاتين المملكتين المبكرتين، واعتقد المصري أن عباد "حوريس" الذين فنوا هم ملوك من "الأشباح"، بل أن القصص الديني سماهم "أرواح بي" و"أرواح نخن" وأبرزهم على هيئة "صقور" وأحيانًا على هيئة "أبناء أوى".

ولقد بينا في المقدمة كيف أن المصري كان يجنح في تعبيراته إلى استعمال المثنى وظهرت هذه الناحية بشكل واضح في فترة "عباد حوريس" إذ كانت هناك مملكتان ولكل منهما عاصمتان، وتمكن المصري في أثناء هذا العصر من أن يخترع الكتابة الهيروغليفية التي تقدمت بسرعة فائقة. وتكون مُنذ ذلك الوقت الكثير من الرموز التي تعبر عن مملكتي مصر والتي احتفظت بمضمون المثنى وبقيت محتفظة به طوال العصور الفرعونية، برغم أن هذا المعنى لم يكن ذا موضوع. ونحن نعنى هنا العناصر المهمة من الألقاب الملكية مثل الحيوانين الرمزيين (وهما "العقاب" الذي يرمز إلى مصر العليا، و"الصل" الذي يرمز إلى مصر السفلى) وكذلك مثل النباتين الرمزيين (وهما

"القصب" الذي يرمز إلى مصر العليا والبردي الذي يرمز إلى مصر السفلى)، ومثل التاجين الملكيين (وهما التاج الأبيض وهو عبارة عن قلنسوة من جلد ويرمز إلى مصر العليا، والتاج الأحمر الذي يتميز بقطعة من سلك حلزوني الشكل مرشوق فيه وهو يرمز إلى مصر السفلى) وما إلى ذلك، ونحن لا نشك في أن الكثير من ألقاب الموظفين التي تتصل بمصر العليا وبمصر السفلى ترجع في أصلها إلى ذلك العصر الذي كانت مصر فيه منقسمة إلى مملكتي "عباد حوريس".

وإذا كان من العسير أن نتحدث في هذا المجمل التاريخي عن التطور الفني للصناعات المصرية، إلا أن علينا أن نخص بكلمة قصيرة مجموعة من روائع الفن المبكرة، وهي "لوحات الكحل الفاخرة"، فمُنذ منتصف عصر حضارة نقادة الثانية أخذت بعض الموضوعات الزخرفية تظهر لنا منقوشة على مقابض من العضم لكثير من الأدوات أو على لوحات حجرية تستخدم لصحن الكحل الذي يتزججون به (لوحات الكحل)، وعثر على لوحات كبيرة وغنية في رسوم كانت بلا شك تستخدم لتجهيز الكحل الذي يستخدمه الملك في مناسبات دينية معينة.

وفي أول الأمر كانت تنقش الرسوم بدون نظام أو ترتيب بل وبدون أن يصحبها كتابات اللهم إلا بعض علامات قليلة لم نستطع حتى الآن تفسيرها. وكان الشخص الرئيسي (هو الحاكم) يمثل على هيئة نور أو أسد وينتقم من أعدائه بعنف وقسوة.

ولقد اختفى هذا الأسلوب في رسوم العصور التاريخية بعد أن هيمن على الفن المصري نوعِ من التقاليد الفنية التي تذهب إلى التسامح والتمدن. ولكنا

سرعان ما نجد أن التطور الفني عند المصريين كان يهدف إلى النظام والترتيب، فأخذت الرسوم تنقش موزعة على صفوف يعلو كل صف منها الآخر.

وتكون هذه الرسوم على الأغلب ذات مغزى تاريخي، ولم نستطع إلى الآن أن نفهم معناها بوضوح نظرًا لاعتمادها على المعاني الرمزية البحتة، ومثال ذلك لوحة كحل تعرف باسم "لوحة الحصون" نجد على أحد وجهيها رسوم لحيوانات يرمز كل منها إلى الملك ويقوم كل منها بهدم جدار حصن ذي مداخل ومخارج بواسطة فأس يقبض عليها. وفي داخل كل حصن نجد على هيئة جدار دائري اسمًا منقوشًا لم نستطع للأسف أن نقرأه حتى الآن.

ونجد على الوجه الآخر لهذه اللوحة بضع صفوف في كل منها عدد من الماشية أو من الأشجار الخاصة بمنطقة ليبيا، ونعرف ذلك من العلامة الموجودة بجانب هذا الصف والتي استخدمها المصري بعد ذلك للتدليل على منطقة ليبيا، ومن ذلك نعرف أن هذه الحيوانات والأشجار أخذت كجزية وأن هذه اللوحة تسجل نصرًا مصريًا على المناطق الليبية التي تجاور مصر من ناحية الغرب.

ومن المعروف أن الحيوان الذي مثل على اللوحة السالفة الذكر في وسط الصف الأسف ممسكًا بفأس يهدم بها الحصن. هذا الحيوان عبارة عن عقرب. ومن أجل ذلك اصطلح العلماء مُنذ وقت طويل على أن يروا في هذه اللوحة أثرًا لملك يرمز إليه بالطريقة البدائية التي عرفناها في الكتابة الهيروغليفية في أوائل عصرها "بالعقرب" وهذا الرمز لا نستطيع حتى الآن قراءته.

ولذلك نطلق على هذا الملك اسم الملك العقرب، ولقد وصلت إلينا قطعة أخرى من عصر هذا الملك وهي ما نسميها "دبوس القتال الفاخر للملك العقرب" وهذا الدبوس حاله كحالة لوحات الكحل الفاخرة كان يستخدم في بعض الطقوس التي تقام في المعبد، وبالفعل عثر عليه بين أنقاض معبد هيراكونبوليس ونرى عليه نقشًا يمثل الملك متحليًا بتاج الوجه القبلي ذي اللون الأبيض، وبذلك يرمز إلى نفسه على أنه الحاكم للوجه القبلي فقط. ولابد أن يكون هذا الملك أحد الذين عبدوا حوريس في مصر العليا. ولابد أيضًا أن يكون قد عاش في عصر يسبق بقليل عصر الأسرة الأولى. ويتفق هذا التاريخ مع الأسلوب الفني الذي أتبع في تنسيق الرسوم التي وردت على القطعتين الأثريتين السالفتي الذكر من عصره.

وعلى هذا الأساس يكون الملك الذي ظهر في التاريخ المصري مباشرة بعد الملك العقرب هو "نعرمر" صاحب اللوحة الفاخرة لصحن الكحل، وهي الصورة التي يجب أن نضعها في الفجر الأول للتاريخ المصري المؤرخ، لأن الأسلوب الفني الذي نقشت على أساسه الرسوم التي وردت على وجهيها يحتم هذا، كما أن الملك قد ظهر فيها متحليًا لأول مرة تارة بالتاج الأبيض الخاص بالوجه القبلي، وتارة أخرى بالتاج الأحمر الخاص بالوجه البحري، وهكذا تكون مصر قد وحدت مرة أخرى في عصره.

ويجدر بنا قبل أن ننتقل إلى الحديث عن تاريخ عصر الأسرتين الأولى والثانية أن نذكر في كلمة موجزة شيئًا عن مصادر التاريخ المصري، وبخاصة أن ذلك يتصل بمصر ويعتبر من أهم الأمور التي تمس الشعوب المتحضرة والتي عاشت في مناطق الشرق القديم في عصور ما قبل الميلاد.

الفصل الثاني

التجديد الزمني للتاريخ المصري

١- كتاب التاريخ لمانيتون

إذا فرضنا أن كتاب التاريخ الذي كتبه "هيرودوت" عن مصر هو الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا من الكتب التي ألفها المؤرخون الإغريق. افتقدنا كل السبل التي تساعدنا على تكوين الإطار الذي يحوي أحداث التاريخ المصري، واقتصرت معلوماتنا على الموقع الجغرافي لمصر وشعبها، وعلى تقاليدهم وعاداتهم، وعرفنا بعض أسماء ملوك الفراعنة وما قاموا به من أعمال، ولكنا لم نستطع أن نرتب هذه الأسماء ترتيبًا تاريخيًا كما نفعل الآن.

في الواقع كان "مانيتون" الكاهن المصري السمنودي هو أول من كتب التاريخ المصري .. حدث هذا في عصر الملك بطليموس الثاني (حوالي ٢٨٠ ق.م) أي بعد ١٧٠ سنة من موت هيرودوت، ولعل الذي دفع مانيتون إلى القيام بهذا العمل، هو الرغبة في إظهار الحقائق التي مسخها هيرودوت الإغريقي في كتابه.

ويرجع الفضل لمانيتون في تقسيم التاريخ المصري إلى ٣٠ أسرة، وهو التقسيم الذي لا يزال العلماء يأخذون به، وبينما الأسرة الأولى بالملك مينا، كما ينهي آخر الأسرات المصرية (الأسرة الثلاثين) بإعادة غزو مصر من الملك الفارسي ارتجزرسيس الثالث ٣٤٣ ق.م وأضاف عصر ملوك الفرس الذين تعاقبوا على الحكم قبل أن يقوض اسكندر المقدوني إمبراطوريتهم، ثم

عصر اسكندر بعد أن فتح مصر جاعلًا منه عهد حكم الأسرة الحادية والثلاثين.

ومما يؤسف له أن المؤلف التاريخي لمانيتون قد ضاع واندثر، ويبدو أن القارئ الإغريقي لم يقبل عليه ولم يهتم به نظرًا للأسلوب القومي الذي تميز به، ومن أجل هذا لم نعثر في المؤلفات الإغريقية على أي صدى لهذا الكتاب، في حين أن الكتاب اليهود اعتمدوا عليه لتأكيد العلاقات القديمة التي قامت بين أسلافهم وبين مصر.

وعن هذا الطريق وصلت إلينا بضع فقرات منه سجلها "فلافيوس بوسفوس" ونحن نعتبر أن الأهمية الكبرى لهذه الأجزاء التي وصلت إلينا تقوم على أنها تسرد لنا أسماء الملوك المصريين الذين حكموا مصر الفرعونية مدونة أسماءهم بالنطق الإغريقي الذي كان سائدًا في أيام مانيتون، أما سنى حكم كل ملك كما ذكرها مانيتون فقد غالى فيها كل الغلاة بحيث لا يستطيع أن يقبلها أي باحث في شئون التاريخ، ولذلك لا نعتمد على هذه القائمة من ناحية تحديد عصر كل ملك إلا في حذر شديد.

ويبدو أن مانيتون في تقسيمه للأسرات التي تشمل التاريخ الفرعوني اعتمد على معلومات صحيحة وصلت إليه من مصادر مصرية قديمة لها قيمتها وذلك لأنها تتفق اتفاقًا كبيرًا مع التقسيم الذي ورد في الوثيقة التي سيأتي الكلام عنها على الصفحات التالية وهي المعروفة باسم "ورقة تورين البردية".

أما التقسيم الخاص بالدول في عصر مصر الفرعونية فهو عمل قام به العلم الحديث.

فنحن الآن نتحدث عن "الدولة القديمة" ونقصد بها عصر الأسرات في مصر من الأولى إلى آخر السادسة. و"عصر الاضمحلال الأول" من الأسرة السابعة إلى آخر العاشرة و"الدولة الوسطى" من الحادية عشرة إلى آخر الثالثة عشرة و"عصر الاضمحلال الثاني" (وهو عصر الهكسوس) من الرابعة عشرة إلى السابعة عشرة و"الدولة الحديثة" من الثامنة عشرة إلى آخر الأسرة الرابعة والعشرين. وأخيرًا "العصر المتأخر" ويبدأ من الأسرة الخامسة والعشرين وينتهي في آخر الأسرة الثلاثين.

وهناك ما يثبت أن المصريين القدماء أنفسهم كانوا على علم بوجود قسمين شاملين مهمين في تاريخهم القديم وهما ما نسميه الآن بعصري الدولة القديمة والدولة الوسطى، ودليلنا على ذلك القائمة التي كتبت في عصر الرعامسة (عصر الأسرة التاسعة عشرة) حاوية أسماء ملوك مصر مُنذ أول العصور حتى العصر الذي كتبت فيه، وميزت بوضوح مؤسس كل من الأسرتين الأولى والحادية عشرة. وكما نعلم أن كلًا من هذين الاسمين نبدأ به عصرًا قائمًا بنفسه، يطلق العلماء الحديثون على العصر الأول اسم "الدولة القديمة" وعلى العصر الثاني اسم "الدولة الوسطى".

٢- قوائم بأسماء الملوك الفراعنة:

ترك لنا المصريون أنفسهم قوائم ملكية كتبوها تارة على أوراق البردي وحفروها تارة أخرى فوق الحجر في معابدهم أو مقابرهم، وهي قوائم تحمل لنا مادة مهمة للتعرف على حقائق التاريخ المصري.

ولعل أهم هذه القوائم البردية المحفوظة في متحف تورين الغني بآثاره والتي عرفت باسم "بردية تورين". وهي ترجع في كتابتها إلى عصر الرعامسة

(الأسرة التاسعة عشرة) وتحوي أسماء ملوك مصر مُنذ عصر الآلهة مبتدئة باسم أول ملك (مينا) ومنتهية باسم الملك رمسيس الثاني، وقسمت هذا العدد من الملوك إلى مجموعات تتفق مع الأسرات التي ذكرها مانيتون. وتمتاز هذه البردية بأنها ذكرت عدد سنى حكم كل ملك كما ذكرت عدد سنى حكم ملوك كل أسرة.

ونحن نعتقد أنه لو كانت هذه البردية قد وصلت إلينا سليمة غير مهشمة لما كنا في حاجة إلى تاريخ مانيتون ولما التجأنا إلى القوائم الأخرى. ولكن مما يؤسف له أن هذه الوثيقة ذات الأهمية التاريخية الكبرى تعرضت لعوامل التلف فوصلت إلينا في حالة رثة ولذلك تجدنا مضطرين إلى الاستعانة بالقوائم الأخرى وبعض الوثائق المختلفة لكي نكون منها صورة كاملة للتاريخ المصري.

وهناك قائمة سقارة التي كتبت في عصر رمسيس الثاني وعثر عليها في إحدى مقابر سقارة وهي محفوظة الآن بالمتحف المصري وتتصل في وضوح بورقة تورين البردية في أن كلًا منهما قد كتب في "منف" واتصل على هذا الأساس بالتقاليد التي كانت سائدة في مصر السفلى والتي كانت تحتم تسلسلًا معينًا لملوك الفراعنة.

وقد ذكرت قائمة سقارة ثمانية وخمسين اسمًا ملكيًا مبتدئة بالملك "ميبس" (الأسرة الأولى) ومنتهية بالملك رمسيس الثاني ولكن هذه القائمة لم تذكر سنى حكم الملوك.

أما قائمة أبيدوس التي كتبت في عصر سيتي الأول وأقيمت في معبده هناك فهي تمثل لنا القائمة التي اعتمدت علي التقاليد السائدة في مصر

العليا. وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة على وجه التخصيص تعلق المصري بفكرة انحدار الملوك المصريين من سلالة الآلهة وبأن هؤلاء الملوك حالهم في ذلك حال أولئك الآلهة الذين حكموا مصر في العصور الغارقة في القدم، يستطيعون توريث ملكهم لخلفائهم دون الاعتماد على العلاقات الأسرية التي تربط الأب بالابن الشرعي على ما كانت عليه الحال في العصور التي سبقت ذلك العهد.

لقد سجل سيتي الأول نفسه ومعه ابنه وخليفته في الحكم رمسيس الثاني متعبدًا لأجداده ملوك مصر مبتدئًا بأولهم الملك مينا وورد هذا التسجيل على حائط كبير في معبد أبيدوس وتعتبر هذه الوثيقة المصرية الأصيلة أحد مصادر التاريخ المصري القديم المهمة ولو أنها لم تذكر عدد سنى حكم هؤلاء الملوك.

وهناك قائمة الكرنك التي تتشابه مع قائمة أبيدوس في الغرض الذي من أجله أقيمت وكتبت في عصر الملك تحوتمس الثالث (الأسرة الثامنة عشرة) ومثل الملك نفسه يقدم القرابين لأجداده القدماء ذاكرًا منهم واحدًا وستين اسمًا. ومن الملاحظ في هذه القائمة أن معلومات المصري القديم عن تاريخ أجداده كانت تتضاءل كلما بعدت الشقة إذ أن أسماء الملوك الذين سبقوا تحوتمس الثالث مباشرة كتبت مع ملوك الدولة الوسطى بشكل يقرب من الحقيقة بينما الأسماء الخاصة بمصر الدولة القديمة حدثت فيها أخطاء كثيرة، وهذه القائمة المهمة محفوظة الآن في متحف اللوفر.

ولعل أهم وثيقة تاريخية من عصر الدولة القديمة هي المعروفة باسم حجر بالرمو وهي تعداد لأولئك الذين حكموا مصر من أول الخليفة حتى

عصر الملك "نفر – ار – كارع" (الأسرة الخامسة) وهو الملك الذي سجلت في عصره هذه الوثيقة، ونحن نكاد نعتقد أن هذه الوثيقة تعتبر تسجيلًا تاريخيًا يقام في معابد مصر المهمة ويحفظ فيها، إذ قد وصلت إلينا قطع كثيرة كلها تحوي نفس النص، إلا أنها كانت موجودة في أماكن مختلفة.

ولأمر ما تسرب أكبر هذه القطع وأهمها إلى متحف بالرمو وأصبح هذا الحجر يعرف باسم هذه المدينة وهو لوح حجري من البازلت الأسود نقش على وجهيه، وعلى الأول منها أسماء ملوك الأسرات من الأولى حتى الرابعة وعلى الوجه الآخر أسماء ملوك أواخر الأسرة الرابعة إلى الملك "نفر – ار – كارع" من الأسرة الخامسة.

ومن الملاحظ أن الجزء الذي يعلو أسماء ملوك الأسرة الأولى فوق الوجه الأول قد خصص لأسماء ملوك مصر الذين حكموها في عصور فجر التاريخ مخصصين بعضهم بالذكر على أنهم حكموا مصر العليا فقط بينما البعض الآخر حكم مصر السفلى فقط.

على أساس أن المذكورين في الأول قد لبسوا التاج الأبيض الخاص بالوجه القبلي ولبس الآخرون التاج الأحمر الخاص بالوجه البحري. وكان هناك بعض الملوك الذين حكموا مصر قبيل عصر مينا، وتمكنوا من توحيد القطرين ودليلنا على ذلك أنهم لبسوا التاج المزدوج.

ويبدو أنهم بدءوا يسجلون عدد سنى حكم الملوك ابتداء من عصر الأسرة الأولى ولو أن سنى حكم الملك مينا غير موجودة على هذا الجزء من الوثيقة.

وطريقتهم في ذلك أنهم كانوا يفصلون بين كل عام وآخر بواسطة العلامة الهيروغليفية التي ترمز للسنة وهي العلامة التي يبدو أنها قد استخدمت في الكتابة ابتداء من عصر الأسرة الأولى، وذكرت أسماء ملوك العصر السابق لهذه الأسرة بدون تحديد سنى حكمهم على أساس أن عهدهم قد طال به المدى وأنهم اعتمدوا في تدوينه على المذاكرة.

أما أولئك الذين عاشوا في العصر التاريخي أي الذين ذكرتهم وثيقة حجر بالرمو حتى الأسرة الخامسة فإننا لا نستطيع أن نفهم تمامًا عدد سنى حكمهم وذلك لأن المصري في ذلك العهد الباكر كان لا يكتب العدد بالنسبة إلى الملك بعينه بل كان يسمى كل عام باسم أهم حدث وقع فيه فكانوا مثلًا يسمون العام باسم احتفال مهم أقيم لإله. وكان هذا الاسم يكتب مباشرة بعد العلامة الهيروغليفية المميزة للعام.

ومن الواضح أن هذه الأحداث الهامة يتذكرها الناس كلما قرب عهدها بهم ومن أجل هذا أخذت أعوام حكم الملوك الذين سبقوا الأسرة الخامسة تزداد وهذا ما يفسر لنا أن الوجه الأول لحجر "بالرمو" قد خصص لعدد كبير من الملوك حكموا مصر حتى أواخر الأسرة الرابعة وخصص الوجه الآخر لعدد قليل من هؤلاء الملوك الذين حكموا مصر مُنذ أواخر الأسرة الرابعة حتى عصر الملك "ساحو – رِع" السابق للملك الذي كتبت في عهده هذه القائمة.

ونعتبر هذه الوثيقة في أهميتها مماثلة لورقة تورين البردية إذ أنها تمثل لنا المصدر الموثوق به لأحداث التاريخ المصري حتى عهد الأسرة الخامسة. ولو أننا قد حصلنا على نسخة كاملة لهذه الوثيقة لاستطعنا أن نعد سنى حكم كل

ملك ولخرجنا بنتيجة حاسمة في هذا الأمر.

ولكن للأسف فإن أكبر الأجزاء التي وصلت إلينا من هذه الوثيقة والمحفوظة في متحف بالرمو لا تعطينا إلا فكرة تقريبية عن عدد سنى حكم كل ملك إذ أن المساحات المخصصة لهذه السنوات تأخذ في الاتساع مُنذ العصر الذي بدأ بأول ملوك الأسرة الخامسة ولذلك كان علينا أن ننظر بعين الحذر إلى المحاولات التي قام بها الكثيرون من العلماء في تفهم هذه الوثيقة وفي دراسة الأجزاء الناقصة منها مستخدمين في ذلك طرق مختلفة لإكمال هذا النقص.

وإذا كانت هذه القوائم الملكية لم تقدم لنا حتى الآن أية مساعدة لإقامة الأدلة في تكوين التسلسل الزمني للتاريخ المصري فإنها قد قدمت لنا الدليل على تسلسل أسماء الملوك وتتابعهم. وبذلك نستطيع اليوم أن نؤكد على الأقل في دراساتنا العلمية هذه الناحية التاريخية.

٣- التقويم المصري

حاول الكثير من العلماء، حتى القدامى منهم، وضع قواعد ثابتة للتاريخ المصري معتمدين تارة على ما وصل إليهم عن كتاب التاريخ لمانيتون. وتارة على البقية الباقية من ورقة تورين البردية بما فيها من أعداد لسنى حكم الملوك، وكانوا في محاولتهم هذه يهدفون إلى طريقة يستطيعون بها الوصول إلى الأعداد المعقولة للسنين التي عاشها التاريخ المصري، هذه المحاولة لم تنجح إلا على يد المؤرخ العظيم "ادوارد ماير" ونشرها في كتابه النموذجي "التقويم المصري" الذي يعتمد عليه علماء التاريخ.

لقد عرف الناس، مُنذ العصور الإغريقية، أن المصريين القدماء توصلوا إلى السنة الشمسية ذات ٣٦٥ يومًا، وهي بعينها السنة التي أخذ الرومان يتبعونها في حساب زمنهم مُنذ عصر يوليوس قيصر وأطلقوا عليها اسم "السنة اليوليانية"، وبذلك يحق لنا أن نقول أن السنة التي تسير عليها الآن هي اختراع مصري قديم، وتكونت السنة المصرية من اثنى عشر شهرًا ينقسم كل منها إلى ثلاثين يومًا ثم زادوا عليها خمسة أيام في آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التي ولد فيها الآلهة الخمسة التي تتكون منها مجموعة أزوريس وهي: أوزيريس، وازيس، وست، ونفتيس، وحوريس.

وجعلوا من هذه الأيام الخمسة مناسبات لاحتفالات دينية خاصة. أما الشهور الاثنى عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة شهور، ونستدل من الأسماء التي أطلقوها على هذه الفصول هي: ("الفيضان" و"بذر الحبوب" و"جني المحصول") مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذي يهب أرضهم المخصوبة ويجددها كل عام، حتى أنهم أقاموا تقسيم فصولهم على هذه الظاهرة الطبيعية التي تأتيهم كل عام أي حدوث الفيضان، وترتب على ذلك أن اعتبر المصريون "عيد غرة العام" بمثابة اليوم الذي تظهر فيه بشائر الفيضان التي وقعت ولا تزال تقع في منتصف الصيف أي حوالي منتصف يوليه بحسابنا الحالي.

وعلى هذا الأساس تكون أشهر فصل "الفيضان" من يوليه حتى أكتوبر وأشهر فصل "بذر الحبوب" من نوفمبر إلى فبراير (ويتفق هذا مع أشهر الشتاء حاليًا) وأشهر فصل "جني المحصول" تتفق مع فصل الربيع أي من مارس إلى يونيه.

ولقد نجح أخيرًا "نويجبارو" Neugebauer في أن يبرز لنا حقيقة مهمة وهي أن السنة المصرية لم تعتمد في حسابها على علم الفلك بل وصل إليها المصري على أساس ظهور الفيضان عامًا بعد عام، فهي لا شك كانت سنة نيلية قام حسابها بين أفراد شعب زراعي لعب فيضان النيل عندهم دورًا رئيسيًا، إذ اتصلت به حياة الناس ورخاؤهم اتصالًا وثيقًا.

ولم يكن من المهم لديهم أن يأتي الفيضان في نفس اليوم من كل عام، بل يكفيهم أن يعرفوا أن فيضان نيلهم يأتيهم في نفس الوقت تقريبًا، ونحن نعلم الآن أن الاختلافات الزمنية لا تلعب دورًا مهمًا في المدة التي يعيشها الإنسان.

ليس في إمكاننا أن نؤكد متى استطاع المصري أن يقيم "حساب السنة" على هذا الوجه ولعلهم أقاموه في إحدى فترات عصور ما قبل التاريخ، وربما كانت هذه الفترة أثناء عصر حضارة نقادة الثانية. وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أول أيام العام الجديد.

وحين مضى على هذا التوقيت عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضان بمدة طويلة، فلاحظوا أن أشهر بذر الحبوب (وهى بحسب توقيتنا الحالي أشهر الشتاء) أخذت تقع في فصل الصيف. ونحن نعرف الآن أن هذا الاختلاف يحدث على أساس أن السنة المصرية القديمة كانت تتكون من ٣٦٥ يومًا في حين أن السنة الشمسية تتكون من ٣٦٥ ¼ يومًا.

ومعنى هذا أن الاختلاف يحدث بمقدار يوم واحد كل أربع سنوات، ولقد تغلبنا على ذلك في السنة الشمسية الحالية بإضافة هذا اليوم مرة كل أربع سنوات وجعل السنة الرابعة "كبيسة" أي ٣٦٦ يوم. وعلى ذلك أصبحت الفترة التي تشمل ١٤٦٠ سنة بالنسبة إلى التوقيت المصري القديم تعادل ١٤٦١ سنة بحساب التوقيت اليوليانى "الشمسي". وأخيرًا استطاع التوقيت الجريجوري الذي نفذ مُنذ القرن السادس عشر بعد الميلاد أن يقضي على كل العيوب وأن يجعل إضافة اليوم لا تحدث إلا مرة كل مائة عام.

٤- أهمية النجم الشعري اليمانية في التوقيت المصري

هناك ناحية هامة ساعدتنا كثيرًا على تحديد فترات التاريخ المصري وجعلت هذه الفترات تتجاوب مع حسابنا الزمني للتاريخ، ويرجع الفضل في ذلك إلى الدراسة العميقة التي قام بها "ادوارد ماير" في هذا الموضوع. لقد لاحظ المصريون أنفسهم أن سنتهم النيلية التي تبدأ من اليوم الذي يأخذ فيه النيل في الارتفاع وتنتهي بنفس اليوم من العام التالي. أن هذه السنة تتفق بشكل واضح مع الدورة السنوية لنجم ثابت معين يبدو بوضوح بعد اختفاء طويل، وذلك مع بدء مجيء الفيضان مرة كل عام، ولاحظوا أيضًا أن ظهوره هذا يحدث في الفجر المبكر قبيل شروق الشمس، أي ما تسميه الآن بالنسبة إلى بعض الكواكب "الطلوع المبكر". هذا النجم الثابت، ذو الضوء الساطع نسميه الآن "الشعر اليمانية"، وأطلق المصريون عليه اسمًا مؤنثًا هو "سبدت" وورد ذكرها في المتون الدينية القديمة على أنها "الجالية للنيل" (أي التي تحدث فيضانه) وقدسوا هذا النجم على أنه صورة من صور "إزيس"، ثم بعد ذلك اعتبره الإغريق بمثابة "الكلب الكبير" الخاص بالصياد "أوريون" (برج

الجبار) في السماء. ومن الطريف أن نعلم أن الناس في العصر اليوناني الروماني جمعوا بين الصورتين، صورة النجم كالآلهة ازيس وصورته كالكلب وصنعوا تماثيل من الطمي المحروق تمثل ازيس راكبة فوق كلب.

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الحالية أن دورة النجم الشعرى اليمانية تعادل تقريبًا دورة الشمس في عام، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نتحدث، بعدما أسلفناه من شرح، عن سنة الشعرى اليمانية بدلًا من حديثنا عن السمة اليوليانية ولذلك يحق لنا أن نسمي الفترة ذات ١٤٦٠ سنة باسم "فترة الشعرى اليمانية" ونظرًا لأنه يمكننا الآن أن نرصد بسهولة، "الطلوع المبكر" لكل نجم وأن نحسب فترات هذا الطلوع متبعين القواعد الثابتة للتوقيت الزمني الحديث، لذلك أصبح في مقدورنا أن نحدد التواريخ التي توافق "الطلوع المبكر" لهذا النجم والتي وصلت إلينا مسجلة في النصوص المصرية، وأن نقيم حساب هذه التواريخ على القواعد الفلكية الحديثة.

وهكذا تبدو لنا بوضوح الأهمية الكبرى التي يمكن أن نعقدها على ورود طلوع "الشعرى اليمانية"، في تحديد فترات التاريخ المصري تحديدًا زمنيًا ثابتًا.

من المعروف أن المصريين احتفلوا بيوم "طلوع النجم الشعرى اليمانية" جاعلين منه عيد أول السنة بجانب احتفالهم العادي بغرة العام الشعبي، ولقد أطلقوا على هذا العيد اسم "طلوع سبدت" وفي أثناء فترة "الشعرى اليمانية" ذات ال ١٤٦٠ سنة، كان يحدث أن يتأخر عيد طلوع هذا النجم عن عيد غرة العام الشعبي بمعدل يوم كل أربعة أعوام، كما ذكرنا آنفًا. ولكن كان العيدان يتحدان في يوم واحد مرة كل فترة "الشعرى اليمانية" أي مرة كل ١٤٦٠ عامًا.

ولقد لاحظ القدماء أنفسهم هذه الظاهرة وكثيرًا ما سجلوا حدوثها، فسجل الكاتب الروماني "سنسورينوس" هذا الحادث مثلًا، وتمكن العالم "بوخاردت" أن يحدده بعام ١٣٧ بعد الميلاد. وأصبح هذا العام بمثابة نقطة ارتكاز تقوم على قرائن علمية فلكية ثابتة، وما علينا إلا أن نذهب في التاريخ فترة ١٤٦٠ إلى الوراء لنعرف متى بدأت فترة النجم "الشعرى اليمانية" وبعملية حسابية بسيطة يمكننا أن نحدد هذه الفترات بعام ١٣١٧ ق.م، ٢٧٧٢ ق.م، ٤٢٢٥ ق.م وهلم جرا، أي نستطيع بذلك أن نتوغل في أعماق التاريخ.

ونظرًا لأنه قد وصلت إلينا بعض النصوص المصرية التي تتحدث عن "طلوع" هذا النجم ففي استطاعتنا أن نعين يوم "الطلوع" بإمكانياتنا العلمية الحالية وأن تحدد موضع هذا اليوم في الإطار التاريخي. ومن أمثلة ذلك أنه ورد في نص المرسوم الملكي الذي يرجع إلى عصر الملك بطليموس الثالث والذي عثر عليه في مدينة "كانوب" (أبو قير) ذكر طلوع هذا النجم، ونستطيع أن نترجم هذا الحادث بأنه وقع في ١٩ يوليه سنة ٢٣٧ ق.م، كذلك وصلت إلينا من العصور القديمة بعض الأنباء التي تحدثنا عن طلوع "الشعرى اليمانية" ولعل أهمها هما تاريخان.

ورد أحدهما مسجلًا على ورقة "ايبرس البردية" ولابد أنه اتفق مع ظهور الأسرة الثامنة عشرة، وورد الثاني مسجلًا على ورقة بردية من اللاهون ويتعلق بعصر الدولة الوسطى. ولابد لنا أن نوجه النظر هنا إلى أنه من أهم المسائل التي يجب الاعتماد عليها عند استخدام هذه الأنباء الخاصة بحدوث طلوع النجم "الشعرى اليمانية"، أن ندخل في الاعتبار أيضًا ما وصل إلينا من معلومات عن ملوك مصر في قوائم الملوك.

ولقد اعتنق كل من "ادوارد ماير" – وهو الذي كشف أهمية النجم "الشعرى اليمانية" بالنسبة إلى التوقيت المصري – و "زيته" وبخاصة "بورخاردت" فكرة قدرتنا على تحديد عصور التاريخ المصري وفتراته تحديدًا زمنيًا ثابتًا، إلى درجة أنهم اعتقدوا أن في الاستطاعة تحديد هذه الفترات عامًا عامًا، متبعين في هذا الشأن بعض الطرق المعقدة التي لا شك أنها أخرجتهم عن الهدف الذي كنا نقصد الوصول إليه. ومثل ذلك أن "ادوارد ماير" أثبت في كتابه القيم عن "التوقيت المصري" أن (١٩ يوليه عام ٤٢٤١ ق.م) هو أقدم توقيت ثابت في تاريخ العالم. ولعل الخطوات التي قادته إلى هذه النتيجة تبدو لأول وهلة بسيطة ومقنعة.

إذ أن المصريين لابد أنه استعملوا توقيتهم الشمسي في وقت اتفق حدوث طلوع النجم من أول العام الشعبي، وكما رأينا فيما سبق، لا يمكن أن يحدث هذا التوافق إلا في أول فترة من فترات الدورة الخاصة بنجم الشعرى اليمانية. ونظرًا لأن النظرية التي نادى بها "ماير" تؤكد أن أول الفترة التي تبدأ بعام ٢٧٧٢ ق.م كان "التوقيت الشمسي" معروفًا ومستعملًا فيها بل وقائمًا مُنذ عصر سابق، إذن لابد أن بدء استعماله يقع في أول فترة سابقة لهذه؛ أي أنه بدئ باستعماله عام ٤٢٤١ ق.م. هذا مع العلم بأن الدراسات الحديثة لا تجعل عام ٢٧٧٢ ق.م عامًا بلغت فيه الحضارة المصرية حدًا يتفق مع نظرية بورخاردت.

لقد سبق أن عارضت هذه النظرية من زمن بعيد، واعتمدت في ذلك على أن اتبع "تقويم فلكي" دقيق، هو عمل عقلي عظيم، يعتمد بلا شك على مقدرة ممتازة في علوم الحساب والفلك لا نستطيع أن نتوقع حدوثه في عصر مبكر لم يعرف الناس فيه الكتابة والقراءة.

ومن أجل هذا وقفت موقف المعارض للعلماء الثلاثة سالفي الذكر. وأكدت لهم أننا لو أحسنا الظن فنحدد إتباع التوقيت الشمسي في عام ٢٧٧٢ ق.م أي في ذلك العصر الذي انبثقت فيه حضارة الدولة القديمة وحين غمر النور أرجاء التاريخ المصري.

وأوضح لنا "نويجباور" المتبجر في علوم الرياضة في مقاله المعروف

(Die Bedeutungslosigheit der Sothisperiode fur die aelteste aegyptische Chronologie) "Acta Oriental la XVII"

عدم استطاعتنا الاعتماد على فترات "الشعرى اليمانية" في تحديد أزمنة العصور الأولى للتاريخ المصري، كما حاول الأساتذة الثلاثة سالفوا الذكر، ثم وجه النظر إلى أن من المقبول منطقيًا أن نعتمد على "السنة النيلية" التي ذكرناها على الصفحات السابقة كقاعدة للتوقيت الزمني للعصور المبكرة. وإني أعتقد أن حديثه هذا فيه الكثير من المنطق. إذ أن أهمية تتبع مجيء الفيضان للمصري القديم في عصوره الأولى، لابد أنها كانت عظيمة إلى درجة أنه سجلها بعناية، ونستدل على ذلك من التسجيلات التي وردت على قائمة الملوك المعروفة باسم "حجر بالرمو" والتي كتبها المصري أسفل كل عام من الأعوام المثبتة فوق الحجر. هذه الحقيقة لا تحتاج لاثباتها إلى دراسات فلكية معقدة، كما أظهر ذلك "نويجبارو" أو إلى الاعتقاد بأن مصر حظت بتوحيد كامل بين قطريها في عصر ما قبل التاريخ. كما أنه قد سبق القول بأن السنة الشعبية تتأخر بمقدار ١/٤ يوم سنويًا عن السنة الشمسية، إلا أن هذا الاختلاف لا يستطيع أن يؤثر شيئًا في حياة الجيل الواحد، والمصري القديم لم يكن يستطيع أن يلاحظ عدم توافق مجيء الفيضان مع عيد أول العام

الجديد إلا بعد مرور مدة من ثلاثة إلى أربعة قرون، وأن هذا العيد أخذ يقع في فصل بذر الحبوب أو في فصل "جني المحصول"، ولعلهم في هذه الحالة فقط أخذوا يفكرون في مخرج من هذا المأزق ولابد أنهم وجدوا الحل في "طلوع الشعرى اليمانية" التي أطلقوا عليه اسم "الجالبة للنيل" لأنهم كانوا يعرفون أن هذا النجم كان لا يحدث "طلوعه" إلا في يوم مجيء الفيضان. وأني أعتقد أن رصد "طلوع" هذه النجم حدث لعلاقته المباشرة ببدء حدوث الفيضان، وليس كما قال "ماير" لأن المصري أراد أن يقيم على حساب طلوعه توقيتًا زمنيًا، حدث هذا الرصد مُنذ عصور مبكرة ويعتبر من الأسس الثانوية التي ساعدت في إقامة التحديد الزمني للتاريخ المصري ولقد عبر عن ذلك "نويجبارو" بقوله:

"لعل الاعتماد على النجم "الشعرى اليمانية" وإيجاد نوعين من التاريخ السنوي لم يحدث إلا بعد أن فصل المصريون تحديد سنتهم ذات الـ ٣٦٥ يومًا عن سنتهم النيلية وعلى هذا الأساس تصبح نظرية تحديد "أقدم توقيت ثابت في تاريخ العالم" غير ذات موضوع ويمكننا أن نتجاهلها.

ونحن لا نستطيع أن نحدد الوقت الذي ربط المصريون فيه توقيتهم بطلوع النجم الشعرى اليمانية، ولكن في مقدورنا أن نؤكد أن تقسيم العام إلى ٣٦٠ يومًا مع زيادة خمسة أيام "النسيء" كان معروفًا في عصر الدولة القديمة. ولكن ما ينقصنا تمامًا هو تسجيلات طلوع "الشعرى اليمانية" التي ترجع إلى عصر الدولة القديمة، إذ أن أقدم ما وصلنا من هذا النوع يرجع إلى الدولة الوسطى (الأسرة الثانية عشرة). فإذا اتبعنا نظرية "نويجبارو" التي يذهب فيها إلى أنه حدث في عام ٢٧٧٢ ق.م "طلوع" اعتبر بمثابة بدء لفترة الدورة الخاصة بالنجم "الشعرى اليمانية"، فلا يمكن أن نتوقع حدوث اختلاف بين

أول العام بحسب التقويم الشمسي وأول مجيء الفيضان إلا بعد مرور ٣٠٠ إلى ٤٠٠ عام، وعلى ذلك لا نستطيع أن نعتقد أن المصريين أقاموا توقيتهم على أساس طلوع النجم "الشعرى اليمانية" إلا حوالي عام ٢٣٠٠ ق.م. أي حوالي أوائل عصر الاضمحلال الأول. وفي هذه الحالة يكون ذلك التسجيل الوارد على بردية اللاهون السالفة الذكر هو أقدم أو على الأقل من أقدم ما سجل لهذا النوع. وبذلك يختفي أملنا بأنه ستصل إلينا يومًا ما أية تسجيلات ترجع إلى عصر الدولة القديمة، لسبب واضح وهو أن الاعتماد على طلوع هذا النجم لم يكن معروفًا بعد في ذلك الوقت.

وإذا سلمنا بعدم العثور على ما يثبت استخدام المصريين لطلوع هذا النجم في تقويمهم أبان عصر الدولة القديمة، تتبقى لدينا وسيلتان نعتمد عليهما لتحديد فترات الدولة القديمة تحديدًا زمنيًا.

أولاهما هي النقوش التي تتحدث عن حياة صاحب المقبرة وخاصة إذا كان هذا ممن عمروا طويلًا، ومثل هذه النقوش تجري على الوجه الآتي: أن صاحب المقبرة واسمه فلان ولد في عصر الملك فلان ثم تقلد المناصب (ويأتي ذكرها) في عصر الملك الابن ثم الملك الحفيد، وأخيرًا تذكر النقوش أن صاحب المقبرة قد مات في عصر الملك ابن الحفيد. هذه الحقائق يمكن دراستها ومقارنتها مع عدد سنى حكم كل من الملوك الذين وردت أسماؤهم في النقش، وإذا حدث أن أنتجت هذه الدراسة عددًا من السنين مغالى فيه. فهو في نفس الوقت لا يمكن أن يزيد كثيرًا على ما يستطيع إنسان عادي أن يحياه. ولعل السبب في أن نتيجة حساب سنى حكم بعض من الملوك توالت عهودهم قد تبدو كبيرة، هو أن بعض هؤلاء يكونون في الواقع قد اشتركوا مع آبائهم في الحكم وهو أمر كان كثير الحدوث في مصر القديمة، وإذا كانت

دراسة "ماير" قد أنتجت عددًا من السنين بلغ ٤١٩سنة لحكم ملوك الأسرتين الأولى والثانية، فإننا مازلنا ننظر بعين الحذر إلى هذا التقدير الذي يبدو بوضوح أنه مبالغ فيه، وبخاصة لأن هذا العدد من السنين لم يرد على وثيقة معاصرة، بل ورد على ورقة تورين البردية، ومما يؤسف به أن آثار هاتين الأسرتين لم تفصح لنا مطلقًا عن أية معلومات تخص سنى حكم هؤلاء الملوك ولكن نستطيع أن نقدر لهذه الفترة مدة قرنين على الأكثر.

أما الوسيلة الثانية التي تساعدنا في الحصول على تحديد دقيق لفترات عصر الدولة القديمة، فهي الآثار المكتشفة. ومن المعروف أننا لا نستطيع الآن أن ندرس الحضارة المصرية بمفردها بل علينا أن ندخل في الاعتبار حضارات الأمم المتاخمة والتي عاصرت مصر مُنذ أول عصورها، ونحاول التقريب بين العصور المتشابهة ونتساءل – معتمدين على دراساتنا للآثار – عن أوجه الشبه بين الحضارتين، مع استقرائنا لكل من المظاهر الأثرية، ولقد ذكرنا فيما سبق عند الحديث عن حضارة نقادة الثانية، أن الفترة الأخيرة منها وأوائل الفترة الخاصة بالأسرة الأولى امتازت بحضارة تتفق في كثير من مظاهرها مع حضارة "جمدة نصر" في بلاد ما بين النهرين، كما ثبت ذلك من نتائج أعمال التنقيب التي قامت بها البعثة الأمريكية في شمال سوريا (تل اليهودية) ومن المعروف أن الأبحاث الأثرية الخاصة ببلاد ما بين النهرين قد تقدمت إلى درجة تسمح لنا بتحديد أزمنة تاريخ هذه البلاد، كما أنه ليس هناك أي مؤرخ يرجع حضارة "جمدة نصر" إلى فترة تسبق عصر ٣٠٠٠ ق.م.

بل أثبتت الدراسات الحديثة أن هذه الحضارة ترجع إلى الربع الأول من القرن الثلاثين قبل الميلاد، ومن أجل هذه، ونظرًا للتشابه القوي بين آثار هذه الحضارة وبين آثار عصر الأسرة الأولى المصرية، نجد أنفسنا مضطرين إلى تحديد عصر مينا، وعصر بدء الأسرة الأولى حوالي عام ٢٩٠٠ ق.م.

وعلينا الآن بعد ما أسلفنا من شرح، أن ننفي بشدة ما حدده "بورخاردت" بعصر الملك مينا وبداية الأسرة الأولى، أي حوالي عام ٣٨٥٠، ٤٠٥٠ وعلينا أيضًا أن نرفض التحديد الذي أخذ به كل من "ماير" و"برسند" ومن أتى بعدهما والذي جعل عصر "مينا" في القرن الأربعين قبل الميلاد، سواء كان العام المحدد لعصره هو ٣٤٠٠، أو ٣٣١٥، أو ٣٢٠٠، ٣١٨٠ ق.م. والسبب في هذا الرفض هو أن التحديد مبالغ فيه وبجانب الحقيقة.

الفصل الثالث

الدولة القديمة

(من عام ٢٨٥٠ إلى ٢٠٥٢ ق.م)

اعتدنا أن نقسم العصر الطويل لازدهار الحضارة المصرية أبان الدولة القديمة إلى الفترات الآتية:

١- **عصر الأسرات الأول** (الأسرتان الأولى والثانية)

٢- **عصر بناة الأهرام** (الأسرات من الثالثة إلى آخر السادسة)

٣- **عصر الاضمحلال الأول** (الأسرات من السابعة إلى آخر العاشرة)

وهو العصر الذي تنتهي به الدولة القديمة ويقدم في نفس الوقت للدولة الوسطى

أ- عصر الأسرات الأولى (٢٨٥٠ إلى ٢٦٥٠ ق.م)

لا نكاد نتقدم خطوة واحدة في التاريخ المصري حتى نصطدم بذلك السؤال العسير، من هو "مينا" موحد القطرين، وما موقف هذه الشخصية الفذة من القصص المكتوب عنه وما التقاليد التاريخية التي جعلت منه الملك الأول ووضعته على رأس القوائم الملكية؟ في الواقع أننا لم نستطع حتى الآن أن نلقي ضوءًا على هذا السؤال – فاسم هذا الملك "مينا" وصل إلينا عن طريق الكتاب الإغريق (هيرودوت وغيره) ولم يرد اسمه في القوائم الملكية إلا

ابتداء من عصر الدولة الحديثة، فقد ورد مثلًا في قائمة الملوك بأبيدوس، بينما لم يرد للأسف في قائمة الدولة القديمة المعروفة باسم "حجر بالرمو" وهذا الاسم يسبب لنا أيضًا صعوبة لغوية أخرى "فهو عبارة عن مصدر للفعل "من" ومعناه "يبقى ، يدوم"، ويبدو أن المصريين أنفسهم في عصورهم المتأخرة، وإن لم يكن قبل ذلك، قد قصدوا بهذا الاسم وصف صاحبه بصفة "الدائم"، ومن أجل هذا حدثنا "أراثوستنيس" الكاتب الإغريقي بأن اسم أول ملوك المصريين هو "أيانيوس" ومعناه "الأبدي" ونحن نوجه النظر إلى خطورة التسليم بأن العلامة الهيروغليفية التي تنطق "من" تدل في نفس الوقت على اسم الملك "مينا"، وبخاصة أن هذه العلامات في أوائل عصر استخدام الكتابة كانت تكتب بشكل مقتضب يفتقر إلى العلامات المخصصة، ومما يدعو إلى الأسف أن كل علماء الآثار من الرعيل الأول قد وقعوا في هذا الخطأ.

وإذ قد أظهرنا بعض التشكيل في اسم الملك "مينا"، فإننا نحاول أن نستقرئ الآثار عن المؤسس الأول لوحدة مصر وعن اسمه. ومن أجل هذا فعلينا أن نعود إلى ما ذكرناه في الفصل السابق عن آثار ذلك الملك الذي ورد اسمه مكتوبًا عليها بعلامة "العقرب"، وهي الآثار التي عثر على معظمها في عاصمة مصر العليا القديمة "هيراكليوبوليس" (الكاب).

وليس من شك في أن ذلك الملك "العقرب" كان أحد الذين عبدوا حوريس واستقروا في مصر العليا، إذ أنه كان يلبس التاج الأبيض فقط. وكان منهمكًا في حروب مع أهل مصر السفلى، كما تحدثنا بذلك الصور والرسوم الرمزية التي وردت منقوشة فوق "دبوس القتال" الخاص به.

ومُنذ وقت طويل لاحظ العلماء التشابه الكبير في الأسلوب الفني الذي ظهر في نقوش "الملك العقرب" ونقوش الملك "نعرمر" التي وردت على لوحته الفاخرة المخصصة لصحن الكحل وعلى دبوس القتال، وكليهما عثر عليه في مدينة "هيراكونيوليس".

ومن الواضح أن هذا الملك هو أقدم من استخدم التاجين الأبيض والأحمر، ومن نقوشه هذه نستدل أيضًا على أنه خرج كملك لمصر العليا يحارب أهل مصر السفلى وانه انتصر وبذلك وحد القطرين، وأصبحنا نرى فيه تلك الشخصية الفذة التي استطاعت أن تقيم التوحيد الكامل، واستحق أن يسمى "نعرمر – مينا".

ويُضاف إلى ذلك أن "بتري" عثر على مقبرة في أبيدوس، يؤكد أنها مقبرة "نعرمر" إذ عثر فيها على بضع قطع بسيطة من بينها ما سجل عليه اسم هذا الملك بواسطة أختام، ولكن هذا كله لا يكفي، فلا زلنا نفتقر إلى أثر يثبت أن شخصيتي نعرمر ومينا هما لملك واحد.

ونظرًا لأن الآثار التي ترجع إلى عصر الأسرة الأولى والتي عثر عليها في أبيدوس لم تخرج لنا قطعة واحدة تسجل لنا اسم "مينا"، فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقدم على محاولة أخرى تهدف إلى إيجاد اسم آخر نعادله باسم "مينا"، وبخاصة أن اسم "نعرمر" يفتقر إلى قرائن وأدلة أكثر مما وصلت إلينا. وبالفعل عثر على بضع آثار صغيرة لملك سجل اسمه الملكي على هذا النحو "خوريس عحا".

ويبدو واضحًا من الأسلوب الفني الذي استعمل في النقش وخاصة طريقة كتابة العلامات الهيروغليفية.

أن هُناك تقاربًا شديدًا بين عصر هذا الملك وعصر "نعرمر" وبذلك نستطيع أن نؤكد أن عصره يقع في أوائل عهد الأسرة الأولى. وغير هذا، فنحن نعلم من قائمة الألقاب الملكية التي استقرت في أواخر عصر الدولة القديمة والتي عينت خمسة ألقاب لكل ملك من ملوك الفراعنة، نعلم أن أول هذه الألقاب هو الذي يجعل من الملك "حوريس" أي أنه إله يحيا فوق الأرض.

ولقد سبق أن رأينا كيف أن "حوريس" هذا يعتبر إله رئيسي يهيمن على قطري مصر وأن ملوك مصر في ذلك الوقت اعتبروا أنفسهم "عبدة حوريس"، وأصبح هذا المعبود إلهًا للدولة بعد أن توحد قطراها، واعتبر فرعون مصر بمثابة ممثل له على الأرض، يحق على الناس أن يتقدموا إليه ببعض فروض التأليه أثناء حياته الأولى.

ومن السهل علينا أن نتعرف على الاسم الحوريسي للملك إذ أنه كان يكتب داخل ذلك الرسم المعروف باسم "سرخ" والذي يصور من فوقه شكل الصقر واقفًا منتصب الجسم، وما "السرخ" إلا الرسم التقليدي لمواجهة القصر وبها ثلاثة مداخل، وكان اسم الملك يكتب بعلامة هيروغليفية مغتصبة داخل المستطيل وفوق صورة المداخل الثلاثة، ولقد تعودنا إطلاق الاسم الحوريسي على ملوك الأسرة الأولى وذلك لسبب بسيط، وهو أننا لم نعثر لهم إلا على هذا الاسم.

ونحن نستدل على أن الملك "عحا" سيطر على قطري مصر – مثله في ذلك مثل "نعرمر" – من اللوحات الصغيرة المنقوشة وهي تحمل اسمه، والتي نعتبرها بمثابة رقاع تثبت فوق الشيء للتدليل على ملكيتها، أما النقوش

فهي ترمز باستمرار إلى صفات ملكية تثبت سيطرته على قطري مصر: الوجه القبلي والوجه البحري. كما وردت فيها الرموز المعروفة مثل العقاب والثعبان ونبات القصب ونبات البردي.

وأما العقاب والثعبان فقد جعل منهما المصري رمزين وربط بينهما وأصبحا بمثابة اللقب الثاني للملك، ونطقهما "نبتى" بمعنى "السيدتين" ويقصد بذلك الإلهتين الحاميتين، الأولى لمصر العليا والثانية لمصر السفلى – وعلى إحدى اللوحات الصغيرة السابقة الذكر وجدنا نقشًا يذكر مباشرة بعد اللقب "نبتى" علامة "من" التي سبق ذكرها، والتي أصبحتا نفسرها مُنذ ذلك الحين على أنها العلامة الهيروغليفية لاسم الملك "مينا" ومن الواضح أننا هنا لسنا أمام نقش يذكر لقبين من ألقاب الملوك؛ وذلك لأن اللقب "نيتى" تصدر النقش وهذا يخالف تمامًا التقاليد المصرية التي تحتم أن يأتي اللقب "حوريس" في الصدر، وغير هذا فقد نقشت العلامة "من" في وسط دائرة تمثل العلامة المخصصة للمبنى، وعلى هذا نعتقد أن العلامة بأكملها ("من" داخل دائرة مخصصة للمبنى) تدل على مبنى معين في مكان معين سمى باسم "مينا" وورد هذا الاسم بعد اللقب "نبتى" وعلى كل حال فنحن هنا أمام أثر صغير خلفه لنا أحد الملوك وقد نقش فوقه اسمان هما الاسم الحوريسي "عحا" والاسم المسبوق بلقب "نبتى" "مينا".

ولكن مع كل هذا الغموض الذي يهيمن على هذا النقش، ففي استطاعتنا أن نفترض أن "مينا" و"عحا" يمثلان شخصية واحدة.

وهنا نوجه النظر إلى أن الآثار الأخرى التي خلفها لنا ملوك الأسرة الأولى تدل على أن الاسم المسبوق بلقب "نبتى" هو بعينه الاسم الذي يسبق

عادة باللقب الرابع من ألقاب فراعنة مصر (أي "نيسوت – بيتي" أي ملك مصر العليا والسفلى) وفي هذه الحالة نستطيع بحق أن نعتقد أن "مينا" هو اسم العرض الخاص بنفس الملك الذي كان الاسم الحوريسي الخاص به هو "عحا".

أما مقبرة الملك "عحا – مينا"، فقد اعتقد "بتري" أنه عثر في أبيدوس على مقبرة الملك "عحا" وذلك أثناء تنقيبه الواسع في هذه المنطقة الذي كشف فيه عن كل المقابر الملكية الخاصة بهذا العصر المبكر من التاريخ المصري.

ولقد تشابهت مقبرة "عحا" مع مقبرة "مينا" التي سبق ذكرها على الصفحات السابقة، من وجوه عدة، أهمها أن المقبرتين تعتبران من أصغر وأبسط المقابر الملكية التي عثر عليها في هذه الجبانة، وفي نفس الوقت يحوم الشك في تبعية هاتين المقبرتين الملكين السالفي الذكر. وغير هذا فقد كشف "دي مورجان" في أواخر القرن التاسع عشر، عن مقبرة ضخمة بالقرب من نقادة، ولقد سبق لنا التحدث عن أهمية هذه المنطقة عند الحديث عن حضارات مصر العليا في عصور ما قبل التاريخ.

هذه المقبرة الضخمة شيدت من اللبن، وهي تختلف في طرازها عن جميع المقابر التي كشفت عنها معول المنقب من عصور التاريخ المصري المبكر سواء من عصر ما قبل التاريخ أو عصر الأسرتين الأولى والثانية.

فواجهتها لا تحوي مدخلًا، وتتميز جدرانها التي تعلو سطح الأرض والتي تكون المستطيل المبني، بوجود مداخل ومخارج تجعلها أشبه بحصن منيع، ومع أن المقبرة قد تعرضت لحريق كبير أتى على محتوياتها فقد عثر

على آثار كثيرة من بينها اللوحة الصغيرة التي سبق ذكرها والتي حوت نقشًا يذكر اسمي الملكين "عحا" و"مينا"، ومن أجل هذا اعتدنا من مدة طويلة أن نطلق على هذه المقبرة اسم "مقبرة مينا"، ولكن دراساتنا الحديثة تجعلنا اليوم نحيط هذه التسمية بشكوك مختلفة تقوم على قرائن ليس هنا مجال مناقشتها.

من أجل هذا كله نرجح النظرية التي نادى بها المنقب الإنجليزي "أمري"، وهي النظرية الخاصة بنسبة المقبرة الضخمة التي عثر عليها في جبانة الأسرة الأولى بسقارة، إلى الملك "حوريس عحا" أي إلى الملك "مينا" أيضًا. ولو أنه لم يكشف هناك حتى الآن عن أثر يثبت أن هذين الاسمين هما لملك واحد(٣).

وهكذا نستطيع الآن أن نجمل القول عن النظرية الثابتة الخاصة بالملك "مينا" موحد القطرين.

أن اسم الملك "مينا" الذي ذكر على رأس القوائم الملكية التي وصلت إلينا من عصر الدولة الحديثة، والذي تحدث عنه كتاب الإغريق على أنه الملك التقليدي الأول لمصر، هذا الاسم لم يظهر إلا مرة واحدة على آثار الأسرة الأولى، وذلك على أساس أنه الاسم الذي يسبق بلقب "نبتى" لرجل كان اسمه "الحوريسي" هو "عحا". وليس من شك في أن صاحب هذا الاسم

---

(٣) لقد نشر "أمري" المعلومات التي حصل علينا من كشوفه في جبانة ملوك الأسرة الأولى بسقارة في:

١- Emery, W., "Hor Aha", Cairo, ١٩٣٩.

٢- Emery, W., "Great Tombs of the ١st Dynasty", Vol. I, Cairo, ١٩٤٩.

ومما يؤسفني حقًا أني لم أستطع الإطلاع على الكتاب الثاني إذ قد مضى على نهاية الحرب العالمية الثانية خمس سنوات ولم نتغلب حتى الآن على الصعوبات التي تواجهنا لاستيراد الكتب العلمية من الخارج.

كان يقبض بيد حديدية على قطري مصر. وأن الملك الذي يعرف باسمه "الحوريسي"، "نعرمر" يعتبر فرعون مصر الذي نجح في التغلب عسكريًا على مصر السفلى وأنه خرج لينفذ هذا الهدف من عاصمته الجنوبية "هيراكونبوليس" حيث عثر على أهم الآثار الممهورة باسمه. وهناك بعض القرائن تجعلنا نرجح أن كلًا من الاسمين "عحا" و"نعرمر" يطلقان على شخصية تاريخية واحدة، وذلك على أساس الاعتقاد بأن "نعرمر" وهو أحد "عبدة حوريس" في مصر العليا، قد أطلق على نفسه اسم "عحا" حين تم له النصر على مصر السفلى. وبخاصة أن هذا الاسم يعني في اللغة المصرية "المكافح" (وهو يقصد في نفس الوقت معنى المنتصر) وبذلك يحسن بنا أن نرى في هذا نوعًا من الفخر وقد اتخذه لقبًا وليس اسمًا.

وإذا أراد البعض ألا يأخذوا بهذه النظرية، فليس أمامنا إلا أن نقدم لهم التفسير الآتي، وهو أن "نعرمر" لسبب من الأسباب التي نجهلها لم يحظ بالتمتع بنتائج انتصاراته الكبيرة، ولذلك اقترن اسم خليفته "عحا" بهذا النصر وحظى بالتمتع بنتائجه وأصبح في عرف التقاليد هو الذي وحد البلاد. أما اسم "مينا" الذي ورد مرة واحدة على الآثار المبكرة والذي أصبح في النصوص المتأخرة بمثابة الجد الأول لملوك مصر، فمن البديهي أن نقرن اسمه بكل من الاسمين سالفي الذكر "عحا" و"نعرمر".

ولعل أهم الأعمال السلمية التي قام بها "مينا"، بحسب ما سجله لنا المؤرخ "هيرودوت" كان تشييده العاصمة "منف" والتي استمرت تقوم بهذا الدور طوال عصر الدولة القديمة كما شيد فيها معبد "بتاح" الإله الرئيسي لمقاطعة منف، وأحاط الاثنين بسور ضخم عرف باسم "السور الأبيض"، وذلك لحمايتها من بعض الثورات التي كانت تقوم على الأرجح بين سكان

مصر السفلى المغلوبين على أمرهم. وكذلك سجلت آثار الأسرة الأولى أن عبادة لثور "أبيس" كانت إذ ذاك قائمة في معبد "بتاح" في منف.

وتقع هذه المدينة العتيقة إلى الجنوب من القاهرة الحالية وعلى الشاطئ الغربي للنيل وهي لا تبعد كثيرًا عن نقطة تفرع النيل عند الدلتا، وهي النقطة التي كانت ولا تزال تعتبر بمثابة المركز التقليدي للهيمنة على قطري مصر، ومن أجل هذا أطلق الناس على "منف" في العصور المتأخرة اسم "ميزان القطرين".

ولم يبق الآن من منف إلا أطلال قليلة لا تزال قائمة بين أشجار النخيل، وهذه الأطلال هي التي تذكرنا بالعاصمة العالمية القديمة، أما "السور الأبيض" الذي بناه "مينا" فقد أصبح علمًا يطلق اسمه على المديرية الأولى من مديريات الوجه البحري، وهكذا أصبحت هذه المدينة والمديرية التي تنتسب إليها معدودة في عرف المصريين القدماء من بين مناطق الوجه البحري، ويهمنا هذا الاعتبار بالنسبة إلى الجبانات المتسعة التي خصصت لأهالي هذه المديرية وبخاصة الجبانات التي تميزت بتشييد الأهرامات أبان عصر الدولة القديمة، وأقدم هذه الجبانات وأكثرها اتساعًا تقع فوق التل الذي يطل على قرية "سقارة" وتحوي الكثير من المقابر الضخمة المشيدة من اللبن وتتميز بمشكاواتها التي تشابه مقبرة نقادة السالفة الذكر والتي تعتبر في طرازها هذا الوحيدة من نوعها في مصر العليا. ونحن نعتقد أن هذا الطراز السائد في جبانة سقارة وفي بعض الجبانات الأخرى التي تتبع "منف"، هو الطراز المميز لأسلوب البناء في مصر السفلى، ولا غرابة في ذلك، فإن منشئ منف وهو "حوريس عحا" (مينا) قد اختار هذا المكان لدفن جثمانه، ولكن ليس معنى هذا أن كل ملوك الأسرة الأولى قد اختاروا سقارة لكي تكون مقرهم الخير.

لقد حدثنا كتاب الإغريق عن "مينا" فقالوا أنه نشأ في مدينة "ثينه" بمصر العليا وهذا هو سبب إطلاق "إدوارد ماير" على ملوك الأسرتين الأولى والثانية اسم "الثينيين" و"ثينة" كانت المركز الرئيسي في المديرية الثامنة من مديريات الوجه القبلي، وهي معروفة الآن باسمها المصري القديم الذي ينطق على غرار الأسماء الإغريقية أي "أبيدوس" حيث تمتد المباني المشيدة للمقابر والمعابد القديمة، ولقد أكد الملوك "الثينيون" أصلهم القبلي بتحديهم الظاهر في جعل كل الرموز والإشارات التي تدل على مصر العليا تسبق تلك الخاصة بمصر السفلى، فمثلًا يسبق الرمز المقدس لمصر العليا وهو "العقاب" "الصل" وهو الخاص بمصر السفلى، وكذلك يسبق "نبات الحلفاء" "النحلة" أو "البردي" (وكلاهما يرمز لمصر السفلى)، ويسبق التاج الأبيض دائمًا التاج الأحمر وهلم جرا، وهذا الشعور القومي هو الذي دفع ملوك الأسرة الأولى إلى أن يشيدوا لأنفسهم مقابر في عاصمة إقليمهم "ثنية"، وبالفعل عثر على مقابرهم في جبانة "أبيدوس" ولو أن مؤسس الوحدة أي الملك، "مينا" رأى أن يشيد مثواه الأخير بالقرب من العاصمة الجديدة التي أسسها في الشمال مفضلًا إياها على جبانة بلدته التي نشأ فيها وخرج منها. وفي هذه القرائن نجد الحل المنشود الذي يوفق بين الآراء المختلفة والذي يجعلنا ننادي بأن لا ضرورة للاعتقاد بأن جميع ملوك الأسرة الأولى لابد أن يكونوا قد شيدوا مقابرهم في جبانة سقارة، وأن لا سبب يدعونا أن نعتبر مقابر هؤلاء الملوك في أبيدوس نوعًا من "المقابر الرمزية" فقط، نقولها والأسف يملأ قلوبنا، أنه لم يعثر حتى الآن على الأدلة التي نرتكز عليها للتفرقة بين المقبرة التي استعملت فعلًا للدفن وبين تلك التي شيدت لتكون "مقبرة رمزية" وذلك لأن كل المقابر، سواء منها ما شيد في سقارة أو في "أبيدوس" قد وقعت فريسة لسطو وحشي

لم يبق فيها على أي أثر من آثار الدفن. حقًا أن الآثار القليلة التي كشف عنها في المقابر الملكية بأبيدوس تثبت بالفعل أنها كانت جديرة باستعمال الملوك، أقصد بذلك اللوحات (النصب) التي كانت تقام فوق المقابر الملكية والتي تعتبر حتى الآن من روائع الفن المصري ونخص بالذكر اللوحة التي نضعها بين أثمن مقتنيات متحف اللوفر بباريس والتي تذكر اسم الملك "الثعبان" منقوشًا بالعلامة "الثعبان" في وسط واجهة القصر (سرخ) والتي يحط فوقها الطائر "حوريس" (أي الاسم الحوريسي للملك الثعبان) ونذكر كذلك القطع الصغيرة المصنوعة من العاج والتي تمثل أرجل الكراسي والأسرة ثم الأواني الحجرية الفاخرة التي قدها المصريون من أندر أنواع الأحجار الثمينة، وهذه كلها تعتبر بحق من المقتنيات التي يحرص الملوك على تزويد مقابرهم بها، ولا يمكن أن نعتقد أن المصري كان قد وضعها في مقابر وهمية أو رمزية كما يرغب البعض في أن يصف هذه المقابر في أبيدوس.

لقد خلف لنا "بتري" دراسة دقيقة عن الأسلوب المعماري الخاص بالمقابر الملكية التي عثر عليها في جبانة أبيدوس على أثر تنقيبه الواسع هناك، وهو التنقيب الذي نود لو أنه أجرى بطريقة تعود علينا بنفع أكبر. ولكن ما يهمنا هو أن "بتري" أظهر لنا أن المقابر الملكية التي عثر عليها هناك تعتبر في أسلوبها المعماري تطورًا يتبع مباشرة المقابر المستطيلة التي ترجع إلى العصر المتأخر لحضارة نقادة الثانية.

وهكذا نستطيع أن نحكم على التسلسل الرتيب في الأسلوب المعماري الخاص بتطور بناء المقبرة ولقد ظهر من بين أساليب التطور أن المصري أقام درجًا منحدرًا ليصل إلى حجرة الدفن بطريقة أكثر سهولة، كما وسع الجزء المحفور في باطن الأرض بإضافة بعض الحجرات الجانبية. ويعتبر إضافة

كساء من الألواح الحجرية فوق أرضية حجرة الدفن من بين الأشياء النادرة جدًا. وفي حالة واحدة، ظهرت في مقبرة الملك "قع" آخر ملوك الأسرة الأولى، الحجرات الجانبية التي أضيفت إلى حجرة الدفن وقد زجت في مكان ضيق نظرًا لأن الطريق المنحدر قد سد عليها الفرصة لتوسيعها وكانت المقابر الجانبية المرصوصة حول المقبرة الرئيسية تتحكم في النطاق الخاص بالمشروع كله إلى درجة تجعلنا نعتقد أن التصميم الهندسي الذي وضع لهذه المقبرة كان يقوم مُنذ أول الأمر على إلحاق هذه المقابر الجانبية بالمقبرة الرئيسية المخصصة للملك. هذه كلها قرائن تدعونا إلى الأخذ بنظرية تخصيص هذه المقابر الجانبية لدفن أفراد تحتم عليهم أن يرافقوا سيدهم الملك إلى عالم الموتى.

وإني أسوق هنا الحالات المتشابهة فمثلًا مقابر ملوك أور (جنوبي العراق) والتي ترجع إلى عصر أحدث قليلًا من عصر الأسرة الأولى الفرعونية، والتي تثبت وجود نفس التقليد الذي لابد أنه قام على أسس متشابهة من أور (جنوبي العراق) والتي ترجع إلى عصر أحدث قليلًا من عصر الأسرة الأولى الفرعونية، والتي تثبت وجود نفس التقليد الذي لابد أنه قام على أسس متشابهة من العادات، وكذلك عثر على نفس الظاهرة في مقابر الحكام في مدينة كرما من عصر الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ق.م)، وبدت كذلك واضحة في النطاق الخارجي لجبانة "قسطول" التي ترجع إلى أوائل العصر المسيحي.

ولم تصل إلينا من عصر الأسرة الأولى معلومات عن بعض الأحداث التاريخية، ولا غرابة في ذلك إذ أن المصريين لم يتعودوا تسجيل هذه الأحداث بشيء من التفاصيل طوال عصر الدولة القديمة، ونحن نعرف أنهم

استخدموا الكتابة الهيروغليفية مُنذ عصر الأسرة الأولى، ولابد أنهم اخترعوها قبيل هذا العصر، وهو ولا شك يعتبر من أهم الاختراعات التي وصل إليها العقل البشري، إذ أن ما نعتبره اليوم أمرًا عاديًا بالنسبة إلى وجود لغة تحوي حروفًا نعبر بها كتابة عن كل صوت، أو بعبارة أخرى تحوي الحروف الأبجدية، هذا الأمر العادي ظهر على أيدي المصريين لأول مرة في تاريخ البشرية حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م. وأخذ المصريون أبان عصر الأسرة الأولى يستخدمون لغتهم في الكتابة لتسجيل موضوعات مختلفة، وصلتنا على اللوحات الحجرية، أو على اللوحات الصغيرة المصنوعة من النظام والأواني الفخارية، ولم تصل إلى أيدينا حتى الآن أية وثائق مكتوبة على أوراق البردي بطريقة العلامات المختصرة، أو ما نسميه الكتابة الهيراطيقية التي ترجع إلى هذا العصر المبكر من التاريخ المصري، ولكن هناك بعض محاولات للكتابة بالخط الهيراطيقي فوق قطع صغيرة عثر عليها في مقابر ملوك الأسرة الأولى بأبيدوس، مما ينم على أن هذا الخط كان معروفًا لدى المصريين في ذلك الوقت.

ويجدر بنا أن نذكر حادثين للتدليل على مدى اتساع الأفق الحضاري للمصريين بالنسبة إلى علاقاتهم بالبلاد الأجنبية المتاخمة لهم. لقد وصلت إلينا من عصر الأسرة الأولى أخبار تدل على وقوع معارك بينهم وبين البدو القاطنين في شبه جزيرة سيناء، ولا شك أن هذه المعارك لم تكن إلا نوعًا من الصدام المسلح بين الطرفين ولم يأخذ مطلقًا ذلك الشكل الحربي الواسع النطاق الذي يهدف إلى استعمار، كما أرادت بعض النصوص المتأخرة وصفه في كلمات رنانة طنانة.

لقد لعبت منطقة سيناء دورًا هامًا عند المصريين نظرًا لاحتوائها على كنوز كثيرة، أهمها النحاس، ولقد وصل المصريون إلى هذه المنطقة عن طريق مصر العليا مخترقين الصحراء التي تؤدي إلى الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر مارين بالجبال العالية عند وادي الحمامات. وهناك عرف المصريون مُنذ عصور غارقة في القدم أماكن مختلفة "تزخر بالملاخبت" "الدهنج" وسرعان ما تعلموا طريقة صهره لاستخراج النحاس منه، وبقيت سيناء لآلاف من السنين المورد الرئيسي للنحاس بالنسبة إلى المصري القديم، ومن ثم اعتاد الملوك في كل مرة يرسلون فيها البعثات لاستخراج النحاس والفيروز من هناك، أن يسجلوا أخبار انتصارهم على البدو القانطين في هذه المناطق في كتابات ينقشونها فوق الصخور، ولعل أقدم النقوش الخاصة بتسجيل النصر على البدو برجع إلى عصر الملك "سمرخت" وهو ممن حكموا مصر في أواخر عصر الأسرة الأولى.

ويحوي هذا التسجيل رسومًا ثلاثة للملك تمثله في حالتين مزينًا رأسه بالتاج الأبيض لمصر العليا وفي الصورة الثالثة (وهي الوسطى) تمثله بالتاج الأحمر الخاص بمصر السفلى، والملك في أحد رسومه الثلاثة السالفة الذكر نراه وهو يهوي بصولجانه على رأس أسير من بدو سيناء مثل راكعًا وبين قدميه، ويعتبر هذا الاسم بمثابة أقدم نموذج للتمثيل الرمزي لانتصار الملك الذي حرص المصريون على تسجيله في كل العصور حتى عصر الرومان في مصر.

لقد توغل مصريو هذا العصر أبعد من سيناء، إذ تجولوا في البحر المتوسط ووصلوا إلى "جبيل" على الشاطئ الفينيقي (تقع حاليًا إلى الشمال من بيروت) وذلك لاستيراد خشب الأرز الثمين، كما وصلوا أيضًا إلى جزيرة كريت، ونحن نستدل على ذلك من القطع الأثرية ذات الأسلوب الفني السائد في مصر في عصر الأسرة الأولى، والتي عثر عليها في المنطقتين، ولو أنه من العسير أن نقرر هنا طريقة الوصول إلى هاتين المنطقتين النائيتين، وهل قام المصريون بها أنفسهم أم استخدموا فيها بعض الوسطاء من الأجانب؟

وإذا كان المنقبون قد عثروا في جبانة أبيدوس على سبع مقابر على الأقل تخص ملوك الأسرة الأولى، فهم لم يوفقوا في العثور إلا على مقبرتين من مقابر ملوك الأسرة الثانية الذين كانوا ممن ينتمون أيضًا إلى الثينيين، هذا مع العلم أن قوائم الملوك ذكرت عددًا منهم يعدو هذين الملكين، ولو أن الأحداث التاريخية المنسوبة إليهم تقل جدًا في أهميتها عن تلك التي سجلتها هذه القوائم لملوك الأسرة الأولى، أما المقبرتان الملكيتان في أبيدوس فهما للملك "بر – أيب – سن" والملك "خع سخموري" وعثر في المقبرة الأولى على لوحتين حجريتين منقوشتين.

ومن الغريب أن نجد فوقها صورة الإله "ست" قد هيمنت على واجهة القصر بدلًا من صورة الإله "حوريس" الممثل على هيئة صقر. ومعنى هذا أن الملك لم يذكر اسمه الحوريسي بل ذكر أنه "ست – بر – أيب – سن" ونحن نعرف مما ذكرناه على الصفحات السابقة أن "ست" كان الإله الرئيسي الذي هيمن على مصر العليا في عصور فجر التاريخ كما ذكرناه سابقًا، ولا سبيل لنا إلى تفسير هذه الظاهرة إلا على أساس أنه حدث في عصر "بر –

أيب – سن" وفي مصر العليا بالذات، انقلاب محلي يهدف إلى القضاء على تلك السطوة والسيطرة التي حظى بهما الإله حوريس، وهو الإله الذي لا يستطيع منافسة "ست" في شهرته القديمة الممتدة إلى أعماق التاريخ. أما مقبرة "خع سخموري"، وهو آخر ملوك الأسرة الثانية، فقد سجلت ظاهرة جديدة: فبينما نجد المبنى كله وقد شيد بالطريقة العادية أي من اللبن، تظهر جدران حجرة الدفن الرئيسية وقد كسيت من الداخل بلوحات ضخمة من الحجر الجيري الأبيض، لقد عثر في هذه المقبرة على لوحة حجرية وعلى واجهة القصر فيها كل من "ست" و"حوريس" ومعنى ذلك أن هذا الملك استطاع أن يصلح ذات البين بين الإلهين ويجمع بينهما ويرسمهما فوق اسمه .. وهناك ملك ثالث، لم يعثر على مقبرته في أبيدوس، هو "خع – سخم" الذي أراد أن يتسم بصفته الرئيسية كملك من ملوك مصر العليا والذي فاخر بأن يكون من الذين حرصوا على عبادة حوريس هي هيراكونبوليس (الكاب).

وفي هذه المدينة عثر على تمثالين له يمثلانه جالسًا وعلى رأسه التاج الأبيض الخاص بمصر العليا. ونجد على قاعدتي هذين التمثالين رسومًا محفورة تمثل أعداء قد سقطوا في حومة الوغى. وغير هذا فقد عثر له في نفس المنطقة على أوان حجرية نقش فوقها ما يثبت انتصار الملك على مصر السفلى. وهكذا نستطيع أن نقرر هنا أن الوحدة التي أقامها "مينا" كانت قد انهارت في عصر هؤلاء الملوك الذين عاصروا أواخر الأسرة الثانية. ثم ما لبثوا أن تغلبوا وانتصروا وأعادوها مرة ثانية.

وليس من شك في أن الآثار التي عثر عليها في معبد هيراكونبوليس بمصر العليا تعتبر الدليل الواضح على حدوث هذا الانقلاب بل وعلى الأسباب التي دعت إليه.

لم يستطع المنقب أن يكشف لنا حتى الآن عن مقابر أخرى لملوك الأسرة الثانية. إلا أننا نعرف تمثالًا عثر عليه في منف، لكاهن قام بالخدمة في طقوس جنازية لثلاثة من ملوك الأسرة الثانية. وهذا يدلنا على أن هؤلاء الملوك الثلاثة لابد أنهم شيدوا مقابرهم في جبانة منف أي في سقارة، وأنه لابد أن حذا حذوهم ملوك آخرون لم نوفق إلى الكشف عن مقابرهم حتى الآن.

ومع ما نعرفه عن هذا الانقلاب الذي حدث في عصر "بر – أيب – سن" والذي كان موجهًا ضد مصر السفلى للتقليل من مركزها المتفوق الذي زاد من أهميته وجود العاصمة "منف" في ربوعها، فهناك أكثر من دليل يثبت أن الأحداث كلها أخذت تجري في صالح مصر السفلى حتى بعد أن نجح أهل الصعيد في إعادتها إلى حظيرتهم بالقوة، ولا غرابة في ذلك فالتاريخ يعيد نفسه. إذ حدث في مصر مُنذ آلاف السنين ما يحدث بها الآن من أن مركز الثقل في الحضارة والنمو الاقتصادي كان ولا يزال موجودًا في مصر الشمالية.

ومُنذ الأسرة الثالثة استقرت أسباب القوة والسيطرة في الدلتا وتركزت كلها في منف واستمرت على هذه الحال طوال عصر الدولة القديمة، وأخذ ملوك هذا العصر يشيدون مقابرهم في جبانات منف.

ولابد لنا أن نعتقد أن الكثيرين من ملوك الأسرة الثانية قد أقاموا مقابرهم أيضًا في سقارة، إلا أن هذه المقابر اضطرت أن تفسح المجال لمقابر أولئك الذين حكموا مصر في عصور لاحقة فاختفت معالمها.

لقد سبق لنا أن بينا كيف أن تقدير "إدوارد – ماير" لعصر الأسرتين الأولى والثانية بحوالي ٤١٩ سنة مبالغ فيه جدًا كما ذكرنا، ونحن نعتقد أن نصف هذا التقدير يكفي لهذه الفترة، وبذلك نكون قد أصبنا الهدف إذا قلنا أن هذه الفترة قد بدأت حوالي عام ٢٨٥٠ وانتهت حوالي ٢٦٠٠ قبل الميلاد.

٢- عصر بناة الأهرام

(من ٢٦٥٠ إلى ٢١٩٠ ق.م)

١- الأحداث التاريخية:

تبدأ الأسرة الثالثة بالملك زوسر (سماء الإغريق "توزورتوس") وذكرت ورقة تورين البردية أسماء أربعة ملوك لهذه الأسرة حكموا مجتمعين مدة خمس وخمسين سنة (من ٢٦٥٠ إلى حوالي ٢٦٠٠ ق.م) ووصف مانيتون هذه الأسرة بأنها "منفية"، ويبدو أنها نجحت في أن تجعل من "منف" المركز الحقيقي للبلاد وأن تبقى هكذا طوال الدولة القديمة. وتعتبر الملكة "ني – ماعت – حب" حلقة في استمرار التقاليد الملكية، فمن الثابت كما يظهر من أسمها الذي يحوي كلمة "حب" (أي الإله الثور "أبيس") أنها منفية المحتد، وقد ورد اسمها مكتوبًا على أختام اسطوانية عثر عليهما في مقبرة "خع سخموي" آخر ملوك الأسرة الثانية وكذلك في مقبرة "زوسر" أول ملوك الأسرة الجديدة أي الأسرة الثالثة، ونحن لا نعتقد أن زوسر يرتبط عن طريق النسب بالأسرة السالفة، إذ أن كل القوائم الملكية تبدأ به أسرة جديدة. ولقد تمكن الأستاذ يونكر من أن يلفت النظر إلى الدور المهم الذي كانت تلعبه الملكات عندما يأفل نجم الأسرة الملكية وتطيح بحكمها الأحداث فكن كممثلات

للدم الملكي، يحافظن على التقاليد الملكية بارتباطهن بالأسرة الجديدة، سواء أكان أول ملوكها زوجًا للملكة أم ابنًا لها. ولست أميل، بالنسبة إلى الملكة التي نحن بصددها إلى أن أوافق على نظرية "يونكر" الذي يقول بأننا لم نعثر على اثر لها يذكرها مع اللقب الرسمي "زوجة ملك". ولذلك فهو يعتقد أنها ليست – كما كان السائد عنها فيما سبق – زوجة للملك "خع – سخموري" بل هي ابنته. ولعل السبب في عدم موافقتي على نظرية "يونكر" "هو أنه ليس من المعقول أن نتصور ملكًا يعتز كل الاعتزاز بعصبيته التي تنتمي إلى "صعيد مصر" ثم يطلق على ابنته اسمًا تنتمي عناصره كلها إلى مصر السفلى. ومن أجل هذا أتقد أن "ني – ماعت – حب" الشمالية كانت تمثل الدم الملكي لمصر السفلى وأنها تنتمي إلى أولئك الأعداء الذين صورهم "خع – سخموي" فوق قاعدة تمثاله السالف الذكر وقد ظهرت عليهم الذلة والمسكنة بعد انتصاره عليهم، وإذا ما تمت له الوحدة اختارها زوجة له، دون أن يجعل من حقها أن تحظى باللقب الرسمي "زوجة ملك" وهو اللقب الذي لم تذكره لها الآثار مطلقًا. أما ابنها "زوسر" كما تردد الآثار ذلك بوضوح. فقد كان من أب آخر ينتمي إلى أهل الدلتا، وتمكن زوسر في آخر الأمر بعد أن ارتبطت أمه برباط الزوجية مع آخر ملوك الأسرة المنتهية، من أن يكتسب شرعية مقدسة أهلته ليؤسس أسرة ملكية جديدة.

وليس في استطاعتنا أن نتحدث عن حقائق تاريخية بعينها بالنسبة إلى ملوك الأسرة الثالثة، إلا أن مؤسسها، الملك زوسر قد خلد لنفسه اسمًا سيبقى متألقًا عند علماء الآثار المصرية على مدى السنين، وذلك لأنه الأول بين المصريين الذي تملكته الجرأة فصمم لنفسه، ولأول مرة، مقبرة ضخمة شيدها كلها من الحجر وارتفع بها إلى ما يقرب من ٦٠ مترًا، نقصد بذلك

المسطبة المدرجة بسقارة، وهي التي تتعارف الناس هل تسميتها خطأ "الهرم المدرج" ونظرًا لأن هذا البناء قد أقيم على قاعدة من زوايا قائمة فإنه من غير الممكن إقامة هرم كامل على مثل هذه القاعدة. أما أسلوب المقبرة الذي تطور مُنذ أول العصر التاريخي في تلك المساطب المشيدة من اللبن، فهو يختلف لأنه يتكون مما يشبه الصندوق المشيد فوق قاعدة مربعة زواياها قائمة، وجدرانها تميل إلى الداخل كلما ارتفعت بحيث يكون قطاعها الطولي مربعًا منحرف الأضلاع.

هذا الطراز من المقابر المشيد من الحجر والمزود بحجرة دفن منقورة في أعماق الأرض الصخرية، أصبح هو النموذج السائد في بقية فترات الدولة القديمة لمقابر أقرباء الملك وعظماء الناس من الكهنة وأصحاب المراكز الكبرى في الدولة وهم الذين يحظون بشرف السماح لهم بإقامة مقابرهم في الجبانة الملكية وحول الأهرام.

وست من هذه المساطب التي تعلو الواحدة منها الأخرى تكون المظهر الخارجي للمقبرة الملكية لزوسر، ولم تكن المقبرة الملكية، حتى حين أصبحت فيما بعد في شكل هرمي كامل الأضلاع، تعتبر كعنصر معماري يقوم بمفرده، بل اعتبرت جزءًا من مجموعة من المباني تشيد لتقام فيها الطقوس الجنازية من أجل الملك المتوفى، وينطبق هذا الأمر أيضًا على مجموعة زوسر ولكن نظرًا لأن تنفيذ هذا المشروع في الحجر كان لأول مرة ولم يحدث ما يماثله في العصور السالفة، لذلك تغير الترتيب في مواقع أجزاء المجموعة وهي تغاير أيضًا الترتيب الذي استقرت عليه في عصر الأسرة الرابعة وما بعدها.

ولقد كشف عن مجموعة الملك زوسر مُنذ ما يقرب من عشرين عامًا، كما أنه مُنذ مدة وجيزة نوه الدكتور "ريكه" بأن أجزاء هذه المجموعة بعناصرها المعمارية المختلفة التي كشف عنها لا تمثل إلا الأبنية الهامة التي اعتاد الملك أن يستعملها كمحاكم حي في عاصمته منف، فشيدها في الجبانة لكي يستعملها كملك ميت يحكم في عالم الدنيا السفلي .. فهذه الأجزاء في الواقع دليل على ما كان يسود العقيدة المصرية من تصور للعالم الآخر في عصر الدولة القديمة، وكان هذا التصور يحتم أن تعتبر حياة ما بعد الموت مطابقة لحياة الدنيا الأولى بل هي تكملة لها. ومعنى هذا أن الملك يجب أن يمكن من تولي سلطاته الرسمية في الدنيا السفلى تمامًا كما تولاها في الدنيا الأولى حين كان يحكم في عاصمته منف، ولعلنا لا نستطيع هنا أن ندخل في تفاصيل أثرية نصف فيها عناصر هذه المجموعة الجنازية وما هيمن على أقسامها من الثنائية الخاصة بوجود قطرين في مصر أحدهما هو الوجه القبلي والآخر هو الوجه البحري، ولكن يجدر بنا أن نوجه النظر في إجمال إلى مسألتين: أولاهما أن هذا الأثر أقيم على مساحة ممتدة طويلة فوق التلال الصخرية المقابلة تمامًا في الغرب لمدينة "منف"، كما أن الأثر كان محاطًا بسور ضخم شيد من الحجر الجيري الناصح البياض بنفس الأسلوب الذي عرفناه في مقابر الأسرة الأولى والممثل في مقبرة نقادة التي ورد الحديث عنها على الصفحات السابقة. وهو الأسلوب الذي يتميز بمداخل ومخارج على هيئة أسوار الحصون. وليس من شك في أن هذا كان تقليدًا لما شيده "مينا" حول مدينة منف الذي أصبح بمثابة الرمز لها. ألا وهو الحائط الأبيض، وهكذا أقام الملك لنفسه ما يجعله يشعر في دنياه الثانية بما يشعر به في دنياه الأولى.

أما المسألة الأخرى فهي تختص بالمقبرة الملكية نفسها. فحجرة الدفن منقورة في أعماق الأرض أسفل البناء الضخم للمسطبة المدرجة، وهذه الحجرة، مثلها في ذلك مثل كل المقابر الملكية من عصر الدولة القديمة، وقعت فريسة للنهب والسلب، وتدل كل المظاهر المعمارية وطرق النقش وكذلك النصوص، على أن هذه الحجرة حوت يومًا من الأيام جثمان الملك.

وغير هذا فهناك مقبرة أخرى مماثلة منقورة في أعماق الأرض أسفل الضلع الجنوبي للسور المحيط بالمنطقة والذي قلنا أنه تقليد كامل "للحائط الأبيض" وينصب هذا التماثل على النقوش والنصوص وغيرهما من طرز الزخرفة.

فنحن هنا إذن أمام مقبرة ثانية لنفس الملك. ولقد تضاربت الأقوال في تفسير مهمة هذه المقبرة. وكانت هناك نظرية قديمة تقول أن الملوك اعتادوا إقامة مقبرتين إحداهما لمصر السفلى والأخرى لمصر العليا، بحيث تتم في هذه الناحية الجنازية أيضًا "الثنائية" التقليدية التي ترمز إلى قطري مصر.

ومن أجل هذا اعتدنا في الماضي تفسير المقبرة الضخمة المشيدة من اللبن والتي ترجع إلى عصر الأسرة الثالثة والمقامة في منطقة "بيت خلاف" بالقرب من أبيدوس، على أنها المقبرة الجنوبية للملك زوسر، واعتمدنا في تفسيرنا هذا على قرينة واحدة وهي العثور على اسم الملك منقوشًا على بعض السدادات الطميية بواسطة أختام حجرية، وبقيت هذه النظرية قائمة دون أن نعتمد على قرائن أخرى مرجحة.

أما الآن وقد عثرنا على هاتين المقبرتين المزدوجتين لزوسر فعلينا أن نأخذ بهذه النظرية القديمة، في تفسير هاتين المقبرتين على أن إحداهما لملك مصر العليا والأخرى لملك مصر السفلى، بل نفسر المقبرة المنقورة أسفل المسطبة المدرجة بأنها هي التي تمثل المقبرة الشمالية، على أساس أن زوسر اعتبر ممن يمتون بصلة النسب إلى مصر السفلى (كما ورد في مانيتون) أي "منفى الأصل"، بينما المقبرة المنقورة أسفل الحائط الجنوبي، تمثل المقبرة الرمزية لمصر العليا، ولعل في وضعها في أقصى الجنوب من المنطقة ما يرمز أيضًا إلى ذلك.

وإذا صحت هذه النظرية وكانت فكرة "الثنائية" ترمز بالفعل إلى التقسيم التقليدي لمصر إلى قطرين، فتكون هذه بمثابة إثبات قاطع للحقيقة التاريخية بأن زوسر هو الذي غلب مصر السفلى على مصر العليا وجعلها المركز الذي تتجمع فيه عناصر الحكم وظل هذا المركز طوال عصر الدولة القديمة.

(وهناك تفسير آخر لهاتين المقبرتين يجدر بنا أن نذكره، وهو أن المقبرة المنقورة أسفل الضلع الجنوبي للسور، هي مقبرة "الكا" ،"الكا" هي إحدى الصور التي تبدو عليها الروح عند المصريين)

ومن بين القطع التي عثر عليها في منطقة زوسر، القاعدة الخاصة بتمثال للملك زوسر (والتمثال للأسف مفقود) وكتب عليها اسم الملك كحاكم لمصر السفلى، كما ذكر أيضًا اسم، رئيس المهندسين المعماريين "أيمحوتب" وصاحب هذه الشخصية التي لعبت دورًا هامًا في بلاط زوسر، والذي اعتبرته النصوص المتأخرة، مشيدًا للمسطبة المدرجة، وفي الواقع نعتبره من أهم المهندسين المعماريين الذين عاشوا في العصور القديمة، إذ أنه صمم ذلك

الأثر الضخم من الحجر الصلد واستن بذلك في مصر سنة جديدة نعتبرها الازدهار الأول للحضارة المصرية، بل نعتبر هذه المقبرة أحد النماذج الرئيسية لعظمة المدنية الفرعونية. فلا غرابة إذن، إذا أحاط المصريون اسمه بهالة من التقديس طوال الألف من السنين. بل أصبح صاحب هذا الاسم "مقدسًا" واعتبر على مر الأعوام إله يرعى أصحاب القلم ويحميهم، ثم قام الإغريق المتمصرون بمقارنة "أيمحوتب" (نطق بالإغريقية "أيموتس") بإلههم "اسكلبيوس" وجعلوا منه أيضًا إلهًا للطب.

أما عن آثار هذا الرجل التي وصلت إلينا من عصره فلم تتعد قاعدة التمثال السالفة الذكر، ونعتقد أن المسطبة المدرجة هي العمل العظيم الذي يذكرنا بشخصيته الفذة.

ووصلت إلينا بعض الوثائق الخاصة بتقسيم مصر من الناحية الجغرافية وببعض الأحداث الهامة التي وقعت في عصر زوسر، إلا أن هذه الوثائق، حالها حال ما عرفناه عن "أيمحوتب"، ترجع كلها إلى أحدث العصور التاريخية. نعرف من هذه الوثيقة أن حدود مصر الجنوبية امتدت في عصر زوسر ولأول مرة من جنوبي الشلال الأول إلى جزيرة "تاكمبسو" عند المحرقة. وهناك في جزيرة "سهيل" نص طويل نقش على صخرة عالية في عصر البطالمة. ويذكر هذا النص أنه حدثت مجاعة لمدة سبع سنوات نتيجة لفيضانات مجدبة، فأمر الملك زوسر بإهداء هذا الجزء من بلاد النوبة السفلى إلى "خنوم" إله الشلال الأول ومعبود جزيرة الفنتين لعله يرضى ويهدأ.

وهذا الجزء بعينه هو الذي عرف في العصر البلطمي تحت اسم "أرض الأميال الاثنى عشر" (دويديكا شاينوس).

فنحن إذا اعتبرنا هذا النص مزيفًا. فهو مكتوب ولا شك في العصر البلطمي ويدعي كاتبه أنه من الأسرة الثالثة، فيجب علينا أن نرى فيه على الأقل صدى لأحداث قديمة، وأن سيطرة مصر في عصر الأسرة الثالثة امتدت إلى هذا الجزء من بلاد النوبة السفلى.

ونحن لا نعرف شيئًا عن أحداث تاريخية هامة وقعت في عصر الأسرة الثالثة ولا نستطيع أن نعتمد على تلك النقوش المعروفة باسم "لوحات النصر" والموجودة في شبه جزيرة سيناء، فقد نقشها زوسر وعدد كبير من ملوك الدولة القديمة، ونقوشها لا تمدنا بحقائق تاريخية.

أما عن ملوك هذه الأسرة الآخرين فلا نكاد نعرف سوى أسمائهم ولذلك نعتقد أن علينا الانتقال مباشرة إلى الحديث عن الأسرة الرابعة ذات الأهمية الخاصة.

نحن لا نعرف على وجه الدقة الطريقة التي انتقلت بها السلطة من ملوك الأسرة الثالثة إلى الأسرة الرابعة، ولكننا نعلم الدور الرئيسي الذي لعبته إحدى الملكات في هذا الانتقال أيضًا، كانت سليلة الدم الملكي فنقلت الحق المقدس إلى زوجها المدعو "سنفرو"، (نطقه الإغريق "سوريس") مؤسس الأسرة الرابعة، ونكاد نجهل نسبه، ولكن هناك بعض الأدلة التي استنتجتها من ظاهرة بدت في بعض رسومه التي حرصت على تمثيله متحليًا برموز كلها تمت بصلة إلى مصر السفلى، دون العناية كثيرًا بتلك الخاصة بمصر العليا، ولعل هذه الأدلة تتم على أنه ينتمي إلى إحدى مناطق الدلتا.

ونحن نرى فيه الملك الأول الذي بدأ عصر بناة الأهرام، وهو العصر الذي أصبح الهرم فيه علمًا ميزه عن العصور الأخرى.

وهناك ثلاثة أهرامات ضخمة يبدو أنها أخذت تتنازع فيما بينها شرف احتوائها لجثمان "سنفرو" في يوم من الأيام. ونكاد نعتقد أن الملك اختار في أول الأمر "ميدوم" (إلى الجنوب من سقارة)، مكانًا لتشييد مقبرته وفي هذه الحالة سارع بعض كبار رجال البلاط إلى بناء مساطبهم الضخمة من اللبن والمزود بحجرات للقرابين من الحجر الجيري الأبيض، بجوار أهرام ملكهم الذي بدئ بتنفيذه، ولكن لسبب من الأسباب لا نعرفه لم يتم تنفيذ بناء هذا الهرم ولذلك لا يزال منظره حاليًا بدرجاته الثلاث ينم على عدم الانتهاء منه، كما أن معبده الجنازي كان في طور البناء ولم ينته منه إلا بعض أجزاء، نخص بالذكر منها لوحتين كبيرتين غير منقوشتين استعمل في تنفيذهما الأسلوب الخاص باللوحات الملكية في أبيدوس كما سبق القول.

ومُنذ سنوات قليلة فقط أظهرت الدراسات الجديدة أن الهرم المنكسر الأضلاع في دهشور (إلى الجنوب من سقارة)، قد شيده سنفرو، وفي نفس الوقت نعرف أن "الهرم الأحمر" الموجود في نفس المكان والذي يبلغ ارتفاعه حوالي ١٠٠ متر، للملك ذاته.

ولابُد لنا أن ننتظر حتى تتم أعمال الكشف عن الهرمين الأخريين لنعرف أيهما قد استعمل فعلًا كمقبرة لدفن جنة الملك. ونحن نعتبر الهرم المنكسر الأضلاع حلقة من حلقات التطور المعماري في أسلوب بناء المقبرة الملكية وأنه الحلقة الأخيرة التي تسبق بناء الهرم الكامل. ولعلهم اضطروا، لخطأ في حساب التصميم المبدئي، وأن ينفذوا المشروع على مرحلتين مع تغيير في زاوية الأضلاع عند منتصف ارتفاع المبنى وهكذا انكسرت الأضلاع.

وهكذا يُمكن أن نقول أن "الهرم الأحمر" يعتبر بحق أقدم النماذج للهرم الكامل. ولم يكشف حتى الآن عن المعبدين الجنازيين لهرمي دهشور سالفي الذكر(٤).

نتبين من القوائم الملكية أن الملك سنفرو حكم ٢٤ عامًا ولكن لا نستطيع أن نذكر أحداثًا تاريخية هامة وقعت في عهده غير النص الذي سجل فيه سنفرو انتصاراته في شبه جزيرة سيناء، فقد ورد على "حجر بالرمو" ذكر الحملة التي تمت في عصره وقد وجهها الملك نحو بلاد النوبة والتي يذكر النص أن الملك رجع منها بغنائم كثيرة، ويغلب علي الظن أنه مبالغ فيها ويشير الحجر نفسه إلى خروج بعثة بحرية كبيرة إلى الشاطئ الفينيقي لاستيراد خشب الأرز، فكان ورود ذكر هذا النوع من الخشب لأول مرة في النصوص المصرية.

أما زوجة الملك سنفرو، وهي السيدة "حوتب حورس" التي مكنته بدمها الملكي الأصيل من أن يعتلي عرش مصر، فيبدو أنها دفنت في أول الأمر في منطقة دهشور إلا أن ابنها "خوفو" اضطر لسبب لا ندريه، أن ينقل المحتويات الفاخرة التي كانت قد أودعت مقبرة أمه، إلى مقبرة أخرى بناها بالقرب من هرمه في منطقة الجيزة. ولقد عش "رايزنز" أثناء تنقيبه في الجيزة حوالي عام ١٩٢٠ على هذه المقبرة، ودهش لذلك الأسلوب البسيط مع الفخامة التي هيمنت على أثاث هذه المقبرة وهو الأثاث الذي أصبح من بين الكنوز الفاخرة التي تسترعى أنظار الناس عند زيارتهم للمتحف المصري.

---

(٤) قام الدكتور أحمد فخري بالكشف عن عناصر مجموعة الهرم المنكسر الأضلاع للملك سنفرو عام ١٩٥١ ونشر التقرير الأول عنه في عام ١٩٥٤ في مجلة مصلحة الآثار. " The Bent Pyramid of Dahshur" (Annales du Service des Antiqutes de l'Egypte, Tome LI)

أما خوفو (أسماه "هيرودوت" كيوبس، بينما أطلق عليه مانيتون اسم "سوفيس") فقد حاز شهرة عالمية كمشيد أكبر أهرامات الجيزة. ونحن لا نعرف الكثير عن عصره الذي بلغ ٢٥ سنة، أو عن عصري خليفتيه الذين شيدا أيضًا هرمين بمنطقة الجيزة، ولكن يبدو أن إقامة هرم كبير يكفي لتخليد اسم صاحبه على صفحات التاريخ وهذا ما حدث بالنسبة إلى الملوك الثلاثة: خوفو، وخفرع، ومنكاورع الذين شيدوا أهرامات الجيزة الضخمة العالية.

ولعل من العسير أن نفرد في هذا الكتاب صفحات عديدة لنصف فيها كل العناصر المختلفة الخاصة بهذه الأهرامات، ولكن يجدر بنا أن نعلق بالكلمات الآتية على هذه المقابر.

ولعل الدراسة التي قام بها "أوفوه ولشر" لمجموعة أبنية هرم الملك خفرع تعتبر أوفى الدراسات التي تتيح لنا فرصة لفهم العناصر المعمارية للنموذج العام لأبنية أهرام الدولة القديمة.

ومن هذه الدراسة نعرف أن كل مجموعة هرمية تتكون من أربعة عناصر معمارية يتلو الواحد منها الآخر وهي تبدأ من الأرض المنزرعة في المشرق وتمتد صاعدة إلى أعلا الهضبة لم تنتهي في الغرب ببناء المقبرة الهرمية الشكل بحجمها الضخم الشامخ.

ونحن نجد في هذا التقسيم الأسس التي اتبعت في كل المعابد المصرية من جميع العصور، وهي الأسس الدينية التي تقوم على إبراز فكرة الانتقال من الحياة الدنيا إلى قدس الأقداس بالنسبة إلى المعابد المشيدة لعبادة الآلهة أو الانتقال من الحياة الأولى إلى الموت أو قل الحياة الأبدية بالنسبة إلى المقبرة التي يرمز إليها هنا بالهرم. وكانت الكميات الضخمة من الأحجار الجيرية،

التي تقطع من محاجرها في طره (الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل أمام منطقة الجيزة)، تنقل أثناء موسم فيضان النيل على مراكب وتجمع في مكان في الوادي، ثم يجرى نقلها بواسطة حمالين أو دواب الحمل (مثل الثور أو الحمار، أما الحصان فلم يكن معروفًا بعد في عصر الدولة القديمة) صاعدين بها فوق طريق يعبد خصيصًا لهذا الغرض ليصل بين الوادي وبين المنطقة التي تقرر تشييد الهرم والمعبد الجنازي فوقها.

ونحن حتى الآن لم نستطع معرفة طريقة بناء الهرم إذ لم تصلنا وثائق مكتوبة أو صور مرسومة تحدثنا بأمرها وستبقى هذه الطريقة طلسمًا نضعه بين المعضلات الكثيرة، كما أننا نعتبر هذه الطريقة من بين المعجزات الهندسية، خاصة وأننا نعتقد أن الأدوات التي استعانوا بها في تشييد الهرم، كانت بالنسبة إلينا، بدائية.

وإذا ما تمت الأعمال في تشييد الهرم ومعبده الجنازي فوق الهضبة، أخذ المصري يحول ذلك المكان الذي كان يستقبل كميات الأحجار والذي كان يقع في الوادي، إلى معبد كبير يعرف باسم "معبد الوادي" ثم يحول الطريق الصاعد إلى ممر مسقوف يصل بين المعبدين، وتسير فيه جموع الكهنة والزائرين عند صعودها إلى المعبد الجنازي فوق الهضبة.

وهكذا تتكون العناصر الأربعة لكل هرم وهي: ١- معبد الوادي ٢- النمر الصاعد ٣- المعبد الجنازي ٤- الهرم، والتزم المصري هذه العناصر طوال عصر الدولة القديمة وأصبحت تكون أقسام المقبرة الملكية، وإذا تعرضت لبعض التغييرات، فكان هذا بالنسبة إلى الأسلوب الفني الخاص بالتنفيذ فقط وهو أسلوب خضع باستمرار للتطور الزمني.

تكونت مجموعة هرم خوفو الأكبر من هذه العناصر المعمارية الأربعة، ولكن لم يبق منها إلا الهرم نفسه بينما اختفت الأقسام الثلاثة الأخرى.

ولعل السبب في ذلك هو أن هذا الهرم يقع في أقصى الشمال من الهضبة ويستقبل لذلك وفود الزائرين القادمين من الوادي، فيثير إعجابهم بضخامته (إذ يبلغ ارتفاعه الآن ١٣٩ مترًا) ولعل هذا الهرم قد استرعى اهتمام عدد كبير من الزائرين كما لقى الكثير من أعمال الهدم والتخريب.

ويجدر بنا هنا أن نكرر ما يقوله ويؤكده علماء الآثار، وهو أن هذا الأثر لم يشيد إلا ليكون مقبرة ضخمة لتحوي رفات ملك من ملوك الفراعنة، وأن ليس هناك في مقاييسه المختلفة ما يدعو مطلقًا إلى إقامة نظريات معقدة تدل على أسرار خفية، كما اعتاد بعض أدعياء العلم تأكيده عن هذا الهرم.

وليس من شك في أن عظمة هرم خوفو لا ترجع إلى الأسرار التي تحيط بمقاييسه، بل هي ترجع إلى أنه يؤثر بضخامته الهائلة كمبنى كامل الأجزاء، ويفوق كل الأبنية الأخرى التي خلفها لنا المصريون القدماء بأنواعها المختلفة.

أما خفرع (أو كما سماه هيرودوت "خفرن") فهو ابن خوفو وصاحب الهرم الثاني في منطقة الجيزة (يبلغ ارتفاعه الآن ١٣٦ مترًا) ولكنه لم يخلف أباه مباشرة على العرش، إذ سبقه أخ آخر اسمه "ددفرع" تتحدث عنه آثاره وتحدد مدة حكمه بثماني سنوات ولا نعرف الكثير عن نسبه. تزوج إحدى بنات خوفو، أي أخته غير الشقيقة وهذا أمر كان يحدث كثيرًا بين المصريين من الأسرة المالكة.

وقد عثر على رسم لهذه السيدة التي أطلق عليها اسم جدتها "حوتب حرس" في مقبرة ابنتها وقد تمتعت بكل الألقاب الملكية. ومن الطريف حقًا أنها بدت في رسومها بشعر أشقر وعينين زرقاوتين وملابس غير المصرية.

ونحن نعتبر هذه السيدة الممثلة الأولى للشعب الليبي ذي الشعر الأشقر (أو شعب "التمحو" كما سماه المصريون) وانحدرت منه القبائل التي تسكن شمال غربي أفريقيا، ولابد أن هذا الشعب بدأ يتصل بالمصريين أبان تلك الفترة. والعثور على هذا الرسم الذي يمثل ابنة خوفو بشعرها الأشقر يدفعنا إلى الاعتقاد بأن خوفو كان قد تزوج من أم هذه السيدة، وأنها كانت شقراء ليبية .. أما "ددفرع" فقد اختار لنفسه مكانًا آخر يشيد فيه مقبرته، ويقع فوق الهضبة عند أقصى الشمال وبالقرب من الموقع الذي تأخذ فيه الدلتا في الاتساع.

وهرمه هذا الذي كان في يوم من الأيام يهيمن على منطقة أبي رواش تعرض لأعمال النهب والتهشيم التي أتت عليه ولم يبق منه إلا الطريق المنحدر الذي كان يصل إلى الحجرة التي حوت التابوت في أعماق الهرم.

وبعد "ددفرع" استمر الفرع الرئيسي للأسرة المالكة في الحكم ممثلًا في "خفرع" و"منكاورع" وانتهى حكم الأسرة بالملك "شبسسكاف" ولعله كان أحد أبناء "منكاورع" ولقد ترك منطقة الجيزة أيضًا واختار منطقة تقع إلى الجنوب من سقارة وبنى فيها مقبرته بأسلوب غير هرمي الشكل، بل بنى مسطبتين تعلو إحداها الأخرى، وهي المعروفة الآن باسم "مسطبة فرعون".

وفي الواقع أن هذه المقبرة تبدو في شكل تابوت عظيم الضخامة يعلوه غطاء مقوس، أما المعبد الجنازي بهذه المقبرة فقد تهشم إلى حد ضاعت معه معالمه.

أضاف "مانيتون" على أسماء الملوك الستة الذين سبق ذكرهم، أسماء لثلاثة ملوك آخرين، لم تذكرهم القوائم المصرية للملوك، كما لم تصل إلينا منهم آثار معروفة. ولعل أصحاب هذه الأسماء الثلاثة، كانوا قد كونوا أسرات حاكمة في مناطق محلية أو أنهم قاموا بحركات ثورية لم تعرها الوثائق المصرية أي اهتمام، ومن واجبنا ألا نعتبرهم من ملوك الأسرة الرابعة.

ونرى في النقوش المسجلة على جدران مقابر بعض الشخصيات البارزة التي عاصرت عهود أكثر من ملك وثائق هامة. تساعدنا على التحقيق من التاريخ الخاص بعصور أسرات الدولة القديمة، وبخاصة أن هذه الفترة تفتقر إلى وثائق تحدد عهودها بشكل ثابت كما سبق ذكره.

ومثل هذه النقوش يجب عند تقدير عدد السنوات التي تمثلها أن نفترض لها أطول مدة لحياة الإنسان الواحد، وذلك لأن مثل هذه الشخصيات البارزة التي تقلدت أكثر من وظيفة رئيسية، من عادتها أن تبالغ في تسجيل الأحداث التي وقعت لها في حياتها الطويلة وفي عهود أكثر من ملك.

فإذا نحن قابلنا هذه النقوش بعضها ببعض ورتبناها بحسب أسماء الملوك التي ذكرت فيها ثم وضعنا لكل من هذه الشخصيات عددًا من السنين على أساس أنه بالغ من الكبر عتيًا وجمعنا هذه السنوات لوجدنا أن التقدير الذي ذكره "إدوارد ماير" لأسرات الدولة القديمة مغالى فيه كل المغالاة.

ونحن إذا افترضنا أن ملوك الأسرة الرابعة قد حكموا فعلًا تلك السنوات التي ذكرتها لهم الآثار، فيجب أن نقدر لهؤلاء الملوك الستة عهدًا يمتد من ٢٦٠٠ ق.م إلى ٢٤٨٠ ق.م.

حدث الانتقال من الأسرة الرابعة إلى الأسرة الخامسة على يد إحدى أميرات الأسرة القديمة التي أعطت زوجها حق ارتقاء العرش وتأسيس أسرة جديدة. هذه الأميرة هي "خنت كاوس"، ويغلب علي الظن أنها إحدى بنات "منكاورع"، والتي تزوجت "أوسر كاف" مؤسس الأسرة الخامسة. وهذا الانقلاب الذي أدى إلى تغيير الأسرة الحاكمة، وما أنتجه من آثار جديدة على الديانة المصرية على نحو ما سنتحدث به على الصفحات التالية.

قد بقى أجيالًا طوالًا في أذهان الناس تتناقله الألسن، ولقد عرفناه من وثيقة صيغت في صورة أسطورة كتبها صاحبها حوالي عام ١٦٥٠ ق.م وهذه الأسطورة تتحدث عن ساحر تنبأ للملك خوفو بأن أسرته ستفقد الملك على أيدي أبناء ثلاثة سيولدون من سيدة واحدة عن طريق معجزة إلهية وأن هؤلاء سيصبحون الملوك الثلاثة الأول للأسرة الجديدة، ولقد أسهبت هذه الأسطورة في وصف تفاصيل هذا الحادث، وفي اشتراك قوى إلهية عظيمة في مجرياته.

واعتبرت الأسطورة الأب البشري لهؤلاء الأطفال الثلاثة، كاهنًا من كهنة الإله "رع" وهو الإله الذي ظهرت عبادته في هذه الفترة بشكل واضح في مصر، عمدت هذه الأسطورة إلى تسجيل انتصاره وجعلت الناس يتحدثون به، وهذا الانتصار واضح من أسماء ملوك الأسرة التي تنتهي باستمرار باسم إله الشمس (أي تنتهي بلفظ "رع")، وكذلك سجلت حرص كل ملك على أن يشيد بجوار مجموعته الهرمية، معبدًا للإله "رع".

ونحن نفتقد بالنسبة إلى هذه الأسرة مثل سابقتها وثائق تاريخية تحدثنا عن أهم الأحداث التي جرت في عصرها، وهو العصر الذي نعتبره من وجوه عدة أزهى فترات الدولة القديمة، ولو أننا في نفس الوقت نستطيع أن نؤرخ لملوكهم أكثر من تاريخنا لملوك الأسرة الرابعة، وذلك على أساس أن الاتجاه الفني في عصر هذه الأسرة اختلف وأصبح يسمح بملء المسطحات الواسعة لجدران المعابد الجنازية والمعابد المقامة للإله "رع". بمجموعة كبيرة من المناظر المنقوشة التي تحدثنا بالكثير من هذا العصر.

ويجدر بنا أن ننوه هنا بأن هذه المناظر ليست من النوع الذي أخذ ينتشر فيما بعد والذي نطلق عليه اسم "النقوش التاريخية"، وهي النقوش التي تسجل لنا على وجه التدقيق حادثًا تاريخيًا بعينه مثل انتصار الملك على أحد الشعوب التي هاجمت مصر في وقت ما، بل هي مناظر ذات طابع عام مثلها مثل النقوش التي حرص كل ملك على أن يسجلها على صخور شبه جزيرة سيناء وقصد بها إظهار عظمة فرعون مصر وانتصاره الرمزي، ولا شك أن هذا يقبل كثيرًا من القيمة التاريخية لمثل هذه المناظر.

وهناك منظر ورد منقوشًا على جدران المعبد الجنازي للملك "ساحورع"، لعله يختلف عن النوع الذي ذكرناه، فهو يمثل لنا بضع سفن عائدة إلى مصر من الشاطئ الفينيقي، ويرى الأستاذ "مونتيه" في هذا المنظر وثيقة تاريخية تتحدث عن إحضار أميرة سورية من بلادها إلى بلاط الملك المصري.

مثل هذه المناظر لا تفيدنا كثيرًا من الناحية التاريخية، لكنها تساعدنا في تكوين صورة لما كانت عليه حضارة مصر في أزهى عصورها أبان الدولة القديمة، ويجدر بنا هنا أن نذكر أيضًا المناظر التي تصور لنا أفرادًا من

الشعوب التي اتصلت بمصر في عصر الأسرة الخامسة، مثل الساميين الذين قطنوا شبه جزيرة سيناء، وأولئك الذين سكنوا المواني الفينيقية، ثم الليبيين (التحنو) الذين انتموا إلى نفس الجنس الذي انتمى إليه المصريون وسكنوا المناطق المجاورة لمصر في الغرب، وأخيرًا النوبيين جيران مصر في الجنوب، ولم تظهر العناصر الزنجية في المناطق المتاخمة للحدود الجنوبية لمصر في عصر الدولة القديمة.

وإننا على حق إذا قلنا أن النقوش التي كشف عنها "بورخاردت" أثناء تنقيبه لحساب "الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية" في منطقة أبو صير إلى الجنوب من الجيزة، والتي كانت تغطي جدران المعابد الجنازية لأكثر من ملك من ملوك الأسرة الخامسة، أن هذه النقوش بموضوعاتها قد قضت على الفكرة التي كانت تصف مصر في عصر الدولة القديمة بأنها بلد مغلق لا تربطه علاقات مع الشعوب التي تسكن العالم المتاخم له، بل على العكس من ذلك فقد أظهرت هذه النقوش أن مصر كانت قد فتحت أبوابها أمام العالم وأن تجارتها قد امتدت إلى بلدان نائية.

واستمر الأسلوب المعماري الذي انتشر في عصر الأسرة الرابعة للمجموعات الهرمية متبعًا في عصر الأسرة الخامسة وفي أهراماتها المشيدة في أبو صير (نظرًا لأن هذه هي الوحيدة التي تم دراستها دراسة علمية دقيقة) وظهر معه أيضًا الاختلاف الذي كان مرجعه تحلل الفن من القيود القديمة، وليس هذا الكتاب هو المكان الذي أستطيع أن أتحدث فيه عن اتجاهات الأساليب الفنية في مظهرها الجديد، إذ أن هذا الحديث موضعه كتاب يعالج تاريخ الفن، أما الأهرامات نفسها فهي تتميز بصغر حجمها ولذلك تتضاءل أمام أعيننا إذا قارناها بأهرامات منطقة الجيزة.

ونحن لا نذكر إلا أهرامات أبو صير التي بناها الملوك الثلاثة "ساحورع" ،"نفر – أير – كارع" و"ني – أوسر – رع"، إذ أن أهرامات سائر ملوك هذه الأسرة قد اختفت أو أننا لم نكشف عنها حتى الآن. وتقدر القوائم الملكية فترة حكم الأسرة الخامسة بحوالي ١٣٠ سنة (أي من ٢٤٨٠ ق.م إلى ٢٣٥٠ ق.م)

ولقد اعتدنا أن نجعل من "أوناس" (نطقه المصريون "ونيس" والإغريق أونوس) وهو آخر ملوك الأسرة الخامسة، أول ملوك الأسرة الجديدة السادسة وذلك لأن هؤلاء الملوك اعتادوا ملء جدران حجرات الدفن في أهراماتهم بنقوش دينية نطلق عليها اسم "متون الأهرام"، وقوائم الملوك تعتبر "أوناس" آخر ملوك الأسرة الخامسة، ونحن لا زلنا نجهل الأسباب التي دعت إلى انتهاء الأسرة الخامسة وظهور أسرة جديدة ولو أن "يونكو" يعتقد أن هذا التغيير حدث على يد ملكة ممن تمتعن بالدم الملكي المقدس. نقلت قدسيته إلى زوجها المؤسس للأسرة الجديدة والتي وصلت إلينا أسماء ملوكها عن طريق "متون الأهرام" وهم "تيتي"، و"بيبي الأول" و"مر نوع" و"بيبي الثاني"، قد شيد هؤلاء جميعًا أهراماتهم في سقارة حيث تجمعت، وكذلك هرم الملك "أوناس" آخر ملوك الأسرة الخامسة، في مكان يقع إلى الجنوب من المسطبة المدرجة التي شيدها "زوسر" من الأسرة الثالثة مع ملاحظة أنه لم يستطع أحد من ملوك الأسرة السادسة أن يرتفع بهرمه إلى ارتفاع يُمكن أن نقارنه بارتفاع هذه المسطبة.

واتبع ملوك هذه الأسرة نفس الأسلوب الذي كان سائدًا في أهرامات الأسرة الخامسة، إلا أن المناظر المنقوشة أخذت تزداد كما أخذت تعالج بعض الموضوعات التي اعتدنا رؤيتها في مقابر الأشراف فقط.

وهذا الدليل إذا أضفناه إلى صغر حجم الأهرامات وإلى ضعف العناية بالتنفيذ، يثبت لنا تخلف مصر في حضارتها أبان هذا العصر. ولقد حدث في تلك الفترة أن أطلق المصريون اسم هرم "بيبي الأول" أي "من – نفر" على العاصمة، ونحن لا ندري الأسباب التي دعتهم إلى ذلك، ولكن هذا الاسم لصق بالعاصمة "منف" وبقى ملتصقًا بها حتى آخر العصور الفرعونية.

ونعود فنعرف بأن معلوماتنا عن الأحداث التاريخية الخاصة بملوك هذه الأسرة ضئيلة وقليلة. ويبدو أن "بيبي الأول" قد قبض على ناصية الحكم بقوة وعزم كما كان الحال مع من سبقه من الملوك. أما "بيبي الثاني" فقد حددت له القوائم الملكية مدة تسعين عامًا حكم فيها مصر.

وتدل النقوش التي وصلت إلينا من عصره أن السلطة المركزية أخذت تضعف وبدأت مصر تضحمل وتنقسم إلى اقتطاعات مختلفة. ووصلت إلينا وثيقة أدبية ترجع نسختها المحفوظة في متحف "ليدن" إلى عصر الأسرة الثانية عشرة، وتحوي وصفًا لما كان يحدث في مصر في عصر الملك "بيبي الثاني".

أن كاتبها يندب حظ مصر التي وقعت فريسة للاضطرابات في عصر ملك كهل، قليل النشاط، ولدق صاغ كلماته في أسلوب حاول فيه أن يصف ما اعترى مصر من اضمحلال جعل الناس يقومون بثورة جامحة أدت إلى انفصال مصر العليا عن العصمة، كما سهلت الفرصة أمام جماعات من الشعوب الأجنبية لدخول مصر من شبه جزيرة سيناء والاستقرار في الدلتا. وهكذا ذبلت حضارة مصر بعد أن انبثقت وازدهرت في عصر الدولة القديمة.

وتذكر القوائم الملكية بعد عصر "بيبي الثاني" الذي امتد فترة طويلة، اسمين لملكين فقط، ثانيهما هو اسم الملكة "نيتوكريس" التي لا نعرف عنها شيئًا.

أما الأسرة السابعة التي ذكرها "مانيتون" وقال عنها أنها تتكون من سبعين ملكًا حكموا مصر لمدة سبعين يومًا، فنحن نوافق "ماير" على عدم الاعتراف بها. وتتكون الأسرة الثانية من ثمانية عشر ملكًا، لا نعتقد أن سلطانهم امتد إلى أبعد من حدود العاصمة منف، كما أننا لا نعرف عنهم أكثر من أسمائهم، بل لم تصل إلينا أية معلومات عن المكان الذي حوى مقابرهم. أما قائمة الملوك في بردية نورين فهي تذكر لملوك الأسرتين السادسة والثامنة عددًا من السنوات بلغ ١٨١ عامًا ثم تفصل بعد ذلك بينهم وبين الملوك الذين خلفوهم، وهذا دليل على أن كاتب هذه الوثيقة أراد أن يدلل على وجود فاصل جوهري في التاريخ المصري وهو ما نطلق عليه اليوم عصر الدولة القديمة وأن هذا الجزء قد انتهت أيامه. ونحن نعتقد أن عصر هاتين الأسرتين السادسة والثامنة يقع فيما بين عامي ٢٣٥٠ ق.م أو ٢١٩٠ ق.م.

ب- الملك والدولة

كانت الحكومة المصرية، وخاصة في عصر الدولة القديمة، تتركز بشكل واضح في يد الحاكم ذي السلطان المطلق، ولذلك لا نستطيع أن نفرق بين الدولة والملك. فالملك هو المحور بل هو الروح التي تبعث الحياة في الدولة، وكل ما يحدث فيها وحي منه. قامت قوته على أسس دينية عميقة الأثر، فهو "الإله العظيم"، والإله الصقر "حوريس" الذي تجسم في هيئة بشرية، ومن أجل ذلك لقب ملوك العصور الأولى أنفسهم بلقب واحد وهو "حوريس".

أما "بر أيب سن" وهو أحد ملوك الأسرة الثانية فتراه يؤكد انتمائه إلى مصر العليا فيطلق على نفسه لقب "ست" وهو الإله القديم التقليدي الذي هيمن على الوجه القبلي، وفي آخر الأمر نجد أن آخر ملوك الأسرة الثانية ولقب نفسه "حوريس – ست" وهو بذلك يعبر عن نجاحه في إيجاد وحدة جمعت بين قطري مصر، رمز لها بالتوحيد بين الإلهين المهيمنين على هذين القطرين، أما الألقاب الخمسة التقليدية فقد أخذت تتكون مع اطراد الزمن، وأصبحت تذكر بترتيب معين بحيث يسبق كل منها اسمًا للملك، واكتملت عناصرها في عصر الدولة القديمة.

وهذه الألقاب تبدأ عادة بلقب "حوريس" الذي يثبت انتماء حامله إلى عالم الآلهة ثم لقب "ملك مصر العليا ومصر السفلى" الذي يثبت أن شخصية حامله من البشر.

ومن الواضح طبعًا أن "مصر العليا" تذكر دائمًا قبل "مصر السفلى"، والسبب في ذلك أن الاتحاد الكامل الحقيقي بين قطري مصر قام على يدي الملك مينا الذي ينتمي إلى مصر العليا، واستمر هذا التفضيل طوال العصور، في حين أن كثيرًا ما تفوقت مصر السفلى وتركزت فيها كل عوامل السلطة والحضارة.

ولقد حدث فيما بعد أن كان اللعب "ملك مصر العليا ومصر السفلى" يأتي في المرتبة الرابعة من الألقاب، وكان يسبق باستمرار اسم العرش للملك، وهو الاسم الذي كان الملك يختاره لنفسه قبل اعتلائه رسميًا لعرش مصر.

أما الاسم الشخصي للملك فكان يذكر بعد اللقب الخامس الذي يصف الملك بأنه "ابن رع"، وهذا الاسم بالذات هو الذي اعتدنا ذكره للملوك الذين حكموا مصر فيما بعد الدولة القديمة (مثل تحوتمس وأمنحوتب وغيرهما).

واللقب الخامس هذا ظهر في عصر "منكاورع" في أواخر عصر الأسرة الرابعة وفي ظهوره دليل واضح على الاتجاه الديني الجديد الخاص بعبادة إله الشمس "رع" ويشير بقرب حدوثه، وسوف نعود إلى الحديث عن هذا الموضوع على الصفحات القادمة.

ولما اعتبر الملك المصري مُنذ أول العصور بمثابة الصورة البشرية التي تجسد فيها حوريس، فقد حق على المصريين أن يروا فيه مخلوقًا إليهًا، يجب عليهم أن يقدموا له فروض التقديس.

فنجد مثالًا في رسوم معابد الأسرة الخامسة صورًا تمثل الملك يرضع من ثدي إلهة مصر العليا "نخبت" معبودة مدينة "الكاب"، أو تمثله وهو يتحلى بتاج مقدس وقد مثل بين يديه كل من الإله أنوبيسس والإلهة أتو.

وهناك صورة تمثله على شكل أسد يطأ بقدميه أعداءه الليبيين، وهذا التمثيل لابد أنه يرجع إلى العصور العتيقة التي كان المصري يعيش فيها في حالة بدائية، وهو ولا شك تمثيل يدفع بالملك إلى مرتبة سامية غير بشرية، وهذا حدث فيما بعد حين صور على هيئة أبي الهول.

وعثر في معبد الوادي للملك "منكاورع" على عدد كبير من التماثيل، كل منها يمثل الملك مع الإلهة "حاتحور" وإلهة أخرى من المعبودات المحلية التي تهيمن على أحد أقاليم مصر، ومهما كانت الأهداف الحقيقية لإقامة هذه التماثيل، فهناك معنى مستتر لا شك فيه وهو أن الملك إله وأنه

يختلط مع الآلهة وأنه يقف منهم مواقف الند للند، ولذلك لا تدهش مطلقًا إذا حرص المصريون في عصر الدولة القديمة على إخفاء الناحية البشرية من سلوكهم، أو على الأقل عدم إبرازها بشكل ملموس.

ودليلنا على ذلك أن الزوجة الملكية لم تلعب دورًا هامًا، ومن النادر أن نجد تماثيل للملك وزوجته ولعل الاستثناء الوحيد هو التمثال الذي يمثل "منكاورع" وزوجته، وهو قطعة فنية رائعة ولكنه لا يبرز الناحية الملكية بل هو يطفي على الزوجين مظهرًا من المسحة الشعبية يجعله لا يفترق كثيرًا عن التماثيل التي قدت لأي زوجين من الشعب من عصر الأسرة الخامسة.

وهكذا رأى الشعب المصري في ملكه إلهًا يحيا فوق الأرض، تنحني له الهامات وتدق له القلوب هلعًا وخوفًا عند رؤيته. إذ حدث أن سجل أحد من أصحاب العزة الجاه، على مقبرته أنه حظى بتقبيل أقدام الملك بدلًا من تقبيل الأرض أمامه، فمعنى هذا أنه سجل شرفًا عظيمًا يفاخر به، ولعل الاسم المعروف "فرعون" وهو الاسم الذي ورد في العهد القديم بمعنى "الملك المصري"، وكثيرًا ما يطلق خطأ على أنه اسم شخصي للملك، هذا الاسم هو دليل قوي على مدى تأليه المصريين لملوكهم، وبخاصة في عصر الدولة القديمة ومعناه "البيت العظيم".

ونستطيع أيضًا أن نذكر العقيدة التي تجعل الذل والعار يحيق بكل ما يلمس الملك أو يلمس شيئًا من أدواته، ولقد وصلت إلينا وثيقة سجلها أحد كبار رجال الدولة على جدران مقبرته، وهي تقول أنه حدث مرة عندما اجتمع صاحب المقبرة بالملك أن لمست عصا فرعون هذا المسكين دون قصد، ومعنى هذا عند المصري أنه سوف يحل به عقاب الآلهة، ولذلك أمر الملك

أن يسمح لهذا الرجل بتسجيل الحادث على أنه وقع عن غير قصد وأن يخلد هذا الاعتراف للناس إلى أبد الآبدين، ولعل هذه القصة الصغيرة تصور لنا مدى تعلق مصري الدولة القديمة بفكرة تأليه ملوكه، فالملك في واقع الأمر لم يكن إلا الإله العظيم "الذي يحيا فوق الأرض".

ولعلنا لا ندهش وقد بينا عقيدة المصري في قدسية ملوكه، إذا عرفنا أن هؤلاء الملوك، بما سيكون لهم من سلطة وسيطرة تمتد إلى عالم ما بعد الموت، قد حرصوا على أن يشيدوا لأنفسهم مقابر ضخمة، وعلينا ألا نشترك في الخطأ الذي فسر به البعض بأن الدافع إلى تشييد تلك المقابر الضخمة فوق مساحة شاسعة هو إظهار لجبروت الملك وعظمته، بل من الواضح أن الدافع هو إقامة مركز تقدم فيه فروض العبادة إلى الميت الذي كان إلهًا.

وهو بعد موته لا يزال يتمتع بقدسيته، وإني أعتقد أن هذه المشاعر تملكت المصري دائمًا الذي عرف بالتقوى والحرص على أداء شعائره الدينية. ولقد ساهمت البيئة المصرية بنصيب كبير في تنفيذ هذه المشروعات.

فنحن نعرف أن النيل يأتي بفيضانه مرة كل عام، وأن مياه الفيضان تغمر حقول مصر لعدة شهور يبطل فيها كل عمل في الزراعة، وهكذا سهل إيجاد القوة البشرية الكافية التي يحتاج إليها تشييد هرم كبير، بل أن هرم خوفو الأكبر ظل قرونًا عديدة مركزًا لأكبر جبانة مصرية تحيط به، وبعد أن مضى على موت خوفو أكثر من أربعة قرون، كان المصريون الذين ينتمون إلى الطبقات الكادحة يحرصون على إقامة مقابرهم بالقرب من هرم ذلك الملك العظيم، فإذا كان خوفو من بين العتاة المستبدين، لما ظلت ذكراه الطيبة عالقة بأفئدة المصريين طوال هذه القرون ولما حرصوا على تقديمه بهذا الشكل.

لقد كان الهرم ومعبده الجنازي بمثابة المركز الدائم لإقامة الشعائر الدينية للملك ولكن أصحاب المقابر الذين دفنوا في الجبانة المترامية الأطراف، ولعل هذا هو السبب الذي جعل أصحاب هذه المقابر من رجالات الدولة البارزين لا يحرصون على تزويد مقابرهم بمناظر أو بمتون دينية يذكرون فيها الآلهة أو ملكهم.

هذه حقيقة لا نحب أن تطغى على حقيقة أخرى وهي حب المصري في عصر الدولة القديمة الحياة الدنيا الأولى وحرصه على التمتع بمباهجها. وهو الحب الذي دفعه إلى أن يزود مقبرته بكل المناظر التي تذكره بمباهج الحياة المختلفة، لعلها تتيسر له في حياة ما بعد الموت.

وإذا كان الملك يرنو من ناحيته إلى أن يحظى من أفراد شعبه بكل معنى من معاني التقديس كما رأينا فيما سبق، فإنه من ناحية أخرى كان يحيط رعاياه بعنايته ويبذل لهم المعونة بطرق مختلفة.

ونحن نلمس هذه الرعاية فيما يتعلق بحياة الفرد في الدنيا الثانية. فمثلًا نجد في النص الذي نطلق عليه اسم "متن تقدمة القرابين" (وهو متن لا تزال الآراء تتضارب في تفهم القواعد اللغوية الخاصة به بل وفي كيفية ترجمته) والذي يبدأ دائمًا بأن الملك هو الذي يتفضل ويهب المتوفى القرابين التي تقدم له في مقبرته.

وفي الحقيقة كانت المقبرة كلها هبة من هبات الملك يقدمها إلى أحد المخلصين له من بين شعبه، وذلك مكافأة له على ما قام به من أعمال في خدمة سيده. وحدث طبعًا أن هؤلاء جميعًا حظوا بهبات الملك وأقاموا مقابرهم بالقرب من الهرم.

وفي عصر الملك "خوفو" – وهو العصر الذي تميز بالنظام والدقة في التنفيذ – شيدت هذه المقابر بأسلوب واحد وصفت في خطوط متوازية يفصل بين كل منها شارع، ونطلق على هذه الشوارع اسم شوارع المساطب[٥].

وليس في استطاعة أحد، بعد أن يزور تلك الطرق الممتدة في الجبانة الغربية لهرم خوفو. وقد كشف عنها معول الحفار بعد أن بقيت مطمورة في الرمال آلافًا من السنين، إلا أن يرى في أسلوبها المعماري الموحد المهيمن على المساطب فيها صورة لما كان يحدث في ذلك الوقت، من أن مهندسًا واحدًا هو الذي كان يقوم بالتخطيط ثم بالتنفيذ، بحيث أن صاحب المقبرة لم يكن يشترك مطلقًا في مواصفات قبره الذي كان يهبه الملك إليه.

أن هذه القاعدة تنطبق على الأقل على المساطب التي بنيت من عصر كل من خوفو أو خفرع في جبانة الجيزة. وقد أكد ذلك "يونكر" ووصفه في كتابه الأول عن حفائره في منطقة الجيزة.

هذه الهبات كان يختص بها في أول الأمر أقرباء الملك ممن تقلدوا أكبر مناصب الدولة الدينية والمدنية، وهم الذين حظوا بلقب "رخ – تيسوت" وهو لقب فخري يعني "الذي عرفه الملك" ويترجم عادة "صديق الملك" أو "قريب الملك" وفي غمرة الأحداث التي وقعت في مصر بعد انتهاء الأسرة الرابعة.

---

(٥) نطلق اسم "المسطبة" على المبنى الذي يشيد في الجبانة حول الهرم ليكون مقبرة لأحد أشراف الدولة القديمة، وكانت المسطبة، وبخاصة في عصر ازدهار الدولة القديمة، تكسى من الخارج بألواح من الحجر الجيري الأبيض، وتحوي عادة حجرة لإقامة الشعائر الجنازية ولتقدمة القرابين، أما الجثة فكانت تدفن في حجرة منقورة في أعماق الأرض. وكثيرًا ما تحوي المسطبة حجرة أو حجرتين للتماثيل (نطلق على هذه الحجرة اسم سرداب). يكون موضعها إلى جانب حجرة القرابين وليس لها أي مدخل. والكلمة "مسطبة" اعتاد أهل مصر أن يطلقوها الآن على مقعد مبني مستطيل الشكل يعدونه خارج منازلهم للجلوس عليه.

قلت قيمة هذا اللقب "رخ تيسوت". بحيث نجد أفرادًا عاشوا في أواخر الدولة القديمة ولم يتمتعوا في حياتهم بمركز اجتماعي كبير. ولكنهم حملوا هذا اللقب، ولقد كثر عددهم إلى درجة أننا نكاد نعتقد لأول وهلة أن كل المصريين في ذلك الوقت كانوا "أقرباء للملك".

وكان الملك من جانبه يهب صاحب المقبرة بعض القرى، التي غالبًا ما تكون بعيدة عن الجبانة. وذلك ليضمن له دخلًا ثابتًا يكفي للصرف منه على تقدمة القرابين وإقامة الشعائر الجنازية وكانت القرابين تتكون من اللحم والخبز والجعة وغير ذلك من المواد اللازمة لمثل هذه المناسبات الدينية.

وبمرور الزمن أصبحت هذه الهبات، التي نشأت في فكرتها الأولى لضمان تزويد المقبرة بقرابينها، من بين أملاك أسرة المتوفى، وهكذا ظهرت في مصر رويدًا رويدًا فكرة تملك الأرض للأفراد، في حين أن مصر في عصورها الأولى كانت كلها ملكًا للملك وحده.

ويبدو أن مصر كانت على الأقل أثناء حكم ملوك الأسرة الرابعة تسود فيها مركزية مطلقة. ويشرف على شئونها ملك تتركز فيه كل السلطات، وكانت العاصمة منف هي المركز الرئيسي الذي تدار منه دفة الحكم، وكان الملك يشرف بنفسه على اختيار من يتولى وظائف الدولة الرئيسية، وهي وظائف لم تكن في عصر الأسرة الرابعة تخضع لنظام التوريث، وإذا تم هذا الاختيار قام الموظفون بأعباء وظائفهم التي تنتشر في طول البلاد وعرضها، على أن يوالوا الاتصال بالمركز الرئيسي الذي بقى ممثلًا في "منف".

ولقد خرجنا بصورة واضحة، وبخاصة بعد الانتهاء من كثير من التنقيب الأثري، وهذه الصورة هي أن مصر كانت تتركز أبان العصر المزدهر للدولة القديمة، أي من الأسرة الثالثة إلى آخر الأسرة الخامسة، في العاصمة منف، فقط، ودليلنا على ذلك أن الجبانة الرسمية للبلاد امتدت في "أبو رواش" (شمالي الجيزة) إلى الجيزة فأبو صير فسقارة ثم تنتهي في الجنوب عند دهشور؛ أي أنها تمتد في مساحة يبلغ طولها حوالي الثلاثين كيلوا مترًا على الشاطئ الغربي للنيل، وفي الواقع لم تظهر لنا في مصر كلها وفي امتدادها الطويل آثار ذات قيمة من هذا العصر الذي وصفناه بالعصر المزدهر للدولة القديمة، غير هذه الآثار. ومن الغريب حقًا أننا نجد في نفس الوقت الذي سادت مصر فيه هذه المركزية المطلقة في نظام حكمها محافظة كاملة على الثنائية التقليدية (مصر العليا ومصر السفلى) وكان لا يزال هذا الحكم قائمًا يرمز إليه بالصورة المعروفة "اتحاد قطري مصر" التي نقشوها خاصة على كراسي العرش في كل وقت وفي كل عصر، وهذه الثنائية لم تتعارض مع الوضع الفعلي القائم وهو المركزية المطلقة.

وكثيرًا ما تحدثنا نقوش المقابر عن الترقيات التي يفوز بها الموظف في عصر الدولة القديمة، كما أنها تظهر لنا كيف أن أبناء بعض الأسرات الكبيرة، ممن ينظر إليهم نظرة خاصة بالنسبة إلى توليهم الوظائف الكبرى فيما بعد، هؤلاء الأبناء كانوا يظفرون بتربية خاصة في البلاط الملكي تتم باختلاطهم مع الأمير الملكي، وكان الموظف يبدأ حياته يتعلم الكتابة والقراءة وهي عملية لم تكن على جانب كبير من اليسر، وكان يقبل عليها عدد كبير من الناس، ولعل ذلك هو السبب في عثورنا على حالات كثيرة يستعمل فيها أصحابها لقب "كاتب"، وأني أعتقد أن هذا اللقب كان يعني على قدر فهمنا لهذا المعنى

الآن "الموظف". وكان الرئيس الأعلى لموظفي الدولة هو الوزير (بالمصرية القديمة "ثاتي") الذي كان يشرف في نفس الوقت على القضاء ويلقب من أجل ذلك "كبير القضاة" ومما يؤسف له أن معلوماتنا عن شئون القضاء في مصر أبان الدولة القديمة قليلة، وبينما دون الناس قوانينهم في بابل القديمة فإنه لم تصل إلينا صورة واحدة لأي قانون مصري كتب على بردية من عصر الدولة القديمة، وليس معنى هذا أن المصريين لم يعرفوا القانون، بل أننا لازلنا نفتقد هذه الوثيقة التي لابد أنها كانت موجودة، ولم تصل إلينا بعد، ومن أجل هذا كله نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتماد على بعض الوثائق المتفرقة، منها ما هو منقوش ومنها ما وصلنا على برديات لكي نستخلص منها شذرات عن هذا الموضوع.

أما معلوماتنا عن الاقتصاد المصري في عصر الدولة القديمة فهي وإن كانت قليلة إلا أنها كافية لإعطاء صورة تكاد تكون واضحة. ويجدر بنا قبل كل شيء أن نوضح أن مصر القديمة طوال عصورها، الزاهرة والمضمحلة، ظلت ملتزمة بطرق الاقتصاد البدائية بمعنى أنها لم تعرف أي نوع من أنواع الاقتصاد الذي يقوم على تبادل العملة. وكانت المدفوعات التي تستحق على الأفراد للدولة مثل الضرائب، تؤدي بطريقة عينية.

وهناك نظام، يرجع بلا شك إلى أقدم العصور، ويهدف إلى القيام بتعداد كامل للماشية في البلاد في فترات متقاربة، وكان هذا التعداد يتم لتسهيل عملية جباية الضرائب، ووصل في أهميته حدًا جعل الناس في عصر الدولة القديمة يؤرخون أعوامهم بحسابها من عام تعداد الماشية. كما عثرنا في عصر الدولة القديمة على أنواع مختلفة من أحجار الموازين وقد مهر كل حجر بعدد الوحدات التي يُمثلها.

وأدى انتشار نظام تمليك الأراضي للأفراد وبخاصة في عصر الأسرة الخامسة التي اشتهر ملوكها بسياستهم التي هدفت إلى التقليل من المركزية المطلقة، إلى زيادة أهمية "الإقليم" وأخذ كل إقليم على مر السنين ينافس العاصمة "منف" فبدأ حكام الأقاليم مُنذ عصر الأسرة الخامسة لا يشعرون بضرورة بناء مقابرهم بالقرب من أهرام ملوكهم، وأخذوا بتشييدها في أقاليمهم التي أشرفوا على حكمها أثناء حياتهم الأولى.

لقد سبق لنا الحديث عن الأوقاف التي كان الملوك يهبونها للأفراد ليربطوا دخلها على المقابر. هذه الأراضي أصبحت خاضعة للتوريث وأخذت تنتقل عن طريق الزيجات إلى أسرات أخرى، ثم خضعت لعمليات البيع والشراء. وهكذا تكونت عند بعض الشخصيات البارزة إقطاعيات واسعة، وتمكن آخر الأمر بعض الحكام بالأقاليم من أن يجعلوا وظائفهم هذه خاضعة للوراثة وبخاصة في مصر العليا، كما يبدو ذلك واضحًا من نقوش بعض مقابر هؤلاء الحكام.

وهكذا أصبحت تلك الوظائف التي كان الملك يختار من يتقلدها، وقفًا على أفراد أسرة واحدة استقروا في إقليم بعينه وهيمنوا عليه، وأبقوا على علاقاتهم الحسنة بالعاصمة ما دام ملك البلاد الجالس فيها يستطيع أن يقبض بيد قوية على شئون البلاد، إلا أن كلًا منهم في حل من هذا الخضوع لنا اختلفت الظروف، وعلى كل حال فنحن الآن نتحدث عن عصر أخذت فيه بذرة الإقطاع تنمو وتزدهر، وهذا العصر بدأ في أواخر الدولة القديمة، ولا نشك في أن ظهور عوامل الإقطاع في مصر في هذا العصر هو السبب الرئيسي الذي أدى إلى اضمحلال هذه الدولة ومن ثم إلى سقوطها.

لعل أقدم مقابر لحكام الأقاليم الذين عاصروا الأسرة الخامسة هي التي عثرنا عليها في منطقة "طهنسا" في مصر الوسطى، وكان أسلوبها المعماري يقوم على نفس العناصر التي شرحناها بالنسبة إلى المساطب الضخمة المشيدة في جبانة العاصمة وحول أهرام الملوك.

ونظرًا لأن طبيعة وادي النيل في مناطق مصر العليا لم تسمح بمساحات واسعة تصلح لاستغلالها لإقامة جبانات، إذ أن التلال الموازية لهذا الوادي تمتد ملاصقة للأراضي الزراعية، لذلك نجد أن المصري أخذ يستغل هذه التلال لنقر مقابره في جوفها وما دامت الأراضي الصحراوية لا تسمح بتشييد مساطب على غرار ما أقامه المصريون في صحروات سقارة والجيزة، وهكذا ظهرت المقابر الصخرية ذات الحجرات الواسعة المنقورة في جوف الصخر. وكانت هذه المقابر مخصصة فقط لحكام الأقاليم ولأفراد أسراتهم، واستمر هؤلاء ينقرون مقابرهم طوال الفترة في أواخر الدولة القديمة حتى آخر الدولة الوسطى، ولم يبطلوا هذه العادة إلا في الفترة القصيرة التي وقعت مصر فيها فريسة للثورات، وعلى كل حال فنحن على استطاعة الآن أن نتتبع تطور نظام المقبرة الصخرية من عصر الأسرة الخامسة حين كانت تتكون فقط من صالة مستعرضة، إلى عصر الدولة الوسطى حيث أصبحت المقبرة تمتد في جوف الصخر وتتكون من أكثر من حجرة طولية.

وكانت جدران الحجرات تملأ برسوم مختلفة تمثل الحياة اليومية كما كانت عليه المحال في مساطب الدولة القديمة، وهذه الرسوم إما أنها كانت تنقش إذا سمحت مادة الحجر بذلك وإما أنها كانت ترسم بالألوان. وكانت هذه الرسوم أيضًا خالية تمامًا من العناصر الدينية الخاصة بالطقوس المختلفة واكتفت بتسجيل النشاط اليومي الذي كان يملأ حياة الفرد في ذلك العصر.

وكانت كلما قربت منطقة هذه المقابر من العاصمة منف ظهرت فيها بوضوح بعض التأثيرات الفنية التي كانت منتشرة في جبانة العاصمة. وما دمنا نفتقد تلك الصور التي تتحدث عن بعض الأحداث التاريخية. حتى في جبانة العاصمة، فإننا لا نعجب مطلقًا إذا كانت المقابر الصخرية المنتشرة في جبانات الأقاليم لم تحو إلا صورة واحدة من هذا النوع، وهي صورة تمثل اقتحام إحدى القلاع الموجودة في منطقة تقع عند الحدود المصرية الفلسطينية، وهناك صورة أخرى مماثلة لهذه عثر عليها مرسومة على جدران إحدى مقابر سقارة.

وكانت كلما بعدت أمكنة المقابر الصخرية في مصر العليا عن العاصمة اختلف فيها الأسلوب الخاص بفن الرسم الذي تحدثنا عن عناصره فيما يتعلق بمقابر جبانات العاصمة.

وينصب هذا الاختلاف على أن الخطوط الفنية للصور واللوحات تبدو في مقابر مصر العليا غير متزنة بحيث أننا نستطيع أن نحكم بأن المصري في هذه الأماكن النائية كان لا يعرف الأصول المتبعة في الفن التقليدي الذي تسير عليه العاصمة ولعل هذا الاتجاه جعل الفنان يصل إلى عناصر لها أهيمتها وطرافتها.

ويجدر بنا أن نوجه النظر إلى أن الاختلاف بين فن العاصمة في التصوير والنقش وبين الفن الذي وصل إلينا في نقوش ورسوم المقابر الصخرية بمصر العليا وهو ما نستطيع أن نسميه "فن الريف" قد أصبح موضوع دراسة واسعة لا تتسع صفحات هذا الكتاب للتنويه به أو حتى للتعليق المجمل عليه.

لقد وصلت إلينا بعض الحقائق التاريخية عن طريق تلك المجموعات الكبيرة من النقوش والكتابات التي سجلت فوق جدران المقابر الصخرية بمصر العليا فمثلًا نعتز كثيرًا بنص الوزير "أوني" الذي عاش في عصر الأسرة السادسة والذي ترك نصه هذا فوق جدران مقبرته المتهدمة التي لازالت بقاياها في جبانة أبيدوس والذي لم يتميز بوظيفة حاكم إقليم فحسب بل شغل وظيفة أخرى هي "المشرف على مصر العليا"، ومعنى ذلك أنه كان موظفًا حكوميًا يمثل الملك أو قل أنه كان مندوبًا للملك يدور شئون مصر العليا بأكملها. ويذكر في نصه سالف الذكر في جملة ما ذكر حملة حربية سارت إلى الساحل السوري الفلسطيني وضمن حديثه معلومات كثيرة ذات أهمية. ولو أنه للأسف استخدم أسلوبًا شعريًا حلاه بألفاظ رنانة وكان يهمنا أن يذكر الحقائق دون الزخرف من الألفاظ.

واختار كثير من أسر حكام الأقاليم في مصر العليا مواقع في التلال الصخرية حرصوا على أن تشرف على الوادي المتسع حيث يقع إقليمهم، وكانت مقابرهم هذه تنقر في الصخر الطبيعي على ارتفاع لا يعدو ثلاثة أرباع ارتفاع التل.

ولعل أهم المقابر التي تركها أمراء الأقاليم هي تلك التي نقرها أعضاء أسرة حكام الإقليم الأول من مصر العليا والذين اختاروا جزيرة الفنتين كمعقل لهم شيدوا فوقها عاصمتهم وكان التل الصخري الذي يطل على الوادي يقع على الشاطئ الغربي للنيل ويواجه مدينة أسوان الحالية وفي الواقع يستطيع المرء أن يتمتع بأجمل منظر طبيعي إذا ما وقف في هذه البقعة وأطل على الوادي من هذا الارتفاع الشاهق.

ولقد عاش هؤلاء الأمراء الذين نقروا مقابرهم في هذه المنطقة في عصر الأسرة السادسة واعتبروا بمثابة حماة الحدود المصرية الجنوبية في عصر الدولة القديمة. كما أنهم كانوا يتحكمون في طرق التجارة مع البلاد الواقعة إلى الجنوب منهم، والتي كانت تصدر إلى مصر سلعًا مهمة مثل العاج وجلد الفهد (الذي كان اللباس الرسمي لطبقة معينة من الكهنة المصريين) وذلك بناء على المعلومات القيمة التي نستقيها من نقوشهم والتي سجلوها على مقابرهم سالفة الذكر.

ولقد عثر على أوان مرمرية نقشت بأسماء ملوك الأسرة السادسة في هذه المنطقة الجنوبية وفي حدود وصلت إلى الشلال الثالث جنوبًا، ومعنى هذا أن المصريين توغلوا جنوبًا إلى مديرية دنقلة الحالية، هذا غير بعثة بحرية أرسلت إلى بلاد يونت الواقعة عند باب المندب في جنوبي البحر الأحمر؛ أي عند بلاد الصومال الحالية، والتي اهتم المصريون بها نظرًا لأنها كانت المورد الوحيد لمختلف أنواع البخور، ونحن نستقي معلوماتنا عن هذه البعثة البحرية مما سجل على حجر بالرمو الذي دون أهم الأحداث التي وقعت في مصر طوال عصور الأسرات من الأولى إلى الخامسة ومنها هذه البعثة التي أرسلها الملك "ساحورع" من الأسرة الخامسة.

جـ- الدين والفن

هناك ظاهرتان مهمتان تعتبران من أهم المظاهر الحضارية لمصر والتي وصلت إلى ذروة الازدهار في عصر الدولة القديمة أي أبان القرن الثلاثين قبل الميلاد. ويجدر بنا أن نذكر كلمة عن هاتين الظاهرتين قبل الانتهاء من الحديث عن تاريخ عصر الدولة القيمة.

وسبق لنا الحديث عن التقديس الذي كان فرعون مصر يحظى به كاله أثناء حياته الأولى على الأرض كما ذكرنا أنه كان يشيد لنفسه كاله فوق الأرض مقبرة ضخمة على هيئة هرم كبير.

ووصلت إلينا في بعض هذه الأهرامات وعلى وجه التخصيص في هرم آخر ملوك الأسرة الخامسة وفي أهرامات ملوك الأسرة السادسة نقوش كثيرة تعارفنا على تسميتها بمتون الأهرامات التي تتحدث عن معتقدات المصري القديم في آلهته وعن الطقوس المختلفة الخاصة بديانته، وهي تعتبر في نفس الوقت أقدم التسجيلات التي وصلت إلينا من هذا النوع ولازلنا نحاول التعرف على العصر الذي نشأت فيه هذه المتون وبده استعمالها ولكن محاولاتنا لم تصل إلا إلى تحديد هذه الفترة بين الأسرة الثالثة وبين أوائل الأسرة الخامسة كعصر تكون وتجمع هذه العناصر الدينية في شكل متن محبوك الأطراف، أو بعبارة أخرى نحدد نشأة هذه المتون في فترة الانبثاق والازدهار لحضارة الدولة القديمة.

ويخصص الجزء الأكبر من هذه المتون للحديث عن حياة الملك الميت ووضعها في عالم الدنيا السفلي. ويحاولون في هذه المتون إعطاء هذه الحياة صورًا هامة وممتعة ويؤكدون أن الملك المتوفى سيصبح إلهًا مرة أخرى وسيحيى مع أقرانه الآلهة في السماء.

وهكذا جاءت تلك الصورة الجغرافية التي تخيلها المصري لعالم الآلهة في السماء وهي صورة تتفق وطبيعة أرض مصر. وكان أهم ما يشغل بال المصري هو كيف يصل الملك المتوفى إلى السماء لكي يجتمع مع الآلهة الأخرى ليحيى معها الحياة الأبدية.

ويشغل نفسه بهذه المعضلة وأخذ في تفسيرها فتارة يتخيل الملك على هيئة أوزة كبيرة أو صقر يطير إلى السماء وتارة يتخيله يتسلق سلمًا نحو السماء.

هذه هي بعض الصور التي نعرضها لما ذكره المصري عن كيفية صعود الملك المتوفى إلى عالم الآلهة ثم بعد صعوده كان الملك يأخذ مكانًا في سفينة الشمس التي يعبر بها الإله السماء يومًا بعد يوم من الشرق إلى الغرب وغير ذلك. وهناك معضلة كبرى شغلت تفكير المصري وهي مصير سلطة الملك وسيطرته بعد موته – عندما يصبح واحدًا من بين الآلهة الكثيرة التي تعيش في السماء.

لقد وجد المصري حلًا لهذه المعضلة. عبر عنه في أحد متون الأهرام بأنه إذا ما وصل الملك إلى السماء فعليه أن يفترس كل المخلوقات الإلهية التي تقابله هناك ويتغذى بها وذلك لكي يضمن الفوز بقواهم السحرية كلها، هذا المتن الغريب في معناه لابد أنه كان يرمز أبان عصر الدولة القديمة المزدهر إلى ذكريات متوغلة في القدم ترجع إلى العصور الأولى من حياة الإنسان عندما كان منهم من يعتدي على الآخر ويتغذى بلحمه، ونحن على حق إذا اعتبرناه من أقدم المتون المتوارثة كما أنه لا شك يمثل اتجاهًا طبيعيًا لا زخرف فيه، هدفه تصوير تلك الأحداث البشعة والتي لا تتفق بأي شكل من مشاعرنا.

وهكذا تختلف متون الأهرام في ناحيتها هذه عن كل المتون الأخرى التي ظهرت عند المصري في عصوره اللاحقة والتي تتحدث عن حياة الميت باستمرار في الدنيا السفلى وعن خوف الناس من الأطياف المؤذية ومن الشياطين المختلفة التي تهيمن على ذلك العالم.

لقد سبق لنا أن ذكرنا على الصفحات السابقة وعند الحديث عن الأحداث التاريخية الخاصة بالأسرة الخامسة، أن معظم أسماء ملوك هذه الأسرة تنتهي باسم "رع" إله الشمس.

وفي هذه الأسماء بالذات تنكشف لنا بعض الاتجاهات الدينية الجديدة. ففي استطاعتنا أن نفرق بين طائفتين من الآلهة عند المصريين ظهرتا مُنذ أقدم العصور. أولاهما تتكون من مجموعة من الآلهة ذات أجسام بشرية على الأغلب وكانت رءوسهم تمثل باستمرار على هيئة رءوس الحيوانات وهذه عبدت في مصر العليا، وهي بذلك تتبع اتجاهًا حضاريًا يغلب عليه الطابع الإفريقي.

أما الطائفة الثانية فهي تتكون من مجموعة صغيرة من الآلهة ذات أجسام ورءوس بشرية وهي تمثل آلهة الطبيعة، ونعتقد أن البيئة التي نشأت فيها هي مناطق شرق الدلتا؛ أي في المنطقة التي كانت على اتصال مباشر مع بلدان الشرق الأدنى القديم. وفي هيليوبوليس وهي المدين التي تمت جغرافيًا إلى الدلتا، نشأت ديانة الشمس حاوية لمجموعة من الآلهة تتكون من الطائفتين سالفتي الذكر، وعلى رأسها رِع إله الشمس ومعه أتوم الإله المحلي لهليوبوليس بجسمه البشري الكامل، وتكون من الاثنين إله واحد هو "أتوم رِع" وفي ظل ديانة رِع الهيليوبوليتانية اضطر الملك أن يقنع ببنوته لرع، ومن هنا أتى اللقب الخامس من الألقاب الملكية الذي يسبق اسمه الشخصي.

ومع هذا التطور الذي اتجه إلى الإقلال من مركز الملك بحيث أصبح ابنًا لرع، نجد أن الصفة التي لازمت فرعون كإله قد تغيرت من "الإله العظيم" إلى "الإله الطيب".

ولعل الاسم الذي اشتق من الصفة، وهو "العظيم" كان يطلق أبان إحدى الفترات القديمة على أحد آلهة الكون في هيليوبوليس، وهو الإله الذي حاول الكثيرون وعلى رأسهم "يونكر" أن يصلوا إلى معناه وإلى كنهه ولكنهم لم يستطيعوا ذلك حتى الآن.

ولو أن من الجائز أن نتلمس فيه ذلك "العظيم" (في المصرية القديمة "ور") الذي يدل على معنى من معاني التوحيد القديمة التي وصل إليها المصري في أقدم عصوره.

عرف كهنة هيليوبوليس بالتعمق في ثقافتهم في جميع العصور، وأنشئوا هناك عقيدة تقوم على تقديس معبودات تسعة (وهم الذين نطلق عليهم اسم "التاسوعة الكبرى" لهيليوبوليس) وكان أهمها بحق هو الإله خالق النبات "أوزوريس" ولقد قامت أساطير مختلفة عديدة حول هذا الإله، لو أردنا التعرض لها على صفحات هذا الكتاب لخرجنا عن الإطار التاريخي الذي نلتزمه فيه، إلا أن من الواجب علينا هنا أن نلمس نقطة جديرة بالذكر، وهي أنه مُنذ ظهور ديانة "رع" في هيليوبوليس أحد الملوك في تشييد معبد له. وبخاصة ملوك الأسرة الخامسة الذين توصلنا إلى الكشف عن معابدهم في أبو صير، إلا أن هذه المعابد اختلفت في أسلوبها المعماري عن تلك المخصصة لعبادة الآلهة الأخرى والتي شيدت في عصور لاحقة، غير هذا فقد عبرت النصوص والمناظر المنقوشة فوق جدران معابد الشمس عن العناية والحنان الذي يبديه إله الشمس نحو جميع الآلهة الآخرين. وذلك بأسلوب فني ينبض بالحياة وتتدفق منه المشاعر والأحاسيس الجميلة.

وما دام الحديث قد وصل بنا إلى ذكر الأسلوب الفني الجميل الذي عبرت عنه نقوش معابد الشمس من الأسرة الخامسة، فيجدر بنا أن ننهي هذا

الباب بكلمة عن الفن المصري في عصر الدولة القديمة، وبخاصة إذا عرفنا أن هذه الناحية بالذات هي السبب الرئيسي الذي يدفع بالكثيرين منا إلى العناية بالحضارة المصرية بل وإلى دراستها.

ليس من شك في أن دراساتنا العميقة للآثار المصرية قد علمتنا كيف أن الفنان المصري في العصور الأولى من تاريخه قد اختار بعضًا من الإمكانيات الكثيرة التي وضعتها الطبيعية تحت بصره. وكون منها أسلوبًا فنيًا، معينًا يبرز به "الشكل" و"العنصر".

وتمكن مُنذ الأسرة الثالثة أن يرسي هذا الأسلوب الفني على قواعد ثابتة شملت كل نواحي فنه والتزمها طوال العصور حتى آخرها. هذه القواعد الثابتة التي يلتزمها في تنفيذ ناحية معينة من الفن قد شملت تمثيل الإنسان في الرسم والنحت كما شملت رسم الآنية أيضًا، وشملت – وهنا نعطي مثلًا لا يتعلق بناحية من نواحي الفن الحقيقي – طريقة رسم العلامات الهيروغليفية، مع العلم أن طريقة الكتابة الهيروغليفية كانت باستمرار من أهم أركان الفن في الحضارة الفرعونية.

وإذا كان المصري القديم لم يستخدم قواعد الرسم المنظور في رسومه وأضفى نوعًا من الجمود وعدم الحركة على تماثيله، فإن مرجع ذلك إلى بعض القيود التي فرضها المصري على فنه وجعلها أساسًا لتعبيراته، هذا الأسلوب بالذات لا نستطيع استساغته الآن لأننا بلا شك تأثرنا بالفن الإغريقي القديم الذي يقوم على قواعد فنية مختلفة تهدف إلى إظهار أعماق الصورة بطريقة الرسم المتطور.

وإذا كان الفن المصري تقيد بقاعدة "الخطوط المتوازية" وقاعدة "الأمامية البحتة" فإن هناك داخل هذا الإطار اتجاهات فنية مختلفة ميزت

الأسلوب الفني لعصر من العصور عن عصر آخر، وهذا ما حدث في الفن الإغريقي أو في فن أية أمة حديثة، فمثلًا نستطيع في يسر، أن نفرق بين الأسلوب الفني المنبع في نحت تمثال من عصر الأسرة الرابعة، وبين المنبع في تماثل من الأسرة السادسة.

ولقد تأثر الفن في مصر بالديانة تأثرًا واضحًا. فالمناظر المرسومة كانت تكسو جدران حجرات المقابر أو أبهاء المعابد، أما تماثيل الملك فكانت تقام في المعابد، بينما كانت تماثيل الأشخاص تودع الحجرات المغلقة الملحقة بالمقابر والتي اصطلحنا على تسميتها بالسرداب. ولذلك فنحن نحيد عن الهدف الأصلي بل ونرتكب خطأ كبير إذا ما وضعنا التماثيل المصرية في الحجرات الواسعة بالمتاحف، نسلط عليها الأنوار المتألقة ثم نحاول أن نشاهدها من جميع زواياها. ونطلب بعد هذا كله أن نرضي ميولنا الفنية وتفوز بإعجابنا.

ولم تلعب مطابقة ملامح التمثال لصاحبه أو حتى محاكاة هذه الملامح؛ أي دور في فن النحت عن المصريين القدماء. فالمثال المصري كان يهدف إلى تمثيل الشخص في هيئته المعبرة بحيث يسجل له هذه الهيئة على أحسن ما يستطيع مختارًا لها أبهى صورة في أحسن سن، واستطاع أن يبرز هذا كله من الناحية الفنية ببراعة كبيرة. وهكذا امتازت روائع فن النحت من عصر الدولة القديمة بدقة في الإخراج وبجمال يقف أمامه الزائر حاليًا مشدوهًا، مترنمًا بأن فن النحت أبان الدولة القديمة يعتبر بحق من أرقى فنون النحت التي وصلتنا من العصور القديمة، كما أن الفنان المصري فاق أقرانه بحساسيته الفنية وببراعته في الإخراج.

٣- عصر الاضمحلال الأول (من ٢١٩٠ إلى ٢٠٥٢ ق.م)

كان "ارمان" على حق حين قال: "وفي أواخر الأسرة السادسة خيم الظلام فجأة على مصر، وكان كارثة كبرى قد حلت بها". هذه الحقبة المظلمة التي تفصل بين عصري الدولة القديمة والدولة الوسطى أخذت ظلمتها تنقشع وتبدو لنا رويدًا رويدًا، ولو أن الكشوف الأثرية عنها لا تزال قليلة.

ولقد سبق لنا الحديث عن الأسرة الثامنة، وهي الأسرة التي تمثل النهاية التاريخية لعصر الدولة القديمة، وعن بدء ظهور نظام الإقطاع وأمراء الأقاليم في العصر الثاني من الدولة القديمة، كما سبق القول، والنقوش التي وصلتنا من عصر الملك بيبي الثاني، والذي حددت له ورقة تورين البردية مدة حكم زادت على التسعين سنة، تفضح لنا عن الضربة القاصمة التي أصابت السيادة الملكية في هذا العصر، بحيث لا نستطيع مطلقًا أن نتحدث الآن عن السلطة المقدسة لفرعون مصر التي تمتع بها ملوك الأسرة الرابعة، وكذلك ملوك النصف لأول من الأسرة الخامسة.

ونحن نعلم من النصوص التي وردت على جدران المقابر الكبرى المنقورة في الصخر في مصر العليا، أن أصحابها من حكم الأقاليم كانوا منهمكين في كفاح مرير يهدف كل منهم من ورائه إلى أن يقيم لنفسه أسرة ملكية ترتقي عرش البلاد بعد أن ينجح في ضم أكبر جزء من مصر تحت لوائه.

ونكاد نلتمس القرائن التي تدل على ظهور أسرتين في البلاد، إحداهما في قفط والأخرى في أبيدوس وكل منهما حاول أن يجمع كلمة الإقليمين ولكنهما لم ينجحا وما لبثا أن اختفت مجهوداتهما.

أما المصريون أنفسهم فلم يعترفوا في وثائقهم إلا بأمراء إقليم أهناسيا (هيراكليوبوليس) كخلفاء حقيقيين لفراعنة الدولة القديمة، وذكرتهم قوائم الملوك الرسمية على أنهم ملوك الأسرتين التاسعة والعاشر. وتقع عاصمتهم أهناس في أقصى الشمال من مصر العُليا وهي تقابل منطقة الفيوم. ونجح هؤلاء في الوقت نفسه في أن يسيطروا على العاصمة القديمة منف. وإذا كانت الكشوف الأثرية لم تظهر لنا حتى الآن مقبرة لأحد هؤلاء الملوك. إلا أن لدينا من المعلومات المستقاة من نصوص هذا العصر، ما يدلنا على أنهم قد اختاروا سقارة كجبانة لمقابرهم، كما أن القليل من الآثار الذي وصل إلينا من عهدهم يدل بوضوح على أن الاتجاه الفني السائد في مصر كان هو بعينه الاتجاه الذي من عهدهم يدل بوضوح على أن الاتجاه الفني السائد في مصر كان هو بعينه الاتجاه الذي سار عليه المصري في العصر الذهبي للدولة القديمة.

وإذا كان هذا العصر قد أحدث بعض التجديد في طرق الدفن، مثل تزويد أحد الجوانب الطويلة للتابوت الخشبي برسم العينين، أو إيداع حجرة الدفن نماذج صغيرة خشبية لسفن أو مخازن حبوب أو غير ذلك من الأشياء التي يحتاج إليها الميت في دنياه الثانية فإن هذا التجديد عثر على مثيل له في بعض المقابر التي ترجع إلى عصر الأسرة السادسة، كما أنه انتشر وأصبح من المظاهر التقليدية في عصر الدولة الوسطى.

وهذه المظاهر الأثرية بالذات هي التي دفعت بعضًا من الأثريين في القرن الماضي (مثل "ليسيوس" وأقرانه) إلى اعتبار الفترة من الأسرة الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة، مكملة لعصر الدولة القديمة.

ولم نفصل عصر الدولة الوسطى ونجعل منه عصرًا قائمًا بذاته إلا على أساس الدراسات الحديثة التي أثبتت أنه من العصور التي أظهرت حضارة مزدهرة لها طابعها الخاص، كما سيرد الحديث عنه على الصفحات القادمة، ولو أنه من الواضح تمامًا أن الفجوة الرئيسية التي اعترضت تطور الحضارة المصرية في تاريخها الطويل، حدثت أبان العصر الذي يفصل بين الدولتين الوسطى والحديثة، وهو العصر الذي نحدده فيما بين ٢٠٠٠ ق.م و١٥٠٠ ق.م.

كان "خيتي" (أطلق عليه الإغريق أختويس) هو المؤسس للأسرة التاسعة الأهناسية، وقد جعل من منف مقرًا لحكومته، ولم يستطع مد سيطرته على مصر العليا بأكملها، بل كاد نفوذه لا يتعدى منطقة أبيدوس، أما المناطق الواقعة إلى الجنوب منها، أي إقليم طيبة والأقاليم الأخرى حتى الشلال الأول فقد ناوأته، منضمة تحت لواء أمير إقليم طيبة، وهو الذي تمكن في آخر الأمر من أن ينجح في القضاء على أسرة أهناسيا وإقامة أسرة جديدة، هي الأسرة الحادية عشرة، التي تبدأ بها عصر الدولة الوسطى.

وعلينا الآن أن نواجه معضلة التاريخ الزمني للعصر الأهناسي، وتبدأ بمحاولة "إدوارد ماير" في ربط هذا العصر بالتحديد الزمني المؤكد لعصر الدولة الوسطى على أساس بعض الدراسات الحديثة، ويؤسفني أن أقول أن هذه المحاولة تعتبر الآن فاشلة، وذلك لأن فترات الحكم الخاصة بملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة، قد ضاعت وفقدت من الجزء الخاص بها من ورقة تورين البردية.

وعلى هذا الأساس نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتماد على نتائج الكشوف الأثرية وما تنطق به بعض النقوش التي وصلتنا من كلا الجانبين: الأهناس والطيبي على أن ندخل في الاعتبار ما كان بينهما من عداء وحقد. ونستطيع أن نقدر مدة قرنين لفترة حكم ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة، وذلك بناء على الكشوف الأثرية والدراسة التاريخية التي قام بها "وينلوك" على الآثار التي عثر عليها في المعبد الجنازي الخاص بالأسرة الحادية عشرة والقائم في جبانة طيبة على الشاطئ الغربي للنيل، وذلك أثناء التنقيب المتكرر الذي أجراه هناك لحساب متحف المتروبوليتان بنيويورك.

ويقدر "وينلوك" أن انهيار الأسرة الأهناسية حدث حوالي عام ٢٠٥٢ ق.م بعد انتصار الأسرة الطيبية التي قام من بينها ملوك الأسرة الحادية عشرة. ولكن ما مدى ارتباط الأسرة التاسعة بالأسرة العاشرة؟ هذا ما لا نستطيع تأكيده تاريخيًا حتى الآن.

نحن نعرف من بين ملوك الأسرة العاشرة الملك "خيتي الثالث" وابنه الذي خلفه كان الملك "مري كا – رع" الذي فاز بشهرة خاصة بعد العثور على الوثيقة التي تحوي التعاليم السياسية التي وجهها والده إليه، والتي سيأتي الحديث عنها بإسهاب على الصفحات التالية.

ونعتقد أن هذين الملكين يمتان بصلة تكاد تكون أكيدة إلى مدينة الأشمونيين (هرموبوليس) بمصر الوسطى وأن هذه الصلة تدفعنا إلى اعتبارهما من الأسرة العاشرة التي تنتمي إلى هذه المنطقة، وفي هذه الحالة نعتبر ملوك الأسرة التاسعة من أهناسيا. ومن الثابت طبعًا أن نجاح أمراء طيبة في القضاء على الأسرة العاشرة، تم مباشرة بعد حكم الملك "مري – كارع".

كانت الدلتا من المناطق التي خضعت تمامًا لسلطان ملوك الأسرة الأهناسية. إلا أن هناك بعض النصوص تشير إلى الخوف الذي أخذ يملأ قلوب الناس من تسرب بعض العناصر الآسيوية على هيئة هجرات بطيئة إلى مناطق الدلتا الشهيرة بخصبها وأن هذه الهجرات كنت جماعات كبيرة من البدو من الاستقرار هناك.

ويبدو أن هناك بعض الأدلة على أن هذه الهجرات بدأت مُنذ عصر الأسرة السادسة، وطبعًا لم تأخذ مطلقًا شكل حملات عسكرية أرسلتها إحدى القوى الفتية التي ظهرت في مناطق الشرق القديم في غرب آسيا، ولكن نستطيع أن نحكم بشكل واضح على أن في ذلك العصر قد حدثت بعض التطورات الخطيرة والتي كان لها نتائج عظيمة الأثر في منطقة الدلتا.

حقيقة يهدف البعض إلى أن يربط بين هذه التجمعات وبين بعض الأحداث الكبرى التي كانت تجري في منطقة آسيا القريبة في نفس الفترة، أي فيما بين ٢٣٠٠، ٢٢٠٠ ق.م. حين خرج الملك الأكدى "سرجون" ومن بعده "نارامسين" من بلاده محاولًا تشييد إمبراطورية متسعة الأرجاء وصلت في اتساعها إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط، إلا أن هذا الربط يقوم على أسس واهية، وبخاصة إذا أخذنا بنظرية وصول الملك الأكدى "نارامسين" نفسه إلى مصر وأنه دخل الدلتا واستولى عليها، فإننا في هذه الحالة نكون في الواقع مغالين كل المغالاة، ونكون قد أخذنا بنظرية تعوزها كل القرائن العلمية.

وإذا كان عصر الاضمحلال الأول لم يترك لنا شخصية واحدة من شخصيات التاريخ البارزة، فإن مرجعه ولا شك إلى القلاقل والاضطرابات التي هيمنت على حياة المصري في ذلك الوقت، إلا أنه يعتبر بالنسبة إلى الإنتاج الفكري المصري بمثابة أهم العصور وقد كانت له نتائج حاسمة، ظهرت آثارها بوضوح فيما وصل إلينا من نصوص تتحدث عن الأدب والدين في تلك الفترة، ونحن على حق إذا اعتبرنا هذا العصر من أهم العصور لازدهار الأدب المصري القديم، ولقد نجح "بونكر" في وصف التغييرات الحاسمة التي ظهرت في خلق المصري القديم والتي هزت عقائده الدينية هزًا عنيفًا، وذلك في كتابه عن المصريين الذي نشره في مجموعة.

"Junker, H.: "Die Volker des Antiken Orients

هناك ناحية أخرى تسترعي النظر وهي التغيير الذي حدث في الناحية الاجتماعية فنحن نلاحظ ابتداء من أواخر الأسرة السادسة أن نظام الطبقات في مصر أخذ يختلف اختلافًا ذكرته شكايات الحكيم "أيبو – ور" في كثير من التفصيل. وهو الكاهن الحكيم الذي أخذ يعرض على الملك كل ما يحدث من أمور وصلت بالبلاد في عهده إلى هوة التدهور والاضمحلال.

وإذا كانت هذه المخطوطة المحفوظة بمتحف ليدن قد كتبت في عصر الدولة الحديثة، إلا أن ما تضمنته من معلومات يدل على أنها ترجع إلى العصر الذي نحن بصدده، وأن الملك الذي تصفه الوثيقة بأنه بلغ من الكبر عتيا وأصبح كسولًا لا يقوى على الحركة، والذي وجه "أيبور – ور" حديث إليه، كما أكد "أرمان" مُنذ أول الأمر، هو الملك بيبي الثاني من ملوك الأسرة السادسة والذي سبق الحديث عنه، أنه جلس على العرش أكثر من تسعين

عامًا. وتتكون الشكايات من مجموعة منظومة. كل مجموعة منها تتميز ببداية معينة ترد في مطلع كل بيت ولنعط مثلًا أخذناه من ترجمة "ارمان":

هذا أمرنا: أن الحقراء أصبحوا يمتلكون النفائس

ومن كان لا يمتلك حذاء، أصبح يقتني كنوزًا

هذا أمرنا: أهل العزة فينا أصبت شكاياتهم تملأ الفضاء

أما الحقراء فهم في نعيم متصل

وقد أخذت كل مدينة تقول، فلنطرد الأقوياء من بيننا

هذا أمرنا: أصبح الناس يأكلون الأعشاب ويشربون الماء

وأصبحنا لا نجد الفواكه ولا يجد الطير عشبًا يقتات به

بل أخذ الناس يسرقون نافلة الطعام من أفواه الخنازير

ولا يستطيع أحد منهم أن يقول للآخر

هذا لك فخذه بدلًا مني

لأن الناس أصبحوا جميعًا جياعًا

هذا أمرنا: أن محصول القمح قد ضاع

وأصبح الناس لا يجدون لباسًا أو عطورًا أو زيوتًا

والكل يقول: لقد ذهب كل شيء

وأصبحت مخازن الحبوب خاوية

وحارسها ملقى على الأرض (أي أنه قتل)

هذا أمرنا: أن كل شيء رأيناه بالأمس

أصبح اليوم أثرًا بعد عين

لقد ترك الحبل على غاربه في بلادنا

وأصبحنا مثل عود الكتان بعد أن ينزع من الأرض

ليت الدنيا تصبح بلا ناس

وليت النساء لا يحملن ولا يلدن

وليت الأرض تصبح صامتة لا نسمع فيها صورة ولا تحث فيها مشاحنة

هذا أمرنا: لقد اختفى الضحك وأصبح الناس لا يعرفونه

وعم الحزن البلاد وأصبح الناس لا هم لهم إلا الشكوى.

وهكذا تسير الشكايات وهي تدور حول نقطة واحدة عبر عنها هذا الحكيم بقوله "أن الدنيا تدور كما لو كانت عجلة الفخراني"

ليس من شك في أننا هنا أمام دليل واضح يثبت بعد تلك النماذج القليلة من الشكايات سالفة الذكر، أن مصر قد وقعت فريسة لثورة اجتماعية جامحة في أواخر عصر الأسرة السادسة من الدولة القديمة.

ومن القرائن التي تثبت ذلك أيضًا أعمال التخريب والتهشيم التي وقعت للمقابر في ذلك العصر، فمثلًا عثر "يونكر" أثناء تنقيبه في جبانة الجيزة على مساطب لمصريين عاشوا في أواخر الدولة القديمة وانتموا إلى الطبقات الفقيرة من الشعب، إلا أنهم استعانوا في تشييد مساطبهم هذه بأحجار

سرقوها من مساطب لغيرهم عاشوا في عصور تسبقهم. بل أكثر من هذا نعتقد أن أعمال التخريب التي وقعت على المعابد الكبرى مثل المعبد الجنازي للملك خفرع (من الأسرة الرابعة) قد حدثت في ذلك الوقت بالذات، ونحن نرى آثار هذه الحركة ظاهرة في تماثيل الملك التي هشمت إلى آلاف من القطع الصغيرة.

هذا الاتجاه في تخريب كل ما تعلق به المصري من المثل العليا، كان له أعمق الأثر في الأخلاق والفكر عامة وأدى بلا شك إلى تغيير شامل في العقائد المصرية. ولقد سبق لنا الحديث عن عقيدة المصري في قدسية ملكه وما أصابها من تدهور كبير، ومن الغريب أننا نجد الآن أن الرموز الملكية التي كانت بمثابة الأدوات التي تثبت سلطته المستمدة من الآلهة والتي تشير إلى قدسيته، أخذ يستخدمها الفرد العادي. إذ بدأ الناس مُنذ عصر الاضمحلال الأول، يرسمون تلك الرموز الملكية مثل التيجان والصولجانات والعصي على سطوح توابيت الأفراد في صفوف ممتدة، وهدفهم في ذلك أن ينتفعوا هم أيضًا من القوة السحرية الخاصة بهذه الأشياء، بل نجد أن هذه الرموز الملكية ذات القدسية الكبيرة، قد أصبحت تصنع على هيئة تمائم صغيرة تباع للناس بأبخس الأثمان وذلك في العصور المتأخرة حين أخذت ديانة المصريين تفقد أصولها الأولى أي حوالي القرن العاشر قبل الميلاد.

وهكذا نجد ذلك التغيير الشامل في العقائد المصرية: وقد كان اتصال الناس بآلهتهم في السماء من قبل لا يحدث إلا عن طريق الملك وحده الذي يمثل بمفرده كل الشعب المصري، فأصبح كل إنسان مسئولًا عن نفسه في اتصاله بالآلهة. هذا الشعور بمسئولية الفرد أمام الإله كان له أثر عميق في الديانة المصرية.

وإني أذكر هنا جزءًا هامًا من التعاليم الموجهة إلى الملك مرى كارع، التي سبق ذكرها، وهي تعتبر أقدم مثل يضرب لتفسير هذا الاتجاه الذي يحض الفرد على أن يأتي من الأعمال في حياته الأولى ما يستطيع أن يقدم الحساب عنه أمام المحكمة الإلهية، وهذا النص يجري على الوجه الآتي: "القضاة الذين سيحكمون على أولئك الذين كثرت سيئاتهم، أعلم تمامًا أنهم لن يكونوا رحماء في ذلك اليوم الذي يستقدم فيه الشريرون للقضاء، وفي الساعة التي سيقومون فيها بمهام منصبهم والويل للمتهم إذا كان على علم، ولا تطمئن إلى السنوات الطويلة، فإنهم يرون الحياة كلها كما لو كانت ساعة واحدة.

أن الإنسان سيبقى بمفرده بعد الموت، وستتراكم أعماله بجانبه. أن الحياة هناك (أي في الدنيا الثانية) ستدوم إلى الأبد، وغافل هذا الذي يشكو منها، أما من يتقدم إليهم وقد خلا من السيئات فسوف يكون هناك إله يتجول مثل سادة الأبدية".

لقد تمكنا من إعطاء القارئ نموذجين من نماذج الأدب الراقي في عصره المزدهر تحت حكم الملوك الأهناسيين، الذين للأسف لم يخلفوا لنا تمثالًا واحدًا نستطيع منه أن نحكم على هيئتهم وملامحهم، إلا أنهم بلا شك كانوا يتمتعون بقسط وافر من الثقافة لم يتوفر لأعدائهم العتاة الذين سكنوا إقليم طيبة فظهروا بمظهر ينم على جهلهم وعدم عنايتهم بالفنون، أو كان هذا حالهم على الأقل في الفترة الأولى من عصرهم.

وغير هذا توجد وثيقة كتبت على ورقة بردية محفوظة في متحف "موسكو" وتحوي نصًا للتعاليم الموجهة إلى الملك "مري – كا – رع" كتبت على النحو الذي انتشر في عصر الدولة القديمة أي أنها صبغت على أساس صدورهما من موظف كبير عركته الأيام. لابنه الشاب – هذه الصيغة تختلف عن الصيغة التي قدمنا منها بعض الشذرات، إلا أنها في نفس الوقت تزيد عليها في معانيها العميقة وفي تغليب الجانب الإنساني فيها.

ونحن نرجع "شكايات الفلاح الفصيح" إلى نفس العصر ونعتقد أنها قدمت إلى أحد ملوك الأسرة العاشرة، وتمتاز هذه الوثيقة بأن صاحبها اعتمد اعتمادًا كبيرًا على العناية بالبلاغة، ولو أنها تدور في نفس الوقت حول نقطة واحدة هي البحث المستمر عن قاض عادل، وهذا أمر يتفق تمامًا مع مظاهر الاضمحلال والثورة السائدة في مصر في ذلك الحين.

وتروي هذه الوثيقة قصة فلاح سرق منه حماران محملان ببعض السلع، فالتجأ إلى موظف تسع شكايات، طالبًا بعد كل شكوي قاضيًا عادلًا، متسائلًا عن العدالة وأين يجدها؟

ولعل أهم جزء من هذا التراث الأدبي العظيم هو النص الذي ورد على بردية محفوظة في متحف برلين وهو "حوار بين زاهد في الحياة وبين روحه"، ونحن نرجع هذه الوثيقة إلى العصر الأهناسي مع أنه لم يرد فيها اسم لأي ملك من ملوك هذه الفترة، ولكنها تتفق في أسلوبها ومضمونها مع هذا العصر. وهي لا تعتمد على أي سد تاريخي كالوثيقة الخاصة بالتعاليم الموجهة إلى الملك "مدى – كا – رع" إلا أنها تختص بناحية نفسية تتمثل في كفاح مرير تعبر عنه "روح" أحد الناس شاكية أحوال الدنيا وما وصلت إليه من اضمحلال.

ولقد دبج هذا على شكل محاورة بين رجل وروحه وكان الرجل يمثل تلك الطائفة من الشعب التي لا زالت تتمسك بالقديم وتهدف إلى الفضيلة والتقوى، بينما "الروح" كانت تمثل الاتجاهات الجديدة تعبر عنها بأسلوب يغلب عليه النقد اللاذع والتهكم وخاصة عند معالجة المسائل الدينية، وهذا أمر تعجب له أشد العجب.

وعلى كل حال نجد أنفسنا ولأول مرة أمام وثيقة تتحدث عن الخطيئة والذنوب وعن الغفران عنها وعن الهيئة القضائية المكونة من الآلهة والدور الذي تلعبه في الحياة الثانية وتتحدث كذلك عن فناء كل ما هو أرضي والآمال المعقودة على أبدية الدنيا الثابتة. ونحن نجد هنا من عقد العزم على أن يفارق الحياة بمحض إرادته، معارضًا في ذلك رغبة "روحه" التي تلح في الدفاع عن مباهج الحياة الأرضية وملذاتها، ويحاول في مقطوعات أربع أن يقنع "روحه" وينجح في ذلك بعد أن سرد في المقطوعة الثانية ما آلت إليه الأحوال من سوء (كما فعل "أيبو ور" في شكاياته) ثم بعد أن أخذ يصف في المقطوعة الثالثة التي تتميز بشعر جميل روعة الموت ومزاياه نراه يقول: "أن الموت يقف اليوم أمام عيني وأرنو إليه ما يرنو المريض إلى شفائه أو كما يسعد الأسير بحريته".

أن الموت يقف اليوم أمام عيني مثله كمثل المطر وقد توقف هطوله. ومثله كمثل الرجل المحارب وقد عاد إلى بيته أن الموت يقف اليوم أمام عيني.

وله عبيق المر، بل هو كالمظلة يحتمي بها الرجل في يوم عاصفة أن الموت يقف اليوم أمام عيني.

وأرنو إليه كما يرنو الرجل في الرجوع إلى بيته بعد أن ظل مسجونًا مدة طويلة.

أما رأي "الروح" فهو يختلف تمامًا عن هذا، فهي تؤكد ألا أمل في حياة ما بعد الموت ولذلك تنصح الناس أن يقبلوا على نعيم الدنيا ويرتشفوا من ملذاتها فتراها تقول: "دع الهموم جانبًا وأسعد نفسك تمامًا"

هذا الاتجاه الذي يطلب إلى الناس أن يسعدوا بحياتهم الدنيوية قام على أساس فكرة واحدة؟ وهي أننا لا نستطيع أن نعلم ماذا يحدث بعد الموت، ويبدو أن هذا الاتجاه ملأ على المصري تفكيره في ذلك العصر، إذ كثيرًا ما عبرت عنه الأغاني القصيرة التي اعتاد المنشدون إيقاعها على القيثارة في المناسبات الجنازية.

وأقدم هذه الأغاني ترجع إلى نفس العصر الذي ندرسه الآن، أي أنها عصر الأسرة الحادية عشرة، وهذه فقرات منها أخذناها عن ترجمة "ارمان":

"أن الآلهة (أي الموتى من الملوك) الذين كانوا على قيد الحياة، يرقدون اليوم في أهراماتهم، وكذلك النبلاء والمرموق إليهم من الناس تضمهم مقابرهم، لقد شيدوا المنازل، ولكنها أصبحت أثرًا بعد عين. ما الذي أصابها؟ لقد تهدمت جدرانها واندثرت معلمها، وأصبحت كأنها لم تكن من قبل.

لم يأت أحد من هناك (دنيا الموت) حتى يحدثنا عن أحوالهم أو يقول لنا ماذا يستخدمون فتهدأ قلوبنا، حتى نصل إليهم في المكان الذي ذهبوا إليه، فكن مرحًا ودع القلب ينسى أنك ستموت يومًا.

واستجب لرغباتك ما دمت حيًا، وضع الطيب (المر) فوق رأسك، وتدثر بأفخر الكتاب وتطيب بالعطور النادرة التي تتخذها الآلهة، أكثر مما تطيب له نفسك، ولا تدع قلبك يصبح خاملًا، استجب لرغباتك، وقدم لنفسك ما تحبه، وأقدم على عمل كل ما تحتاج إليه فوق الأرض ولا تعذب قلبك حتى يأتي ذلك اليوم الذي تصبح فيه (الندابات). حقًا أن "صاحب القلب الذي لا ينبض (أي أوزوريس) لا يستمع إلى صراخهم، كما أن الرثاء لم يخلص أحدًا من الدنيا السفلى"

ولعل من أهم المظاهر الدينية التي تميزت بها فترة الاضمحلال الأولى ثم انتشرت وعمت مصر في العصور التالية كان تغلغل عقيدة أوزوريس في البلاد، وهي العقيدة التي نشأت في الشمال الشرقي من الدلتا حيث بوزيريس أقدم المدن التي عبد فيها أوزوريس إلهًا للأنبات.

ويُمكننا أن نتتبع انتشار عبادة هذا الإله بالتدريج أبان عصر الدولة القديمة في كل من هيليوبوليس ومنف ولكن لا نلبث أن نرى هذا الإله يستقر في عاصمته الكبرى في مصر العليا، أي في أبيدوس وذلك ابتداء من أواخر الدولة القديمة، حيث اتحد مع الإله الأصلي لهذه المنطقة والذي كان يهيمن على عالم الموتى، ومن هنا أصبح أوزوريس ربًا للموتى ثم قاضيًا في الدنيا السفلى وهو الذي يقوم من بين أعضاء محكمة الموتى بالنطق بالحكم.

ولصقت هذه الصورة بأوزوريس وأصبحت هي العالية عليه فيما بعد أي في عصر الدولة الحديثة، وحدث هذا بعد تطور طويل الأمد كما رأيناه.

لقد سبق لنا الحديث عن الهزة العنيفة التي أصابت الناس في أواخر الدولة القديمة كنتيجة لضعف السلطة الملكية واضمحلالها، وأن هذه الهزة

جعلتهم يفيقون إلى أنفسهم ولا يكترثون مطلقًا بالعقيدة التي حتمت على أن يكون الملك الإله هو الوسيط الوحيد بين الآلهة والناس، وكانت النتيجة أن أصبح من حق كل فرد عادي أن يحصل على تلك القرابين التي كان الملوك يهبونها للناس عن طريق الطقوس السحرية.

نرى هذا بوضوح في النصوص التي تعتبرها مشتقة من المتون الخاصة بالملوك (أي متون الأهرام) ثم أصبحت في هذا العصر وبعد التعديلات التي أدخلت عليها تنقش فوق الجدران الداخلية للتوابيت الخشبية، ونطلق عليها اسم "نصوص التوابيت".

إلا أن هذه النصوص لم تجعل مصير الفرد العادي من الشعب أن يصعد إلى السماء كما كان الحال مع الملوك في عصر الدولة القديمة، بل جعلت هذا المصير هو الإقامة بعد الموت في الدنيا السفلى، في العالم الذي يحكمه إله الموتى وقاضيهم أوزوريس.

ومما يؤسف له أن تلك الفكرة الناضجة المتطورة الخاصة بعقيدة المصريين في عالم ما بعد الموت والتي أثارت إعجابنا بالإنتاج الأدبي في العصر الأهناسي، لم تتطور في عصر الدولة الوسطى ولا في عصر الدولة الحديثة.

وكان من المتوقع أن تزدهر هذه الفكرة وتكمل ولكن لم نعثر على ما يجعلنا نتتبع هذا التطور وكنا نتوقع أيضًا أن تصبح عقيدة أزوريس ومحكمة الموتى التي تكون أهم أركانها، ذات أثر فعال على الناس في مصر، ولكن هذا لم يحدث.

والسبب في ذلك أن أوزوريس لم يكن الإله البعيد عن الناس والذي يرنو إليه كل فرد كمثل أعلى، يرجع ذلك إلى أن الناس أخذوا بفكرة تطبيق صفات أوزوريس على كل فرد منهم.

وهكذا أخذت الفوارق بين البشر والآلهة تزول، واختفت معها الأهداف التي كان الناس يتطلعون إليها وهي التقرب إلى الآلهة عن طريق التقوى والصلاح وحل محل هذا كله الشعور القوي بأن كل فرد أصبح في مقدوره أن يكون هو نفسه الإله.

هذه المقارنة جلبت معها مظهرًا جديدًا كان له أكبر الأثر في حياة المصري. نقول أساطير الآلهة أن أوزوريس المحب للخير قتله أخوه الشرير "ست"، وحين أعيدت إليه الحياة وتقدم إلى مجمع الآلهة، أخذت الاتهامات تنهال عليه ولكن محكمة الآلهة اقتنعت ببراءته الكاملة وأصبح "صوته" بالنسبة إليهم هو "الحق" ومن أجل ذلك نصبوه سيدًا وقاضيًا على دنيا الموتى.

ومُنذ ذلك الوقت أصبح التعبير "صوته هو الحق" ينعت به كل إنسان ويعني أن "فلان" بريء من كل خطيئة كالإله أوزوريس. يترجم "بالمرحوم" إذ أن المصري لم يقصد به في آخر الأمر سوى أن ذلك الإنسان قد توفى.

وأعود فأكرر أن تلك الأحاسيس العميقة والناضجة التي وضحت لنا في الإنتاج الأدبي أبان العصر الأهناسي، قد قضى عليها وانهارت أمام الجمود الذي طغى على عقيدة المصريين كنتيجة لانتشار العقيدة الأوزيرية، وهو أمر نأسف له كل الأسف.

وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى ديانة هيليوبوليس التي جعلت عقيدة "رع" أبان عصر الأسرة الخامسة تهيمن على سواها من العقائد، كما أخذت تزداد انتشارًا في العصر الأهناسي، إلا أنها ارتطمت بصخرة العقيدة الأوزيرية بعد ذلك وأخذت تضمحل، ونلاحظ انتشار أسماء الآلهة التي تحوي اسم "رع" مثل الإله "ختوم – رع" والإله "سوبك – رع" والإله "آمون – رع" الذي ذاع صيته في العصور اللاحقة، ولكن الانتشار لا يعني شيئًا كثيرًا بل أننا لا نستطيع مطلقًا أن نتبين أي أثر لوجود لون من التوحيد الإلهي للإله رع في ذلك العصر على الأقل.

وإذا كنا قد بينا أهمية التطور الفكري الذي حدث في أواخر الدولة القديمة أي في عصر الاضمحلال الأول، وذلك بناء على ما وصل إلينا من وثائق تخص الناحيتين الأدبية والدينية، فإننا نستطيع أن نقرر أن الفنون كانت قد اضمحلت تمامًا ولا غرابة في ذلك إذ أن القلاقل والاضطرابات كانت قد بلغت حدًا لا يساعد على ازدهارها، بل أن النقوش المحفورة على اللوحات الحجرية المقامة في المقابر والقطع الأثرية الأخرى التي عثر عليها فيها بلغت حدًا من الاضمحلال الفني يندر أن نجد مثيلًا له في أي عصر آخر.

ومن بين القطع الأثرية التي بدأت تظهر في هذا العصر والتي لها أهمية تاريخية خاصة كانت "الأختام" التي اعتاد الناس استعمالها في مصر مُنذ أواخر فجر التاريخ وطوال الدولة القديمة، حالهم في ذلك حال أهل بلاد ما بين النهرين، وهي عبارة عن اسطوانة صغيرة على سطحها الخارجي نقوش بارزة يمرون بها على سطح مستو من الطمي رطب فتنطبع عليه تلك النقوش.

وليس من شك في أن هذه الطريقة في ختم الأشياء كانت مقبولة في بلد كالعراق القديم والتي لم تسمح بيئته إلا بالطمي الرطب كمادة للكتابة عليه.

ولا غرابة مُطلقًا إذا عرفنا أن هذه الأختام الأسطوانية قد اخترعت هناك وليس في مصر حيث استعمل الناس أوراق البردي للكتابة فلم يكن هناك ما يدعو إلى استعمال لوحات الطمي في هذا الغرض، ومن أجل هذا اختفت الأختام الاسطوانية من مصر وحل محلها نوع من الأختام أكثر نفعًا وهو المستدير الشكل، ومن ثم اتخذ المصري شكل الجعل واستخدمه في هذا الغرض، وهو الذي عرف باسم "الجعران" وأصبح فيما بعد الشكل الوحيد المنتشر بين المصريين.

ولعل أقدم الأختام التي على هيئة الجعل ظهرت في مصر في عصر الأسرة السادسة، أي في أواخر الدولة القديمة ثم أخذت طريقها في الانتشار رويدًا رويدًا حتى عمت كل المناطق الواقعة في دائرة نفوذ الحضارة المصرية. ونوع آخر من الأختام المستديرة الشكل تميز بوجود علامات رمزية منقوشة على سطحها بطريقة غريبة تبعدها عن الطابع المصري.

وهذا النوع ظهر في عصر الاضمحلال إلا أنه اختفى بانتهائه. ولقد اختلفت الآراء في مصدر هذه العلامات الرمزية غير المصرية الطابع، فالبعض يرجعها إلى تأثير أجنبي أتى من المناطق الواقعة على الشاطئ السوري أو شاطئ آسيا الصغرى، والبعض الآخر يرجعها إلى تأثير كريتي.

أما مراحل الكفاح بين أسرتي أهناسيا وطيبة فالأولى تمثل في التاريخ المصري الأسرتين التاسعة والعاشرة.

والثانية تمثل أواخر الأسرة الحادية عشرة، ونحن نؤرخ لها من النصوص التي تركها لنا حكام إقليمي أسيوط والبرشة في مصر الوسطى على جدران مقابرهم، وهؤلاء الحكام كانوا منطوين تحت لواء الأسرة الأهناسية، كما نؤرخ لها من النصوص التي وردت على اللوحات الجنازية التي عثر عليها في جبانة طيبة.

ولعل الطابع الحربي الذي هيمن على هذا العصر يبدو واضحًا من النقش الذي سجله أحد أمراء إقليم أسيوط على جدران مقبرته ممثلًا فيه فرقه كاملة من الجند تسلحت تسليحًا كاملًا، ولم يكشف بهذا بل زود مقبرته بنموذج كامل لفرقة من الجند صنعت تماثيل أفرادها من الخشب.

وبهذا نترك الدولة القديمة بحديثنا الموجز عن العصر الأهناسي الذي يمثل آخر عصور هذه الفترة ثم نتجه بحديثنا إلى الذين ظهروا في طيبة مكونين الأسرة الحادية عشرة ونعتبرهم أول ملوك الدولة الوسطى.

الفصل الرابع

الدولة الوسطى

(من عام ٢٠٥٢ إلى ١٦١٠ ق.م)

١ - انتصار طيبة وتأسيس الأسرة الحادية عشرة (من ٢٠٥٢ إلى ١٩٩١ ق.م)

بعد أن انتهت فترة القلاقل والاضطرابات التي مرت فيها مصر مُنذ أواخر الدولة القديمة وهي الفترة التي تحدثنا عنها فوق الصفحات السابقة، أخذت البلاد تستعيد قوتها وتسارع الخطى نحو الوحدة الكاملة وكان ذلك على أيدي رجال من طيبه، عاصمة الإقليم الرابع من مصر العليا، ومن ذلك الوقت أخذت هذه المدينة مكانها على صفحات التاريخ وسلطت عليها الأضواء.

ويتكون رمز هذا الإقليم من صولجان تتحلى قمته بريشة تتدلى منها بعض الأشرطة، واستعمل هذا الرمز أيضًا للتدليل على عاصمة الإقليم ونطقه المصريون "ويزى"، وإذا كنا اليوم نطلق على هذه المدينة اسم "طيبة"، فان ذلك يرجع إلى طريقة الإغريق في عصورهم المتأخرة من إطلاق أسماء إغريقية المناطق مشهورة لديهم على مناطق أخرى أجنبية لا يستطيعون نطق أسمائها، ولعل الذي دفعهم إلى اختيار هذا الاسم للمدينة بأكملها وجود قرية صغيرة على مقربة منها تحمل هذا الاسم في العصور المتأخرة، ومن الغريب أن الإغريق لم يستعملوا في لغتهم الأسهم الحقيقي لهذه العاصمة وهو "ويزى".

هذه العاصمة تقع على شاطئ النيل وقد فازت بنصيب كبير في ملحمة "هومير" وأطلق عليها اسم "طيبة ذات المائة بوابة" وكان ذلك حوالي عام ٢٠٠٠ق.م، أقول أن هذه العاصمة لم تكن في عصر الدولة القديمة سوى أرض زراعية عادية تكتنفها الصحراء حالها كحال الشريط الطويل الممتد من الأراضي الزراعية في مصر العليا وتتناثر فيها بعض القرى التي لا تتميز بأية أهمية.

وكان معبود هذا الإقليم الرئيسي هو "منثو" إله الحروب وهو ذو رأس على هيئة رأس الباشق وكانت، عبادته تتركز في مدينة "هيرمونتيس" العاصمة القديمة لهذا الإقليم والتي يعني اسمها "هيليوبوليس منتو" وهي التي نطلق عليها الآن اسم "أرمنت" والواقعة على مسافة ٢٠ كيلو مترًا إلى الجنوب من مدينة الأقصر الحالية.

ولعل أقدم الآثار التي وصلت ألينا من طيبة هي تلك المقابر القليلة المحفورة في الصخر الذي تتكون منه التلال العالية المُمتدة إلى الغرب من شاطئ النيل، ولقد جرى نقر هذه المقابر على نفس الطراز الذي تميزت به مقابر الدولة القديمة في فتراتها المتأخرة أما نقوشها فهي بسيطة لا تدل على فن متقدم.

وتخص إحدى هذه المقابر السرير من أمراء هذا الإقليم، وهي في طرازها وأسلوبها الفني ترجع إلى آخر الأسرة السادسة بل لعلها ترجع إلى عصر الاضمحلال الأول نفسه، وغير هذا فهنالك نصوص عديدة خلفها أصحابها الذين ينتمون إلى أسرة واحدة حكمت هذا الإقليم وتسموا جميعًا باسم "أنتف" ثم أضافوا إلى هذا الاسم اسمًا آخر من الأسماء الحوريسية،

تمامًا كما كان يفعل الملوك في أول العصور التاريخية، ولا شك أنهم أرادوا أن يظهروا أنفسهم ملوكًا يسيطرون على البلاد، وأن كلا منهم هو خليفة "حوريس" ويجلس على عرش البلاد.

وأن دلت هذه الظاهرة على شيء فهي تدل على الطموح الذي كان يساور نفوس أفراد هذه الأسرة، كما تدل أيضًا على مدى ضعف سلطان الملوك الذين كانوا حتى ذلك الوقت يحكمون البلاد في "منف"، ولو أننا في نفس الوقت لا نستطيع أن نجزم بوجود ثورة جامحة قام بها الجنوبيون ضد الشماليين أو وقوع حرب أهلية بينهما أهلكت الحرث والنسل، وليس من شك في أن هؤلاء كانوا يحاولون بسط سيطرتهم على مصر بأجمعها، ومن الأدلة على ذلك أننا عثرنا أخيرًا على الاسم الحوريسي لأحد أفراد هذه الأسرة وترجمته: "هو الذي أسبغ السعادة على الأرضيين" (وهو يقصد بالأرضيين هنا مصر بأجمعها).

ظلت أسماء أمراء هذه الأسرة الطيبية التي حكمت المقاطعة ثم من بعدهم أولئك الذين حكموا مصر كملوك للأسرة الحادية عشرة، ظلت تكون مشكلة تاريخية نظرًا لعدم استطاعتنا ترتيبها ترتيبًا تاريخيًا وذلك لقلة ما عثرنا عليه من نصوص ترجع إلى عصرهم إلا أن الحفائر التي قام بها في الفترة الأخيرة متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك برئاسة "وينلوك" كشفت لنا عن الكثير مما جعل هذا العصر يصبح من العصور الواضحة المعالم.

ولقد نشر "وينلوك" كتابه الجامع عن الدولة الوسطى نشأتها وسقوطها، وهو الكتاب الذي اعتمدت عليه كثيرًا فيما يلي من حديث عن هذا العصر وخاصة في التاريخ لهذه الدولة.

ولعل من المظاهر التي تنم عن طموح أمراء أسرة إلا نائفة الطيبية إلى فرض سلطانهم على مصر بأجمعها كانت الطريقة التي اتبعوها في إقامة مقابرهم، هذا غير ما بيناه من اتخاذ كل فرد منهم لقبا حوريسيا. فقد اختلفت مقابرهم اختلافًا كليًا عن مقابر زملائهم من أمراء الأقاليم الأخرى التي اعتادوا نقرها في الصخر.

إذ حفروا مقابرهم في الأرض الجدبة المملوءة بالحصى والواقية إلى الشرق من التلال الصخرية التي تمتد غربي النيل في طيبة، وتميزت المقبرة بصالة عرضية، جانبها الشرقي المطل على الفناء الخارجي يتكون من فتحات متعددة، هي في الواقع بمثابة مداخل، ولو أنها تشبه في شكلها العام المنافذ، ولعل طرازها هذا هو الذي دفع أهل هذه المنطقة اليوم إلى تسميتها "الصف" ومن الواضح أن هذا النوع من المقابر يعتبر في طرازه تجديدًا قام به أهل طيبة، إذ لم تعثر على مثيل له في أية جبانة من جبانات الدولة القديمة حين كانت العاصمة هي "منف".

ونظرًا لأن أمراء هذه الأسرة قد تسموا جميعًا باسم "أنتف" أو "منتو حوتب" (الإله منتو راض) ولكي نتجنب الخلط بين الأسماء المتشابهة، رأينا أن نستعمل الاسم الحوريسي لكل منهم. ونحن نعرف عن أحدهم الذي تذكره المراجع "أنتف الرابع" والذي اسمه الحوريسي هو "واح – عنخ"، أنه بدأ الكفاح ضد الإهناسيين وبعد أن نجح في السيطرة على الإقليم الثامن استمر في تحركه نحو الشمال حتى وصل إلى الإقليم العاشر. وهناك أهمية كبرى لسيطرته على الإقليم الثامن من الناحية التاريخية

ومن الناحية الدينية إذ تقع فيه المدينة الغارقة في الفم أي "ثينه" كما نقع فيه أبيدوس التي أصبحت المركز الأول لعبادة أزوريس. ويعتقد "ويشلوك، أن مادة حكم "واح عنخ" التي استمرت خمسين عامًا. كما تذكر بعض النصوص – قد بدأت عام ٢١٣٠ وانتهت عام ٢٠٨١ق.م.

ويجدر بنا أن نؤكد أن حكام الأسرة الإهناسية لم يجعلوا الطريق أمام منافسيهم – وهم حكام طيبة الطموحون – مفروشًا بالزهور، إذ أذاقوهم الأمرين قبل أن يصلوا إلى السيطرة على مصر المتحدة. ونحن نعرف من النص المعروف باسم التعاليم الموجهة إلى الملك "مرى – كار – رِع" أن مؤلفه وهو الملك "خيتي الثالث" أحد ملوك الأسرة الأهناسية (حوالي ٢٠٦٥ق.م) قد استعاد السيطرة على إقليم "ثينة" وتمكن من الاحتفاظ به لأعوام.

ولعل هذا هو السبب الذي جعل هذه التعاليم تذكر الأحوال السياسية في مصر العليا على أنها هادئة ولم تصبغها بصبغة الخطورة. وفي الواقع جانب الصواب مؤلف هذه التعاليم، إذ أن الهجوم الساحق الذي شنه الطيبيون ضد الدولة الإهناسية وقع في فترة لا تتعدى بضع سنوات، وكان أشد هجوم عليهم بدليل أن دولتهم قد دالت تمامًا وكان ذلك على يد "منتو حوتب" حوالي عام ٢٠٥٢ق.م حسب تاريخ "وينلوك".

وعلى كل حال يحق لنا أن نعتبر قيام الأسرة الحادية عشرة الطيبية مُنذ ذلك الوقت وأن تفرد لها مكانا بين الأسرات الشرعية التي حكمت مصر، بل لقد بدأت بها "الدولة الوسطى". ويبدو مُنذ هذه الفترة أن ظلام التاريخ سينكشف عنه الستار وستتضح لنا الأحداث في شيء من اليسر والسهولة.

لقد سبق لنا الحديث عن التوقيت المصري وأهمية الاعتماد على ظهور النجم الشعرى اليمانية في ترجمة التاريخ المصري القديم إلى التاريخ الذي نتبعه نحن في عصرنا هذا. ولقد عثر "بورخاردت" في أوائل هذا القرن على تاريخ ظهور النجم "الشيعري اليمانية" في السنة السابعة من حكم الملك "سنوسرت الثالث" أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، كتب هذا التاريخ في ورقة اللاهون البردية ويعتبر من أهم الوثائقي التحديد فترات هذا العصر، ونظرًا لأن سنى حكم كل ملك من ملوك هذه الأسرة بالذات قد عرفناه على وجه التحديد من ورقة تورين البردية، فقد أصبح من السهل علينا أن نصل إلى السنة التي بدأ فيها الملك "أمنمحيت الأول" أول ملوك هذه الأسرة، حكمه للبلاد. وتمكن "وينلوك" بتعديل طفيف لا يعدو سنتين أن يحدد هذا العام على وجه قاطع بعام ١٩٩١ ق.م.

ومما يؤسف له حقًا أن يكون هذا التاريخ الذي ورد في بردية "اللاهون" هو أقدم التواريخ من هذا النوع ولعله سيظل هكذا. وهو يقع في منتصف إحدى دورات النجم "الشعرى اليمانية"؛ أي أنه حدث في وقت كان الفرق فيه بين غرة العام الجديد حسب التوقيت المصري وبين ظهور النجم في الصباح أي أول العام حسب التوقيت الفلكي الصحيح، كان هذا الغرق يقرب من نصف عام، وليس من شك في أن هذا الفرق كان قد أصاب التوقيت المصري بكثير من الاختلافات وسبب الكثير من الاضطراب في النظام أيضًا، ولعل هذا هو الذي دفع الناس إلى الاعتماد على ظهور النجم وأبلغوا المعابد في كل البلاد بهذا التاردي.

ولم تكن البردية إلا إحدى هذه التبليغات فأصبحت بالنسبة إلينا من أهم الوثائق التي سجلت لنا تاريخ ظهور هذا النجم وساعدتنا على وضع هذه الفترة في موضعها الحقيقي بالنسبة إلى التاريخ الحديث. ولعل الناس في عصر الدولة القديمة لم يشعروا بالحاجة إلى الاستعانة بمثل هذه الظواهر الفلكية لان غرة العام الجديد سواء للسنة الشعبية أو السمنة الفلكية كانت تقع في أيام متقاربة واستمر هذا طوال قرون عديدة.

وتمكن "وينلوك" أيضًا، معتمدا على نقطة ارتكاز هذه من ناحية وعلى ما ورد في بردية تورين من ذكر لسني حكيم كل ملك من ناحية أخرى، من أن يحدد الملوك الأسرة الحادية عشرة مدة ١٤٣ عاما وبذلك تكون هذه الأسرة قد بدأت عام ٢١٣٤ ق. م هذا مع العلم أن الأمراء الذين سموا باسم "أنتف" قد شملهم في حسابه هذا. ولقد سقطت دولة الإهناسيين عام ٢٠٠٢ ق. م.

كما سبق القول وذلك على أيدي الملك "منتو حوتب" واسم العرش الخاص به هو "نب – حبت – رِع، ويعتقد "وينلوك" أن الكفاح استمر فترة تسع سنوات من عصره ثم توطدت له الأمور فحكم مدة ٤٦ عاما (وذكرت النصوص أنه حكم مدة ٥١ سنة). وبذلك اختفت الأسرة العاشرة أي دالت دولة الإهناسيين دون أن تخلف وراءها أي أثر يدل على حكمها.

أما الملك "منتوجو تب" فقد رأى فيه المصريون البطل الذي أعاد وحدة البلاد فقدسيه مصريو الدولة الحديثة، ولا غرابة في ذلك لأنهم اعتبروه المؤسس الأول لدولة طيبة، كما اعتبروه إلهًا من آلهة الجبانة ويدل على ذلك رسومه التي وردت على جدران كثير من مقابر الدولة الحديثة في جبانة طيبة.

وكما كان الحال في ذكر أسماء أمراء الاناتفة، فعلينا بالنسبة إلى المناتجة (الذين سموا باسم منتو حوتب) إلا نذكرهم بهذا الاسم، بل الأفضل أن نذكر اسم العرش لكل منهم، وذلك لان أولهم أخذ بالعادة القديمة وهي أن يتلقب كل ملك بخمسة ألقاب، وإذا كان منتو حوتب، الذي قضى على دولة الإهناسيين، تارة يذكر على أنه الثاني، وتارة على أنه الثالث، فيرجع ذلك لأنه تلقب بلقبين للعرش أو قل لأن لقبه يُمكن قراءته بالهيروغليفية على أساس نطقين مختلفين، ولو أننا في نفس الوقت نكاد نجزم بأن هذين اللقبين هما الملك واحد.

والأثر الوحيد الذي خلفه لنا ملوك الأسرة الحادية عشرة، هو المقبرة الفخمة التي شيدها "منتو حوتب" السالف الذكر في منطقة الدير البحري الواقعة في الجزء الشمالي من الشاطئ الغربي الطيبة.

وإذا كنا قد وصفنا مقابر الأناتفة بأنها تمثل طرازًا جديدًا في العمارة الجنائزية، فإننا هنا نعتبر طراز هذه المقبرة الملكية تطورًا هائلًا لهذا الأسلوب المعماري الجديد، ويبدو أن إعادة وحدة مصر كاملة تحت سيطرة ملك واحد، كان الدافع الأول لملوك طيبة الجدد أن يجعلوا مقر دفنهم في أسفل هرم ضخم، كما كان الحال مع ملوك الدولة القديمة الذين حكموا مصر من منف.

إلا أن المصري في ذلك الوقت شعر بأن إقامة هرم كبير يشيد من الحجر يحتاج إلى أرض سهلة واسعة، ولكن من الصعب إقامته في طبيعة جبلية ترتفع حتى تصل قيمتها إلى ٥٠٠ متر، ليس من شك في أن المصري أحس أن هذه البيئة المرتفعة الضخمة لا تستطيع قوى البشرية أن تنافسها في

إقامة هرم كبير من الحجر بين جنباتها، ولذلك اهتدي مهندسو الملك منتو حوتب إلى فكرة عجيبة وهي بناء معبد كبير مكون من طابقين في الوادي المحصور بين صخور التلال في هذه المنطقة، وأحاطوا المعبد بصفوف عديدة من الأعمدة ثم أقاموا فوق هذا كله الهرم المشيد من الحجر الجيري. وللأسف لم يبق لنا من هذا الهرم سوي قاعدته.

وليس في استطاعتنا إلا أن نتخيل الشكل الأصلي في رسومات هندسية تقوم على حسابات دقيقة. غير هذا فإن أجزاء المعبد نفسه قد وصلت إلينا في حالة من التهدم اختفت معها الكثير من أقسامه، إلا أن هناك أجزاء كثيرة من الأحجار المهشمة بعضها موجود في المنطقة نفسها والبعض الأخر تسرب إلى المجموعات الخاصة في العالم وهي لا تزال تحمل على سطوحها نقوشًا ومناظر عديدة، تكفي للتدليل على أن الأسرة الحادية عشرة كانت تمتاز بفن خاص في نقوشها يقوم أسلوبه على إظهار جسم الإنسان نحيلًا رفيعًا تنقصه علامات التعبير سواء في ملامح الوجه أو في عضلات الجسم.

كما اختلفت مناظر الأسرة الحادية عشرة عن مثيلاتها من الدولة القديمة، بأنها أظهرت الملك مختلطًا بسيدات البلاط في المناسبات الرسمية، بل لقد سمح الملك بأن تقام لست من زوجاته غير الشرعيات حجرات دفن داخل المعبد الجنائزي الخاص به، ولقد اعتبرت التقاليد المصرية إظهار الزوجات غير الشرعيات للملك أمرًا مكروها نبذته طوال التاريخ المصري، اللهم إلا إبان عصر العمارنة حين أمر الملك اخناتون بتصويرهن معه، وغير هذا فقد وجد كثير من القطع الحجرية التي تحمل أجزاء من مناظر تمثل معارك حربية، وهي لا شك تسجل تلك الانتصارات التي فاز بها الطيبيون في كفاحهم مع مصري الشمال ومن الطريف أن نلاحظ في هذه

المناظر ما يجعلنا نجزم بأن المعارك لم تكن بين مصريي الجنوب ومصريي الشمال، بل هناك فرق أجنبية (من النوبيين والليبيين) كانت تقاتل مع كل من الجانبين.

ولعل من أهم الأسباب التي جعلتنا نتأرجح بين الجزم بأن المعبد الملكي الكبير الذي شيده أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة في منطقة المدير البحري هو لملك واحد وليس لملكين وأنه أعد لدفن جثة ملك واحد، وجود حجرتين لتدفن، ومع أن كلتيهما قد وقعت فريسة للنهب والسلب إلا أن إحدى هاتين الحجرتين تبدو بوضوح أنها أعدت لتحوي رفات ملك، وهي الحجرة الواقعة إلى الغرب من الهرم ونصل إليها بطريق منحدر منقور في الصخر الطبيعي للجبل.

أما الحجرة الثانية فهي التي نقرت في أسفل الهرم والتي نصل إليها من فتحة تقع في الصالة ذات الأعمدة والمحيطة بالهرم. وهذه الحجرة هي التي يطلق عليها الآن أهل هذه المنطقة اسم "باب الحصان، وعثر فيها على تمثال للملك منتو حوتب قد لف بعناية في ملاءات من الكتان، وهو يمثل الملك متحليًا بالرداء الأبيض الذي يلبسه الملوك في مناسبة الاحتفال بالعيد الثلاثيني.

وهذا التمثال محفوظ الآن في المتحف المصري بالقاهرة. ولقد عثر على تماثيل أخرى مماثلة لهذا في الفناء الواسع الذي يتقدم المعبد، وهي لا تزال قائمة في مكانها، ولو أنها تقل كثيرًا عن التمثال السالف الذكر في احتفاظها برونقها، بل هي كلها مهشمة وينقصها كثير من أجزاء الجسم.

وهذه التماثيل تدل على أسلوب جديد في فن النحت أخذ يظهر في عصر الأسرة الحادية عشرة، وهذا الأسلوب أن دل على شيء فهو يدل على أن الفنان كانت تنقصه التجربة والمران، وأن الظروف لم تساعده على أن يقوم بنحت تماثيل ملكية قبل هذا الوقت.

وعلى كل حال يجب أن نضيف أن الإنسان يشعر أمام هذه التماثيل غير المتقنة الصنع بنفس الشعور الذي يحس به بالنسبة إلى فن النقش في هذه الفترة. بمعنى أن فني النحت والنقش هما باكورة فن جديد أخذ يتطور ونضج ابان عصر الدولة الوسطى.

لم يصلنا من عصير الأسرة الحادية عشرة غير هذا المعبد وأثار قليلة يوجد معظمها في المناطق الجنوبية من مصر العليا، بينما تقل أو تكاد تنعدم كلما اتجهنا شمالًا وقربنا من منطقة نفوذ منف عاصمة الدولة القديمة، ومن الطريف أن نذكر أن هذه العاصمة لم تكن تحمل بعد الاسم المشهور لدينا "منف" وهو المشتق من الاسم الذي كان يطلق على هرم "بيبي الأول" بل كانت تسمى "دجد سوت" (المقر الدائم) وهو الاسم الذي كان يطلق على هرم الملك "تيتي" مؤسس الأسرة السادسة.

ويتكرر ذكر اسم العاصمة هذا في كثير من وثائق عصر الاضمحلال الأول والأسرة الحادية عشرة وخاصة في المراسلات التي كتبها المدعو "حكا نخت" أحد كبار الموظفين الطيبيين الذي عاش في عصر الأسرة الحادية عشرة، وهي تعتبر من الوثائق الهامة لأنها تعرضت للوسائل المختلفة التي اتبعت في ذلك الوقت لإحلال الأمن والسلام بين أجزاء مصر شمالًا وجنوبًا.

وهناك نقشان في المتحف المصري بالقاهرة عثر عليهما في منطقة الجبلين (على مسافة ٢٨ كيلو مترًا إلى الجنوب من طيبة. وهما يسجلان انتصارات الملك منتوحوتب على الطريقة، البدائية التي عرفناها في النقوش القديمة بشبه جزيرة سمينا. ونحن نرى الملك في أحد هذين النقشين يقوم بمعاقبة عدوه الممثل في شخصية رجل ليبي وهو يهوى على رأسه بصولجانه.

أما النقش الثاني فهو يمثل نفس المنظر ولكن الملك يعاقب بعض الأعداء المختلفين الأجناس ومنهم المصري والنوبي والأسيوي والليبي "وفي هذين المنظرين نكاد نتحسس الطموح القوي الذي ظهر في هذه الأسرة الملكية والذي كان يهدف إلى سيادة العالم، ولو أن الملك في كل من المنظرين السالفي الذكر كان يكتفي بالظهور بالتاج الأبيض فقط وهو رمز السيادة على مصر العُليا.

لقد قام "وينلوك" من جديد بنقل النقوش والمناظر المرسومة على سطوح الصخور الموجودة في الوادي الصحراوي المعروف باسم "شط الرجال" وهو الذي يقع على مقربة من جبل السلسلة وإلى الشمال منه وذلك في الجزء الجنوبي من مصر العُليا، ونشر هذه النقوش والمناظر في كتاب له صدر حديثًا. ومن بين هذه المناظر ما يُمثل الملك "منتو حوتب" موحد القطرين واقفًا وبجانبه أمه وأحد الأمراء ويستقبله عدد من كبار الموظفين.

ولقد كثرت التفسيرات لهذا المنظر، إلا أن التفسير الجديد الذي أدلى به "وينلوك، يعتبر أكثرها وضوحًا، وهو أن هذه المنطقة بالذات هي التي كانت ولا تزال حتى الآن أكثر المناطق المناسبة لمقابلة الوافدين من الجنوب والمخترقين للطريق البري الذي يمتد في الصحراء لتفادي العراقيل الطبيعية

التي تمنع الملاحة عند أسوان وذلك لقرب هذا المكان من النيل، وعلى هذا الأساس يكون الملك قد تفضل وذهب بنفسه إلى هذا المكان ليرحب ببعض عظماء الدولة بعد رجوعهم من بعثة أوجهت إلى بلاد النوبة، ولا بد أن هذا المكان كان يُمثل أقصى الحدود الجنوبية التي يستطيع الملك أن يذهب إليه للقيام بهذا الترحيب.

لقد قلنا فيما سبق أن الملك "نب – حبت – رع" (منتو حوتب) قد حكم البلاد ٥١ سنة تم خلفه ابنه "سعنخ – كا – رغ" (منتو حوتب) واستمر حكمه ١٢ سنة (من ٢٠١٠ إلى ١٩٩٨).

ويبدو أن سيطرة الطيبيين كانت قد توطدت في كل مناطق مصر أبان النصف الثاني من حكم "نب حبت رع" وفي فترة حكم ابنه السالف الذكر، وعلى كل حال لم نعثر على أي نص يتحدث عن نشاط حربي حدث في هذا الوقت في مصر أو خارج مصر. ونظرًا لأننا لم نعثر بعد على مقبرة الملك منتو حوتب "عنخ كارع"، فإنه من المتعذر أن نتكهن بأحداث الفترة التالية.

لقد أراد البعض أن ينسب إليه ذلك المسطح الكبير والطريق الصاعد إليه على أنه المكان الذي كان يزمع تشييد مقبرته الضخمة عليه ولكن هذه المقبرة التي تقع إلى الجنوب من مقبرة الملك، "نب حبت رع" لم تتعد طور الأعداد فقط ولم تنفذ مطلقًا.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن رجالات البلاط في عصر الأسرة الحادية عشرة حذوا حذو أجدادهم الذين عاصروا ملوك الدولة القديمة وذلك في تجمعهم في مقابرهم حول مقبرة الملك.

وإذا كانت مقابر أشراف الدولة القديمة قد شيدت على هيئة مساطب ضخمة حول هرم الملك، فقد كانت مقابر أشراف هذا العصر عبارة عن حجرات متسعة منقورة في التلال الصخرية التي تحيط بمقبرة ملكهم "منتو حوتب" بمنطقة الدير البحري بل أن مقبرة "سعنخ كارع" التي لم تتعد طور الأعداد، كان تصميمها على أساس أن تحيط بها مقابر رجالات الدولة، وفي الواقع عثر على مقبرة هامة من عصر الملك "سعنخ كارع" وهي مقبرة "مكتي رع" وترجع أهميتها إلى تلك المجموعة الكبيرة من النماذج الخشبية الملونة التي تمثل الحياة اليومية والنشاط الذي كان يجري في المنزل أو فوق النهر.

ومن الطريف أن ننسب إلى هذا العصر ظهور تلك النصوص السحرية "نصوص اللعنة، وهي لا شك وليدة تلك المشاعر المصرية نحو السحر. فإذا أراد المصري إيذاء آخر، لجفوة أو لعداء دفين بينهما، فإنه كان يكتب اسم عدوه على إناء من فخار ومع هذا الاسم يكتب أيضًا نصًا من "نصوص اللعنة" يتفق مع الضرر الذي يرغب أن يلحقه به ثم يهشم هذا الإناء في مكان له قدسيته وغالبًا ما يكون أمام المقبرة، وهكذا تقع اللعنة على صاحب الاسم ويلحق به الضرر الذي يشير إليه النص. ولقد وصلت إلينا عن طريق تجار العاديات في طيبة مجموعة كبيرة من القطع الفخارية الناتجة عن الأواني المهشمة السالفة الذكر وعليها أجزاء عديدة من النصوص السحرية كتبت كلها بالخط الهيراطيقي الخاص بأوائل الدولة الوسطى، وتمكن العلامة "زيته" بعد أن بذل جهودًا طويلة من أن يسجل نصوصًا كاملة، ومن الملاحظ أن اللغة غالبًا ما تكون موجهة إلى أعداء الأمة أي إلى أفراد من الشعوب المتاخمة لمصر، وهو أمر يتفق مع مشاعر المصريين في ذلك الوقت، ولكن لم يخل الأمر من ذكر بعض أسماء مصرية وجهت إليها اللعنة أيضًا ومن بين هذه

الأسماء "أمنمحيت وسنوسرت" وهما الاسمان اللذان سوف نقابلهما في عصر الأسرة الثانية عشرة التي تسمى بهما أغلب ملوك هذه الأسرة وإذا أضفنا إلى هذه الظاهرة ما ورد على ورقة تورين البردية من أن مصر وقعت فريسة للاضطرابات لمدة سبع سنوات في آخر الأسرة الحادية عشرة، أمكننا أن نرجع سقوط هذه الأسرة إلى ثورات وانقسامات حدثت بين المصريين.

وهناك ملك آخر اسمه "منتو حوتب" اتخذ لنفسه اسمًا للعرش هو "نب تاوي رع". هذا الملك وردت لنا من عصره عدة نصوص، يبدو منها أنه لا ينتمي إلى أسرة المفاتحة التي حققت الوحدة، وكان وزيره رجلًا يدعى "أمنمحيت" من أبناء طيبة الذين تدرجوا في المناصب المختلفة، ويغلب على الظن أنه خلع "نب تاوى رع" واغتصب العرش لنفسه، وبذلك أصبح مؤسس الأسرة الثانية عشرة.

ولا زالت الحقائق التاريخية الخاصة بانتقال الحكم من ملوك الأسرة الحادية عشرة إلى أولئك الذين أسسوا الأسرة الثانية عشرة غامضة. ومن الغريب أن ذلك الملك الذي انتهت به الأسرة الحادية عشرة والذي عثرنا على نص يسجل له ألقابه الملكية الخمسة الكاملة، لم تذكره إحدى القوائم الملكية الرسمية.

وهناك نص ورد على بردية محفوظة الآن بمتحف "بيترسبورج"، نعتقد أنه يفسر لنا طرفًا من الأحداث التي سببت سقوط الأسرة الحادية عشرة. هذا النص يشبه في موضوعه ما ورد على لسان الحكيم "ايبو – ور" فهو يصف من ناحية انهيار الأوضاع الاجتماعية في مصر، كما يشيد من ناحية أخرى بمناقب أمنمحيت الأول، الذي تم على يديه خلاص مصر من كبوتها.

ولقد ذكرت الوثيقة اسمه "أمينى" (وهو كثيرًا ما يرد تصغير للاسم الكامل أمنمحيت) كما ذكرت أنه من الجنوب وأنه ابن السيدة نوبية. هذا النص ورد على شكل تنبؤ على لسان رجل اسمه "نفر ريحو" وهو من الحكماء القدامى الذين عاصروا الملك سنفرو (من الأسرة الرابعة).

وإذا كنا لم نستطع حتى الآن إثبات نسبة أمنمحيت الأول إلى أصل نوبي فإن من الواضح تمامًا أن هذه الوثيقة تتعلق بالتغيير الذي سبب سقوط الأسرة الحادية عشرة وارتقاء أمنمحيت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة عرش مصر.

وفيما يلي سنتحدث عن الأسرة الجديدة التي لعبت دورًا كبيرًا في التاريخ المصري والتي نعتبرها بمثابة العصر الذهبي الدولة الوسطى.

٢ - الأسرة الثانية عشرة (من ١٩٩١ إلى ١٧٧٨ ق.م)

بارتقاء أمنمحيت الأول عرش مصر بدأت أسرة جديدة استمرت تقبض على ناصية الحكم فترة قرنين وثلاثة عشر عامًا. وكما كان اسم العرش لآخر ملوك الأسرة الحادية عشيرة المتمتعين باستقلالهم الكامل هو "سعنخ – كا- رع" (أي الذي يبقي "كا" الإله "رع" حية) اتخذ مؤسس الأسرة الجديدة لنفسه اسمًا شبيهًا للعرش هو "سحب ايب رغ" (أي "الذي يجعل قلب الإله رع سعيدًا") والأسرة الثانية عشرة تعتبر الأولى بين أسرات التاريخ الفرعوني التي توصلنا إلى إقامة توقيت لها نجزم بصحته، ويرجع ذلك إلى عثورنا على النص المشهور الذي يذكر ظهور نجم الشعرى اليمانية في السنة السابعة من حكم الملك سنوسرت الثالث، واستطاع علماء الفلك تحديد هذا العام تحديدًا دقيقا بالنسبة إلى توقيتنا الحديث، ويضاف إلى ذلك أن بردية تورين

قد ذكرت سنى حكم كل ملك من ملوك هذه الأسرة بالسنة والشهر واليوم: ولقد استن "أمنمحيت الأول" سنة جديدة ما لبث خلفاؤه أن حذوا حذوها وذلك لكي يثبت أقدام حكمه في البلاد، وهذه السنة أنه عين ابنه شريكًا له في الحكم في العام العشرين من سنى حكمه أي قبل وفاته بمدة قصيرة.

ويبدو أن الأزمات التي كانت تعترض تعيين خليفة للملك عند موته، وهي الأزمات التي لابُد أن تعرضت لها البلاد في أواخر عصير الأسرة الحادية عشرة والتي تعرضنا لها على الصفحات السابقة، كانت هي الدافع الابتداع هذه السنة الجديدة، ولعل من الأمثلة الواضحة التي تضرب لذلك ما ورد في مقدمة قصة "سنوهى" (وهي من القطع الأدبية المشهورة من عصر الأسرة الثانية عشرة) من أنه ما كاد خبر وفاة "أمنمحيت الأول" يصل إلى ابنه وشريكه في الحكم "سنوسرت الأول" الذي كان على رأس حملة عسكرية في ليبيا، حتى سارع إلى العاصمة تاركًا جيشه ، وذلك لكيلا يفوت على نفسه الفرصة وليكون في موطن الخطر إذا ما عن لأحد أن يطمع في العرش.

ولعل هذا هو السبب في أن ملوك هذه الأسرة قد تمتعوا بفترات حكم نعجب لطولها فمثلًا سنوسرت الأول حكم ٤٥ سنة، وحكم أمنمحيت الثالث ٤٨ سنة.

وحرص ملوك الأسرة الثانية عشرة أن يتسمى كل منهم بالاسم الشخصي "أمنمحييت" والتالي له يتسمى باسم "سنوسرت، والاسم الشخصي للفراعنة هو الذي يتلو اللقب الخامس من ألقابه الرسمية أي "ابن رع" (أمنمحيت" يعني "أمون في المقدمة" و"سنوسرت" يعنى "رجل (الآلهة) أوسرت") وورد ذكر هذين الاسمين أبان عصير الأسرة الحادية عشرة.

ومن المعروف أن اسم الإله الرئيسي "منتو" الذي عبد أولًا في طيبة، قد ورد في أسما" ملوك الأسرة الحادية عشرة الذين تسموا باسم "منتو حوتب"، في حين أن أمنمحيت الأول، واسمه يحوي اسم الإله آمون، قد جعل من هذا الإله المعبود الأول في مصر، ومن الطريف أن نعلم أن هذا الإله لم يلعب أي دور في مقاطعة طيبة قبل عصر الأسرة الثانية عشرة، وتمكن "زينه" بعد دراسات طويلة أن يثبت أن الموطن الأول لهذا الإله كان مدينة الأشمونيين في مدير الوسطى، تم نقله ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى طيبة ومن ثم أخذت شهرته تنتشر حتى طغي على جميع الآلهة المصرية.

أما اسم الملك "سنوسرت" وهو الذي كنا نقرأه خطأ "أوسبرتسن، وأحيانًا "وسرتاسن"، فهو الاسم الذي نطقه الإغريق "سيزوستريس" والذي أصبح على مر السنين من الأسماء المؤلمة التي تطلق على أحد أبطال التاريخ من الفاتحين الغزاة، نسج الناس حوله كثيرًا من القصص الذي حوى من أعمال البطولة ما جعل ملوك الدولة الحديثة يترنمون بها ويجعلونها نبراسًا لهم. وحاول "زينه" مُنذ زمن طويل أن يتتبع العوامل التي جعلت الإغريق ينسبون أعمال البطولة والغزو للملك "سيزوستريس، وأن يرجعها إلى أصولها في النصوص التي وصلت إلينا من عصري سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث.

ووجد أن عنصري الخيال والمبالغة قد هيمنا على القصص الإغريقي وأنهما تزيدان بشكل واضح على ما وصل إلينا من أعمال هذين الملكين في النصوص المصرية.

ونعرف من المعلومات التاريخية التي بين يدينا الآن، أن الحملات الحربية التي حدثت في عصر الأسرة الثانية عشرة كانت قليلة وطغت عليها الأحداث السياسية الداخلية. إذ وجه الملوك كل جهودهم نحو تثبيت أقدام الحكم بعد الاضطرابات التي سادت مصر إبان فترة الاضمحلال الأول، وكان هدفهم باستمرار القضاء على حكام الأقاليم وسحب السلطات منهم بعد أن عاشوا متمتعين باستقلالهم الذاتي، وتتضح هذه السياسة من الكلمات التي قالها أمنمحيت الأول في معرض الإشادة بنجاحه: "لقد دانت لي (اليفانتين) جزيرة الفيلة ثم تقدمت شمالًا حتى تغلغلت في الدلتا، ومن ثم وصلت إلى حدود البلاد ووقفت هناك أتفقد معالمها. لقد اعتمدت على قواي ومددت نفوذي إلى كل مكان، وكانت كلمتي تطاع على الفور". ونحن نلمس المعاني التي تحملها هذه الكلمات المليئة بالفخر ونرى مدى الفارق بينها وبين ما سجلته لنا نصوص الدولة القديمة التي تتحدث عن ملوكها. حقًا لقد بقي الملك متمتعًا بلقبه "ابن إله الشمس رع"، ولكن مقامه الديني تغير وزالت عنه تلك الصفة التي تجعل منه إلها يعيش فوق الأرض.

لقد أصبح الآن إنسانًا يعتمد على قوته ويعرف أهمية شخصيته الفردية. وقد اعتبر الملك في عصر الدولة القديمة في مصاف الآلهة ومنزلته عالية لا يدانيها أي إنسان.

أما ملوك الدولة الوسطى فقد اعتبروا زعماء من دم ولحم كبقية الناس، ومهمتهم أن يديروا دفة الحكم في البلاد، حقيقة أنهم من الناحية الدينية كانوا مرتبطين بالآلهة خاضعين لوحيهم، إلا أنهم في نفس الوقت كانوا بشرًا كغيرهم من المصريين.

ولعل الصدفة وحدها لم تكن السبب في عدم عثورنا حتى الآن على أي نقش لأحد من ملوك الدولة الوسطى يرضع من ثدي إلهه. وإذا كنا نقرأ في مستهل قصة "سنوهي، التي سبق الحديث عنها، بأن أمنمحيت الأول بعد موته:

"صعد الإله إلى الأفق وذهب إلى السماء واتحد مع الشمس" (ويقصد بذلك أن جسم الملك المتوفي ينضم إلى إله الشمس الذي خلقه)، فنحن لا نسمع أكثر من هذا عن حياة الملك واستمرارها في السماء بعد أن أصبح إلها.

لا شك أن هذه الفقرة التي وردت في قصة سنوهي تكاد توحي بأن المصري أعتقد أن الملك الميت يصعد إله إلى عالم الآلهة، وبذلك نلمس الفارق الكبير بين هذه العقيدة وما كان سائدًا في الدولة القديمة، حين كان الملك المتوفى بمجرد وصوله إلى السماء تندمج فيه الآلهة بعد أن "يلتهمها، ودليلنا على ذلك ما ورد في تلك المتون المعروفة باسم متون "أكلة لحوم البشر".

ولعل الشخصية الفردية للملك في عصر الدولة الوسطى وصبغتها بالصبغة البشرية لم تتضح لنا بمثل ما اتضحت في تلك الوثيقة الأدبية التي وصلت إلينا من نفس العصر وهى المعروفة باسم "تعاليم الملك أمنمحيت"، ولقد وصلنا أخيرًا إلى تفهم معانيها ونكاد نؤكد الآن أنها كتبت بعد نجاح المؤامرة التي غالبًا ما تكون قد تسببت في موت الملك أمنمحيت، وكان الهدف من كتابتها أن تحذر من مثل هذه المؤامرات ابن الملك الذي كان مشتركًا مع أبيه في الحكم والذي أصبح بعد موت أبيه هو الملك أي

"سنوسرت"، فهذه الوثيقة كانت بمثابة مناورة سياسية يستند إليها سنوسرت الأول (من ١٩٧١ إلى ١٩٣٠ ق.م) في حكمه للبلاد، والواقع أنها لم تنبثق من شخصية الملك نفسه بل اعتمد على تأثيرها في الناس على أنها وردت على لسان الملك المسن، وورد فيها على سبيل المثال (ونحن نعتمد هنا على ترجمة "أرمان"):

"أنت يا من تشبه الإله المشرق، استمع لما أقوله لك حتى تكون ملكًا يحكم البلاد ويهيمن على الشاطئ، ولكي تصل بأعمالك إلى أحسن مما تنتظر، احترس من أفراد شعبك ولا تقر بهم ولا تكن معهم منفردًا. ولا تأتمن أخًا لك ولا تتعرف على صديق، ولا تثق بأحد. وإذا نمت فاجعل من قلبك حارسًا عليك لأنه إذا أتى اليوم المشئوم فلن يجد الشخص تابعًا له..".

ولعل الملك المسن كان على حق لإظهار كل هذا التشاؤم، لأنه بعد ذلك يأتي بوصف ما حدث له عندما هاجمه المتآمرون أثناء الليل ولا بد أن تكون هذه المؤامرة قد انتهت بقتله.

ونحن لا نشك في أن التشاؤم الشديد الذي ملا هذه الوثيقة الأدبية كان من وحي الأحداث التي عمت مصر أثناء فترة الاضمحلال الأول والتي سبق الحديث عنها كما أننا لا نشك في أن التغييرات الشاملة التي أصابت الملكية في مصر كانت السبب المباشر في حدوث تلك الهزات العنيفة التي أصابت مصر في عصر الاضمحلال السالف الذكر.

وما دمنا قد ألقينا نظرة سريعة على الإنتاج الأدبي فعلينا أن نتبع هذا بنظرة أخرى تلقيها على فن نحت التماثيل في الدولة الوسطى، حتى نستطيع أن نتلمس مدى التطور الذي حدث في مصر مُنذ انتهاء الدولة القديمة.

أن تماثيل الملوك في عصر الدولة القديمة مثل تماثيل خفرع ومنكاورع (وكلاهما من الأسرة الرابعة) لم تتميز بحجمها الكبير إلا أنها كانت تعنى بتمثيل شخصية "الملك الإله "، وفي الواقع نلمس في هذه التماثيل شخصية الملك المؤله، أما فنانو الدولة الوسطى فقد عمدوا إلى نحت تماثيل الملوك في حجم ضخم يرتفع إلى أكثر من أربعة أمتار، ويغلب على الظن أن السبب في هذا يرجع إلى شعور الملك نفسه بحاجته إلى إبراز شخصيته البشرية في إطار واسع يرفع من شأنه بالنسبة إلى بقية المصريين، ويجعلهم ينظرون إليه وهو الحاكم الأرضي الذي أصبح ممثلًا في تماثيل ضخمة كما لو كان إلهًا يعيش في مصاف الآلهة، وهي النظرة بعينها التي كان المصري ينظر بها إلى ملوكه في الدولة القديمة دون الحاجة إلى تمثيله في مثل هذا الحجم الضخم.

ولعلنا الآن نستطيع أن نفهم السبب في انتشار تماثيل الملوك على هيئة أبي الهول في الدولة الوسطى وكانت في الغالب تمثل في أحجام ضخمة، وكذلك نستطيع أن نفهم السبب في تصوير الملك الميت على هيئة الإله أزوريس، وبدأ ذلك في عصر الملك سنوسرت الأول.

ولقد سبق أن نوهنا عند الحديث عن فترة الاضمحلال الأول بانتشار عقيدة أزوريس الذي أصبح المهيمن على عالم الموتى والذي تركزت عبادته في أبيدوس ومن ثم أخذ الناس بفكرة تحول كل منهم بعد موته إلى أزوريس.

ولذلك لا غرابة مطلقًا إذا اعتقد مصريو الدولة الوسطى أن الملك مع أنه من البشر فهو يصبح بعد موته مثل أزوريس صاحب سطوة ونفوذ في الدنيا السفلى.

وبالإضافة إلى تلك التماثيل الضخمة التي لعبت دورًا دينيًا بالنسبة إلى الملوك، فهناك تماثيل أخرى كان الهدف من صنعها هدفًا عكسيًا فهي تمثل الملوك كأفراد من البشر، وهذه التماثيل بالذات لا تزال تفوز بإعجابنا كما أنها تجعل من فن نحت التماثيل في عصر الدولة الوسطى أرقى أنواع الفنون التي ظهرت في مصر القديمة.

وحاول الفنان في هذه التماثيل أن يخرج صورة طبيعية حقيقية لصاحب التمثال، واستطاع أن يصل إلى هدفه بأن أظهر كل تفاصيل عظام الوجه متوخيًا الدقة، وأن يخرج رؤوسًا ملكية تظهر عليها بوضوح شخصية كل منهم، وكثيرًا ما استطاع أن يظهر طرفًا من أخلاقهم في ملامحهم، ونخص بالذكر تماثيل سنوسرت الثالث وأمنمحيت الثالث التي تفوز بإعجاب الفنان المعاصر وتحظى بتقديره، واستطاع أستاذ تاريخ الفن الدكتور "أيفرز" أن يتعرف على صاحب رأس تمثال خلوا من النقوش معتمدًا في ذلك فقط على تطابق الملامح بين هذا الرأس وبين تماثيل أخرى معروفة لصاحبه.

كانت الأسرة الثانية عشرة تعتبر من الناحية التاريخية على الأسرة التي خلفت الأسرة الحادية عشرة. وكانت الأسرتان قد نشأتنا في طيبة، غير أن الأحداث التاريخية التي تمت أثناء تولى ملوك الأسرة الثانية عشرة الحكم لا تعتبر مطلقًا تتمة لما قام به ملوك الأسرة الحادية عشرة – وبخاصة ملكها الكبير "منتو حوتب" (نب حبت رع)، الذين حققوا وحدة مصر بعد انهيارها، وكانت جهودهم متأثرة بهدف واحد، وهو جعل طيبة بمثابة المركز الوحيد لهذه الوحدة: ومن أجل ذلك نكاد تعتبر المظاهر الحضرية، اجتماعية كانت أو فنية، قد تأثرت تأثرًا واضحًا باللون الطيبي، بينما كان ملوك الأسرة الثانية

عشرة أكثر فهما للأوضاع وأبعد نظرًا. أقاموا معبدًا للإله الجديد آمون الذي أصبح إله طيبة ولكنهم لم يفكروا مطلقًا في جعل هذه المدينة عاصمة سياسية لهم.

لقد عرف أمنمحيت الأول مُنذ اللحظة الأولى أن طيبة لا تصلح مطلقًا الآن تكون عاصمة يحكم الملك منها جميع أجزاء مصر الممتدة شمالًا وجنوبًا، فلم يتردد في أن يختار لعاصمته مكانًا يقع في حدود تلك المنطقة التي أظهرت التجربة أنها أصلح من غيرها للتحكم في أجزاء مصر، وهي منطقة "منفي"، بل أكثر من هذا رجع الملك إلى الطراز القديم البناء المقبرة الملكية على مدينة مرم، ولم يبق إلا على مظهر واحد من طراز المقبرة الملكية لمنتو حوتب، وهو أنه بنى هرمه على منصة تعلو سطح الأرض، ولا شك أن أهرام ملوك الأسرة الثانية عشرة تشبه تمامًا أهرام ملوك الدولة القديمة ولو أننا نكاد نجد فارقًا واحدًا سببته تلك الأزمة الاقتصادية التي كانت تسود مصر في هذه الفترة، وينصب هذا الفارق على أن أهرام الأسرة الثانية عشرة كانت تشيد من اللبن ثم تكسي من الخارج بلوحات رقيقة من الحجر الجيري الأبيض لم يبق عليها الزمن نجدها الآن متناثرة حول هذه الأهرام، وتميزت هذه الأبنية أيضًا بوجود قمة هرمية الشكل من الحجر وهي ما نطلق عليها اسم "بيراميديون".

أما المعابد الجنائزية التي كانت ملحقة بهذه الأهرامات فقد عانت من أسباب الهدم والتخريب بحيث تبدو لنا الآن أنها لم تكن في يوم مضي تتمتع بالفخامة وجمال المظهر، فالأهرامات التي تقوم خلف هذه المعابد المهدمة لا تظهر اليوم إلا على هيئة كومة عالية من الطمي.

نقل أمنمحيت الأول المركز السياسي للحكم من طيبة كما سبق القول واختار له في الشمال – أي في الإقليم المنفى – موقعًا يقرب الآن من مدينة الليشت، حيث شيد عاصمة جديدة أطلق عليها اسم "ايشت تاوى" وهو يعني "القابضة على القطرين".

ولسنا في حاجة إلى التحدث عن أهمية إقليم منف الذي لعب مُنذ أول التاريخ دوره إلهام وكان نقطة الارتكاز في كل محاولة لحكم قطري الوادي، بل أن العاصمة الحالية "القاهرة" تقع في حدود هذا الإقليم وهي في موقعها الحالي تبعد قليلًا إلى الشمال من مدينة الليشمت وبينما نجد أن الملكين الأولين في هذه الأسرة وهما أمنمحيت الأول وسنوسرت الأول قد شيدا هرميهما بالقرب من العاصمة الجديدة "ايشت تاوي"، نجد أن الملكين التاليين وهما أمنمحيت الثاني وسنوسرت الثالث قد اختارا منطقة دهشور التي تكون جزءًا من الجبانة الكبرى للعاصمة القديمة منف – وهي الجبانة المعروفة حاليًا باسم سقارة – حيث أقام كل منهما لنفسه هرمًا من اللبن.

غير هذا فهناك ملكان آخران من ملوك هذه الأسرة اختارا مكانًا جديدًا لتشييده مقبرتيهما، وهذا المكان الجديد يقع عند مدخل "واحة الفيوم" وهي الواحة التي تقع في الصحراء الليبية على مقربة من الوادي.

ومُنذ أقدم العصور اتصلت هذه الواحة بنهر النيل بواسطة قناة تتفرع من النهر عند مصر الوسطى وتتجه شمالًا وتصب في منخفض الفيوم الذي يكون بحيرة متسعة الأرجاء ينخفض سطح الماء فيها كثيرًا عن سطح المياه في البحر المتوسط، ولقد سكن هذه المنطقة مجموعات من الجنس الليبي واعتبرها المصريون بمثابة أرض أجنبية عن بلادهم، وكان إله هذه المنطقة هو

المعبود الممثل على هيئة التمساح واسمه "سوبك" (سماه الإغريق سوخوس) وقل حديث المصريين بأن عصر الدولة القديمة عن منطقة الفيوم، وكان ملوك الأسرة الثانية عشرة هم أول الفراعنة الذين عرفوا أهمية هذه المنطقة من الناحية الاقتصادية ولا غرابة في ذلك فهذه المنطقة بعينها تعتبر في عصرنا الحالي من أخصب وأجمل المناطق الزراعية في مصر الحديثة.

ونُؤكد أن استصلاح منطقة الفيوم في عصر الأسرة الثانية عشرة وبخاصة في عهد الملك أمنمحيت الثالث (١٨٤٠ - ١٧٩٢) كان من أهم وأكبر مشروعات التعمير التي حدثت في عصر الفراعنة. ولقد دفن هذا الملك في هرمه الذي شيده من اللبن في منطقة "مواره" بالفيوم ولا بُد أن معبده الجنائزي كان قد بلغ حدًا من الاتساع وتعد الصالات والأفنية بحيث أن زوار مصر من الإغريق قد رأوا فيه مشابهة قوية مع القصر المينوي المعروف باسم "اللابر نت" والمشيد في جزيرة كريت والذي يعتبر من عجائب الدنيا السبع في عصر ازدهار الحضارة القديمة. ومن أجل هذا كله أطلق هؤلاء الزوار على معبد أمنمحيت الثالث اسم "اللابر نت" ولو أنه لم يبق لنا منه الآن البدوي أكوام من الأحجار واختفت أجزاؤه تمامًا.

وعثرت احدي بعثات الحفر الإيطالية حديثًا على معبد في منطقة الفيوم يرجع إلى العصر البطلمى، ووجدت أن الملك أمنمحيت الثالث قد ذكر اسمه فيه وكتبه الإغريق "بر اماريس" كأحد الآلهة التي تقدم في المعبد ونرجح أن الجزء الخلفي من هذا المعبد يرجع إلى عصر الملك "أمنمحيت الثالث"، وهذا الكشف بالذات يعطينا صورة واضحة عن مدى ما يُمكن أن يبقى عليه طقس معين يقام في معبد الإله بعينه، وفي حالتنا هذه يمكن أن نحدد بدء العبادة في المعبد السالف الذكر بحوالي عام ١٨٠٠ ق.م وأنه استمر حتى

عام ٢٠٠ق.م وليس من شك في أن منطقة الفيوم قد اكتسبت أهمية كبرى في عصر البطالمة بل وفي عصر الرومان وذلك بالنسبة إلى الدور الكبير الذي لعبته في حياة مصر الاقتصادية والعلمية، ونستدل على هذا من الأوراق البردية الكثيرة التي عثر عليها في منطقة الفيوم.

هناك ملك آخر سجل التاريخ له أعمالًا طيبة في منطقة الفيوم، وهو "سنوسرت الثاني" (١٨٩٧ – ١٨٧٩ ق.م) الذي شيد لنفسه هرمًا من اللبن على مرتفع من الهضبة الصحراوية بالقرب من قرية اللاهون الحالية، واسم هذه القرية يرجع إلى أصل مصري يعني "فم القناة"، وهذه التسمية تدل على أن موقعها القديم كان بالقرب من النقطة التي تنحني فيها القناة تاركة وادي النيل ومتجهة غربًا نحو الفيوم.

ولا بد أن تكون هذه النقطة بالذات قد لعبت دورًا هامًا في التحكم في مياه القناة سواء في اتجاهها وقت الفيضان إلى الفيوم أو بالعكس في فترة التحاريق أي لا بد أنه قد أقيمت عندها السدود والبوابات اللازمة لهذا المشروع. ويجدر بنا هنا أن نقول أن البحيرة المتسعة التي كانت قائمة في الفيوم اعتبرت في نفس الوقت بمثابة خزان كبير أسدته الطبيعة إلى مصر يمتلئ في وقت الفيضان ثم يزود النيل أثناء انخفاضه بكميات من المياه ترفع من مستواه وتساعد على الري والملاحة.

ولقد عرفت بحيرة الفيوم في العصر البطلمي باسم "بحيرة موريس "، وليست هذه التسمية تعني أن البحيرة كانت منسوبة إلى أحد الملوك المسمى "موريس"، فليس من ملوك الفراعنة من يحمل هذا الاسم، بل أن "موريس" كلمة مصرية قديمة تعني "البحر الكبير" (مر أور).

قام أحد علماء الانجليز بالحفر حول هرم سنوسرت الثاني وعثر على عدد من المقابر بجوار الهرم خصصها الملك السيدات بلاطه ولقد اتبع في بناء هذه المقابر نفس الطراز الذي كان شائعًا في عصر الدولة القديمة.

وكان من بين الأشياء التي وجدت في هذه المقابر كمية كبيرة من الحلي النفيس الذي كانت هذه السيدات يستعملنه وهو يشبه في جماله ودقة صنعه الحلي الذي عثر عليه في منطقة دهشور.

وهذا الحلي سواء منه ما عثر عليه في دهشور أو في اللاهون محفوظ الآن في متحف القاهرة، ويدل على أن الشهرة التي علقت بالدولة الوسطى وجعلتها أهم عصر تميز بدقة صناعة الحلي في العالم القديم، هي شهرة تقوم على أسس حقيقية.

ونظرًا لأن اللاهون كانت من المواقع النائية عن العمران، لذلك اضطر الملك إلى تشييد مدينة صغيرة يسكنها العمال الذين بنوا الأهرام وكذلك الذين احتاج إليهم مشروع تنظيم شئون الري في هذه المنطقة "وهذه المدينة بالذات لم تعمر بسكانها إلا في عهد الملك سنوسرت الثاني ولا بد أنها مجرت أما في عصر أمنمحيت الثالث أو مباشرة بعد انتهاء عصره، وهذا هو السبب في أنها لم تتعرض لأسباب التهدم والتخريب وبقيت مدفونة تحت الرمال حتى كشف عنها معول الحفار في عصرنا الحديث.

لقد قام العالم الانجليزي "فليندرز بترى" بالكشف عن هذه المدينة التي سماها خطأ "كاهون" في أواخر القرن التاسع عشر، وهذا الكشف قد أماط اللثام لأول مرة عن أطلال مدينة مصرية صغيرة وعن المنازل الصغيرة الضيقة التي كان يسكنها العمال في ذلك الوقت وكذلك عن المنازل المتسعة التي

نعتبرها النموذج الذي سبق المنازل المتسعة بمدينة العمارة والتي ترجع إلى عصر الدولة الحديثة. ونظرًا لأن معلوماتنا عن حياة المصريين القدماء تأتي في الغالب مما خلفوه في مقابرهم وعماراتهم الجنائزية، لذلك كانت أهمية الكشف عن مدينة اللاهون كبيرة لأنها ساعدتنا على التعرف على جانب من الحياة الفعلية للمصري القديم وذلك بما عثرنا عليه بين أطلال هذه المدينة.

وبينما كانت أهرام ملوك الدولة الوسطى صغيرة الحجم مشيدة من اللبن وتبدو قميئة هزيلة فإننا نجد مقابر أمراء الأقاليم المنقورة في الصخر بطرازها المعروف ذي الصالات المتعددة قد دلت على ثراء أصحابها وعشقهم لمظاهر العظمة، وخلدوا على جدرانها – حالهم في ذلك حال عظماء الدولة القديمة – الكثير من المعلومات التي تعتمد عليها في التعرف على تاريخ هذه الحقبة ومدنيتها.

والمقابر الصخرية لهذا العصر نجدها أولًا في أسوان عند الحدود الجنوبية للبلاد ثم في المناطق الآتية من مصر الوسطى: بني حسن، والبرشه، ومير، وقار الكبير، ولقد سبق الحديث عن نشأة إمارات الأقاليم أي الإقطاعيات في مصر أثناء عرضنا لأحداث الفترات الأخيرة من عصر الدولة القديمة، وليس من شك في أن الاضطرابات التي شاعت في مصر إبان عصر الاضمحلال الأول، قد ساعدت على إظهار أسرات جديدة في المقاطعات المختلفة أخذت تقبض على ناصية الحكم بل حافظت عليه حتى أوائل عصر الأسرة الثانية عشرة ودليلنا على ذلك أن أمير المقاطعة الخامسة عشرة خلد لنا على جدران مقبرته في البرشة منظرًا سجل فيه طريقة نقله لتمثاله الكبير الحجم المقطوع من الصخر ليقيمه في عاصمة مقاطعته، ويبدو واضحًا من هذا المنظر أنه جند كل رجل من رجال مقاطعته لهذا العمل.

وهناك نص كتب على واجهة إحدى المقابر المنقورة في الصخر في جبانة بني حسن المهمة وره بمقابر ما التي تحوي أعمدة ذات قنوات غائرة (وهي التي نطلق عليها اسم الأعمدة السابقة للفن الدوري)، هذا النص يسجل الإضافات من الأراضي الواسعة التي ضمت إلى أملاك أمير المقاطعة عن طريق الوراثة، ومن الطريف أن نعلم أن في كل مرة تسجل هذه الإضافات يذكر اسم الملك بألقابه الكاملة الذي تم في عصره ضم هذه الأراضي. وهذا يدل من ناحية أخرى على أن الملوك كانوا يسيطرون على مقاطعات مصر بشكل يختلف تمامًا عما كان يحدث في فترة الأسرة السادسة وملوكها الضعفاء أو في عصر الاضمحلال الأول.

ويجدر بنا هنا أن ننوه بمنظر سجل على جدران هذه المقبرة بالذات وهو منظر له أهميته التاريخية، تقصد بذلك المنظر الخاص بحضور قافية من البدو الساميين الذين يسكنون الصحراء الشرقية، طالبين السماح لهم بالبقاء في مصر. هذا المنظر يهم الذين يبحثون بجهد لا يعرف الملل عن قرائن تثبت العلاقات بين مصر القديمة وما ورد عنها في كتاب "العهد القديم" وبخاصة فيما يتعلق بقصة يوسف وأخوته المذكورة في سفر التكوين.

وفي غضون عهد الملك سنوسرت الثالث تختفي تمامًا. مقابر أمراء الأقاليم، ومن الغريب أن نصوص هذه الفترة لا تذكر لنا الأسباب التي دعت إلى حدوث هذه الظاهرة وعلى هذا الأساس تكون أحدث المقابر الصخرية التي وصلت إلينا هي التي عثرنا عليها في منطقة قاو الكبير أي في الإقليم العاشر من مصر العليا والتي تتميز بجمال طرازها المعماري ونؤرخها من عصر أواسط الأسرة الثانية عشرة.

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن الملك سنوسرت الثالث كان قد اتخذ إجراءات حاسمة للقضاء على نفوذ أمراء الأقاليم الذي كان قد تفشي وزاد، وبذلك تكون ظاهرة وجود أمراء للأقاليم قد اختفت تماما من مصر ابتداء من أواخر الأسرة الثانية عشرة بل وفي عصر الدولة الحديثة أيضًا. أما في طيبة فقد سبق لنا القول بأنها لم تلعب دورًا هامًا في عصر الأسرة الثانية عشرة ولم يظهر فيها أمراء الأقاليم مُنذ أواخر الأسرة الحادية عشرة، ومرد ذلك إلى أن البيت المالك فيها قد نشأ من أسرة أمير الإقليم نفسه.

إلا أن علينا أن نذكر في هذه المناسبة المقبرة الصخرية الوحيدة التي شيدها وزير سنوسرت الأول لزوجته في تلك المنطقة المعروفة باسم جبانة "شيخ عبد القرنه" على الشاطئ الغربي لمدينة طيبة، وهي الجبانة التي اكتظت في عصر الأسرة الثانية عشرة بمقادر عديدة بعضها متسع الأرجاء وبعضها ضيق صغير.

لقد تحدثنا على الصفحات السالفة عن انتشار عقيدة أزوريس إبان عصر الاضمحلال الأول ونوهنا بمزاياها وكذلك بنواحي الضعف فيها. ولقد تركزت هذه العقيدة أثناء الدولة الوسطى في أبيدوس حيث شهدت مقبرة أزوريس الذي لقي حتفه على أيدي أخيه الشرير ست. ورأى الناس في مقبرة أحد ملوك الأسرة الأولى الذين دفنوا هناك، مقبرة لازوريس وقد عثر على تابوت يرجع إلى عصر متأخر وضع هناك على أنه تابوت أزوريس.

وهكذا أصبحت أبيدوس وفيها مقبرة الإله أزوريس الهدف الذي يرنو إلى الحج إليه كل مصري من عبدة الإله أزوريس، كما أصبح كل مصري يتوق إلى تشييد مقبرة لنفسه في أبيدوس (وكانت تبقى أحيانًا خالية ولا تستعمل

للدفن) وإذا لم يستطع هذا، فكان يكفيه أن يقيم شاهد قبر حجري عند مدخل مقبرة الإله. وعثرنا على كثير من هذه الشواهد الحجرية التي كانت غالبًا ما تحوي نقوشًا كثيرة وهي موزعة على معظم متاحف العالم وترجع إلى عصر الدولة الوسطى، ونشأت على الأغلب في هذه الفترة تلك التمثيلية التي تتحدث عن قصة حياة أزوريد ونهايته المحزنة وكانت تعرض في أبيدوس ولو أنه لم تصل إلينا عنها إلا بعض الإشارات التي لا تعطى إلا صورة غير كاملة عما كان يجري أثناء عرض هذه التمثيلية.

وكانت السياسية الداخلية في عصر الدولة الوسطى هي حجر الزاوية في حياة الملوك ولذلك نجدهم جميعًا يركزون نشاطهم عليها فيأخذون أولًا في تثبيت أقدامهم في الحكم بعد الفوضى التي سادت مصر إيران عصر الاضمحلال الأول، ثم في تعمير منطقة الفيوم، وأخيرًا في القضاء على سلطان أمراء الأقاليم ونفوذهم.

كل هذه المشكلات العويصة أخذت منهم كل عنايتهم، فلم يستطيعوا توجيه جهودهم نحو السياسة الخارجية التي لم تفز إلا بالمرتبة الثانية في الأهمية، وعلى كل حال نستطيع أن نؤكد بأن عصر الدولة الوسطى، تمامًا كعصر الدول، القديمة، قد مضى دون أن تحدث فيه حروب طاحنة أو محاولات الاستعمار مناطق تقع فيما وراء حدود مصر الطبيعية، وفي نفس الوقت علينا إلا ننظر إلى العمليات الحربية التي قام بها ملوك الأسرة الثانية عشرة لضم منطقة النوبة السفلى فيما بين الشلال الأول والثاني، على أنها معارك على نطاق واسع.

ولقد تحدثنا فيما سبق عن البعثات التجارية التي قام بها أمراء جزيرة اليقانتين في مناطق النوبة السفلى ووصلوا بها أحيانًا إلى منطقة الشلال الثالث أي إلى مدينة كرمه (وتقع حاليًا في مديرية دنقلة). لقد بدأ سنوسرت الأول حملاته الحربية على منطقة النوبة السفلى واستطاع سنوسرت الثالث من إخضاعها تمامًا وضمها إلى مصر ووصلت إلينا من عصر هذا الملك (١٨٧٨ – ١٨٤١ ق.م)، لوحتان حجريتان كبيرتان، عش عليهما "ليبسيوس" عند قلعة سمنة التي شيدها الملك بالقرب من الشلال الثاني واعتبرها بمثابة أقصى الحدود الجنوبية لمصر: واللوحتان محفوظتان بمتحف برلين.

ولقد شيدت عدة قلاع أخرى في منطقة بلاد النوبة السفلى لحماية أقاليمها، وذلك نظرًا لأنها اعتبرت منطقة استخراج الذهب، وكان المصري يحصل عليه أما كتبر من شواطئ النيل وأما كمعدن مخلوط في عروق الجبال وبخاصة في منطقة وادي العلاقي الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بلاد النوبة السفلى، وهذا المنجم بالذات بقي مستغلًا حتى العصر الحديث.

واعتبر مصريو الدولة الوسطى بلاد النوبة كمنطقة ضموها إلى بلادهم ومن ثم نظروا إلى أهلها كشعب أجنبي وجب عليه الخضوع لهم. وانتشرت هناك في هذه الفترة حضارة بدائية، اصطلح العلماء على تسميتها "حضارة المجموعة الثالثة" حملها إلى هذه المنطقة مجموعة من الناس من الحاميين أتوا من الغرب وحطوا رحالهم فيها حوالي الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، ولعل من أهم مميزات هذه الحضارة تلك النماذج الرقيقة والدقيقة الصنع من الأواني الفخارية والتي أخذت شهرة كبيرة بين الأثريين المعنون بالدراسات المصرية.

ولقد قام هؤلاء بالحفر والتنقيب في مناطق مختلفة وعثروا على جبانات عديدة من هذا العصر، وتمكنوا في آخر الأمر من أن يحددوا مدينة عنيبة الحالية كمركز رئيسي لهذه الحضارة، وإذا كنا نعتبر حضارة "المجموعة الثالثة" النوبية في مظهرها وخلوها من الكتابات من حضارات ما قبل التاريخ، فإننا نؤكد أنها ترجع في الواقع إلى الدولة الوسطى وذلك للعثور على قطع كثيرة وأهمها "الجعارين"، من بين محتويات المقابر هناك، ويظهر بوضوح أنها صناعة مصرية صدرت إلى هذه المنطقة. غير هذا فإن الصناعات المختلفة التي نشأت في مدينة كرمه والتي سبق الحديث عنها، بقيت مصانعها تقوم بنشاطها الكبير في عصر الدولة الوسطى.

وكان يقوم سكان هذه المدينة باتصالات تجارية واسعة مع حكام مدينة أسيوط كما يبدو واضحًا من الآثار التي عثر عليها في جبانتهم الفسيحة هناك، ونخص بالذكر التمثال الجميل الذي وجده "رايزنر" والذي يخص زوجة أحد أمراء أسيوط من الأسرة الثانية عشرة، عثر عليه في مقبرة من النوع المنتشر هناك والذي يبدو طرازه المستدير الضخم على أنه من الطرز التي سادت بين أقوام لم يتمتعوا بحضارة متقدمة.

أما المنطقة الثانية التي فازت بعناية ملوك الأسرة الثانية عشرة وعملوا على إقامة الحصون فيها، فكانت تلك التي يخترقها الطريق الموصل بين مدينة قفل ومنطقة وادي الحمامات على البحر الأحمر، وهو طريق هام استخدمه المصريون مُنذ أول عصورهم، لأنه كان يؤدي إلى مناجم النحاس والفيروز في جبال شبه جزيرة سيناء، كما أنهم اخترقوه ليصلوا إلى البحر الأحمر ومنه إلى بلاد بونت حيث البخور، والتي اتفق العلماء أخيرًا على أنها تقع في بلاد الصومال، وأخذ المصريون يترددون عليها مُنذ الأسرة الخامسة

كما أثبتت ذلك النصوص التي خلفها لنا الملك "سا حو رع"، غير هذا فعلى جانبي هذا الطريق تقع المحاجر التي استخرج منها المصريون حجر الجرانيت الأسود (وهو الذي يخطئ الكثيرون بتسميته حجر البازلت) وصنعوا منه تماثيلهم. واعتاد الموظفون المصريون الذين أشرفوا على الأعمال هناك أن يسجلوا نشاطهم بنقش نصوص تختلف طولًا وقصرًا، وذلك على سطوح الصخور هناك، ونستطيع الآن أن نستمد الكثير من المعلومات التاريخية عن ملوك الأسرة الثانية عشرة من هذه النصوص.

استعمل المصريون طريق وادي الحمامات للوصول إلى البحر الأحمر ومن ثم إلى شبه جزيرة سيناء ولكنهم لم يستعملوه للوصول إلى فلسطين وسوريا، إذ كان طريقهم إلى آسيا يسير بجوار الشاطئ من شمال شرقي الدلتا، وهو يكاد يكون نفس الطريق الذي تخترقه السكك الحديدية في عصرنا الحالي متجهة إلى فلسطين، وتساعدنا قصة "سنوهي" في التعرف على كثير مما كان يجري في فلسطين والمناطق الجنوبية من سوريا في عصر الأسرة الثانية عشرة، ويبدو أن سنوهي وهو من كبار رجالات الدولة، قد اعتقد بأن الخطر يحيق به بعد أن انتقل العرش إلى سنوسرت الأول بعد موت أبيه "أمنمحيت الأول" فأسرع بالهرب إلى فلسطين ووصلها بعد مخاطرات جمة.

واستضافه هناك أحد شيوخ البدو وعاش معه كأحد أفراد القبيلة عدة سنوات حتى سمح له الملك سنوسرت الأول بالرجوع إلى وطنه وتحدث "منوهى" في قصته عن فلسطين واصفًا حياة البدو فيها وأعطي صورة واضحة عن جغرافيتها ومحصولاتها.

حين رجع "سنوهي" إلى مصر كان قد بلغ سن الكهولة حتى أنه لما ظهر في بلاط سنوسرت الأول لم يستطع أحد التعرف عليه نظرًا لتغير ملامحه ولأن السنين التي أمضاها في فلسطين كانت قد جعلت منه شيخًا من شيوخ البدو، ووصفت القصة ترحيب الملك والفرح الذي عم القصر حين عرفوا شخصية "سنوهي" الذي كان من أقرب الناس إلى الملك.

ولم يصلنا من أخبار الحملات الحربية التي قام بها ملوك الأسرة الثانية عشرة في فلسطين إلا ذلك النص الذي ورد على لوحة الضابط المدعو "سوبك شو" الذي عثر عليه في أبيدوس، وهو يذكر حملة الملك سنوسرت الثالث التي وصل بها إلى بلدة "سكيم" التي تقع الآن في أواسط فلسطين، ومع أن هذا النص لا يتحدث إلا عن حملة واحدة نجد أن الاغريق القدماء قد تغنوا ببطولة هذا الملك الذي أطلقوا عليه اسم "سيزوستريس" والذي قالوا عنه انه وصل إلى بلاد السيكيتيين أي توغل في آسيا حتى شواطئ البحر الأسود، ولا شك في أن بعض أخبار الحملات التي قام بها كل من تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني (وكلاهما من أبطال الدولة الحديثة في شئون الحرب، ولو أنهما لم يصلا إلى البحر الأسود)، قد وصلت إلى الإغريق ونسجوا حولها بعضًا من القصص جعلوا البطل فيه هو "سيزوستريس".

ونحن نكاد نؤكد بأن هؤلاء الملوك الذين حكموا مصر إبان فترة الأسرة الثانية عشرة قد بلغوا حدًا من القوة والمجد، جعل المصريين أنفسهم يحيطون ذكراهم بنوعٍ من القدسية أبقت عليهم خالدين في قلوبهم، وانتقلت بعد ذلك هذه القدسية إلى الإغريق الذين رأوا فيهم أبطالًا حق عليهم أن يمد، جلوا بطولتهم في كتبهم، إلا أننا في نفس الوقت ننكر تمامًا استيلاء مصريي الدولة الوسطى على منطقة فلسطين.

ولعل ما يدل على اتساع نطاق العلاقات التجارية في عصر الأسرة الثانية عشرة وامتدادها إلى بلاد تقع بعيدًا عن الحدود المصرية، العلاقة بين مصر وكريت من ناحية ومصر وبابل من ناحية أخرى.

ونضرب لذلك مثلًا التمثال الذي عثر عليه بين أطلال قصر كنوسوس وقد نقشت عليه بعض الكتابات الهيروغليفية، والذي يرجعه "أيفرز" (وهو من أكبر العلماء الذين تخصصوا في فن الدولة الوسطى وبخاصة في نحت التماثيل) إلى أوائل الأسرة الثانية عشرة، وهناك عدة أوان عثر عليها بمصر في مقابر ترجع إلى عصر هذه الأسرة وهي من النوع الذي يحمل زخارف ملونة والذي انتشر في كريت في عصر "الكمارس" أي في الفترة الثانية من العصر المينوي، وهكذا نستطيع تاريخ فترة الحضارة الكويتية المعروفة باسم "الكمارس" وتحديد عصرها بعصر الدولة الوسطى في مصر.

أما فيما يتعلق بعلاقة مصر مع بابل فيدل عليها ما عثر عليه في مدينة "طود" جنوبي "طيبة" من آثار كتب عليها اسم الملك أمنمحيت الثالث (١٩٢٩ – ١٨٩٨ ق. م) ومن بينها أيضًا بضعة تماثيل صناعتها بابلية وكذلك بضعة أختام اسطوانية بابلية ترجع إلى عصر الأسرة الثالثة لمدينة "أور" (قارن ما جاء في كتاب "مور تجارت" عن هذا الموضوع) وهكذا نستطيع لأول مرة أن نؤكد وجود علاقات تجارية بين مصر وبلاد بابل وقعت في العمور التاريخية.

٣- الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة (من ١٧٧٨ إلى حوالي ١٦٧٠ ق.م)

انتهت الأسرة الثانية عشرة بالملك "أمنمحيت الرابع" الذي دلت الأبحاث الحديثة على أنه اشترك فقط في الحكم مع أبيه أمنمحيت الثالث، أما القوائم الملكية فتذكر بعده الملكة "سوبك كارع" (١٧٧٨ ق.م) وهي إحدى بنات أمنمحيت الثالث وكثيرًا ما تذكر تحت اسم "نفرو – سوبك رع" وعاشت مصر بعد ذلك في عصر تملؤه الاضطرابات يعرف بعصر الاضمحلال الثاني أو عصير الهكسوس، جلس على عرش مصر في هذه الفترة ملوك عديدون ولكن فترات حكمهم كانت قصيرة.

أما عن الدين والأدب فلم تحدث في هذه الفترة تلك الهزات العنيفة التي حدثت في فترة الاضمحلال الأول، بل يمكن أن نقصر عوامل الاضمحلال على السياسية فحسب ونرجعها إلى دخول شعب الهكسوس أرض مصر. وهكذا نجد أنفسنا أمام فجوة عميقة من التاريخ المصري تشطره شطرين، ويعتبر عصر الدولة الحديثة الذي أعقب هذه الفترة عصرًا جديدًا بدأت مصر فيه عهدًا جديدًا في كل مظاهر حضارتها.

وتعتبر الأسرة الثالثة عشرة إحدى أسرات الدولة الوسطى، أما فترة الهكسوس في مصر وهي فترة كثر الحديث عنها ولو أنه كان في معظمه حديثًا لا يقوم على أسس عامية – هذه الفترة درسها أخيرًا الدكتور "هانز شتوك" دراسة دقيقة واعتمد فيها على الآثار وبخاصية الكميات الكبيرة من الجعارين وأني أعتمد في حديث عنها على النتائج العلمية والتاريخية التي وصل إليها.

وأبدأ القول بأن هناك من الملوك من عدوا من الأسرة الثانية عشرة ومن بينهم ماك يدعى "أمنمحيت – سوبك حوتب" ولقد ورد اسمه بين آخرين في بردية بولاق رقم ١٨، وهي إحدى البرديات التي كتبت في طيرة وتتحدث عن المرتبات العينية التي كانت تصرف لرجالات البلاط في ذلك العصر، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل بأرقامها المتعددة على ما كان عليه البلاط في ذلك الوقت من فقر مدقع.

ولقد وردت إلينا من ذلك العصر أسماء الملوك أطلق على الكثيرين منهم اسم "سوبك حوتب، أو بمعنى آخر كانوا جميعًا ممن يقدسون الإله التمساح ليس في منطقته، الفيوم" فحسب بل في مركز عبادته بمصر العليا أي في منطقة الجبلين إلى الجنوب من طيبة.

وهناك ملك واحد اسمه "نفر حوتب" يتبع هذه المجموعة ويقرر الدكتور "شتوك" أن هذه المجموعة من الملوك التي سميت باسم "سوبك حوتب" والتي كانت تسيطر على أطراف مدير كلها، كانت تسير في نظم حكمها البلاد على نفس الطريقة التي استنها ملوك الأسرة الثانية عشرة ومن أجل هذا فقط يربط المؤرخون بين هذه الفترة من الأسرة الثالثة عشرة وبين الدولة الوسطى.

ونجد تماثيل ضخمة لبعض ملوك هذه الفترة بعضها على هيئة أبي الهول كما حدث في عصر الأسرة الثانية عشرة مع فارق واحد وهو أن هذه التماثيل ينقصها الكثير من الدقة وحسن التمثيل التي وصفناها بالنسبة إلى عصر الأسرة الثانية عشرة.

وتمكن الدكتور "شتوك" أيضًا من أن يثبت بطريقة لا تقبل الشك أن ملوك هذه المجموعة بقوا قابضين على دفة الحكم مدة تقرب من خمس وخمسين سنة أي من (١٧٦٥ إلى ١٧١٠ ق.م) وأنه حتى هذا العام لم يظهر الخطر الهكسوسي ولم نشعر بأي مظهر من مظاهر حضارة أجنبية دخلت مصر.

أما الأسماء الملكية الكثيرة التي وردت في بردية تورين بجانب أسماء ملوك مجموعة "سوبك حوتب" فلابد أنها أسماء لأمراء صغار حاول كل منهم أن يدعي لنفسه العرش وهو في منطقته حيث تمتع بشيء من السلطان ولو لفترة قصيرة. وعلى هذا لا نعتبرهم جزءًا من أجزاء التاريخ المصري بل هم في عرفنا ليسوا إلا أفرادًا ادعوا الحكم ولم ينالوه.

وهذا هو ما حدث بالنسبة إلى ملوك الأسرة الرابعة عشرة التي ذكرها "مانيتون" وقال أنهم نشئوا في مدينة "خويس" بغرب الدلتا وأنهم حكموا مصغر منها، ولكن لم تصلنا أية مخلفات أثرية من عصر هذه الأسرة.

وإذا أردنا أن نفسر ما قاله مانيتون فيجب علينا أن نرجح ظهور أسرة محلية في أصقاع غرب الدلتا المملوءة بالمستنقعات استطاعت أن تنفرد بالحكم المحلي هناك ولكنها لم تستطع مطلقًا أن تمد سلطانها على مناطق مصر كلها ولا يمكن أن تكون قد لعبت دورًا خطيرًا في التاريخ المصري.

٤- "عصر الهكسوس" (أو عصر الاضمحلال الثاني) (الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة من ١٦٧٠ إلى ١٥٧٠ ق.م)

كلمة "هكسوس" ليست من أسماء الأعلام بل هي لقب استعمله المصريون للتدليل به على "الحاكم الأجنبي"، أو بمعنى أدق "حاكم البلاد الأجنبية" ولقد ورد هذا اللقب في قصة "سنوهي" ويؤدي هذا المعنى. وقصة سنوهي ترجع إلى عمر لم يكن فيه الهكسوس قد ظهروا على المسرح السياسي، ويرجع استعمال الكلمة إلى "مانيتون" ولكن الخطأ ينصب على أن معناها عنده كان "ملوك الرعاة" ولعل هذا الخطأ بعينه هو الذي دفع الناس إلى أن يروا في تاريخ الهكسوس ما يحقق ما ورد في "العهد القديم" من قصص يعقوب ويوسف لأن هؤلاء كانوا في عرفهم الأجداد الأول للبدو الرعاة الذين تجولوا في فلسطين.

إلا أن الدكتور شتوك أوضح في كتابه سالف الذكر كيف أنه في أواخر الأسرة الثانية عشرة ظهرت أساليب فنية أجنبية وبخاصة في زخارف الحفارين وأن هذه الأساليب الجديدة كانت قد أتت من غرب أسيا وانتشرت في الدلتا ولم تتعدها إلى مصر العليا بل من الواضح أيضًا أن هناك نوعين من هذه الأساليب الزخرفية، الأول يتبع الطراز المصري الصميم وهو من مصر العليا، والثاني وقد غلب عليه الطابع الآسيوي وهو من مصر السفلى.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفرق بين جعارين الأسرة الثالثة عشرة بطابعها المصري الخالص وبين جعارين الهكسوس بأسلوبها الآسيوي.

ولم تكن حملة الهكسوس على مصر من الحملات التي قام بها شعب له جنسه المعين الخالص بل قامت على يد مجموعة من الشعوب التي سكنت مناطق أسيا القريبة التي اضطرت أن تهاجر من أوطانها تحت ضغط

أقوام أتوا من هضبة أرمنيا وعرفوا في التاريخ باسم قبائل الخوريين واستقروا حوالي عام ٢٠٠٠ق.م في مناطق نهر الفرات الشمالية أي في شمال سوريا.

ولقد تزعم هؤلاء الخوريين قادة ينتمون إلى الجنس الآري وتمكنوا من أن يقيموا دولة في شمال سوريا ظهرت على المسرح السياسي في عصر الدولة الحديثة تحت اسم "دولة الميتاني"، ونستطيع أن نؤكد أن الخوريين لم يستطيعوا في يوم من الأيام أن يشيدوا في منطقة الشرق الأدنى إمبراطورية شاسعة الأطراف ضموا إليها مصر، كما لم يستطيعوا، أو قل لم يستطع قادتهم من الآريين أن يدخلوا مصر تحت اسم الهكسوس.

والذي حدث هو أن غارة الخوريين على مناطق سوريا الشمالية واستقرارهم فيها، نشرت الفزع والرعب في قلوب سكانسوريا وفلسطين فهرب الكثير منهم، واندفعوا نحو الجنوب ووصلوا في هربهم إلى مصر.

أخذ العلماء بنظرية مانيتون ونسبوا الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة إلى الهكسوس.

ولقد أنتجت الدراسة الحديثة لورقة تورين البردية، توافقًا كبيرًا بين ما ذكرته هذه البردية من أسماء الملوك الأسرة الخامسة عشرة وما ذكره مانيتون. ونطلق على هؤلاء الملوك اسم "ملوك الهكسوس الكبار"، وعددهم ستة.

ومما يُؤسف له أن الجزء المخصص لهذا العصر في بردية تورين قد حوى أسماء كثيرة لا رابط بينها بحيث لا نستطيع أن نستشف منها ما يساعدنا على حل المعضلات التي تقابل المؤرخ التفهم هذا العصر.

لقد ذكر مانيتون للأسرة السادسة عشرة من الهكسوس أسماء ملوك بلغ عددهم الاثنين والثلاثين اسمًا وحدد لحكمهم فترات بالغ في تقدير عدد سنيها، والمجموعة سالفة الذكر نذكرها تحت اسم "ملوك الهكسوس

الصغار"، وإذا انتقلنا إلى بردية تورين فنحن نلاحظ أن الجزء الذي يلي أسماء ملوك الأسرة الخامسة عشرة قد حوى عددا كبيرا لملوك لم يذكر لهم سنى حكم ولم يقسمهم إلى أسرات، ولا نشك في أن هذا العدد الكبير يحوي أيضًا أسماء الملوك الذين حكموا مصر إبان فترة الأسرة السابعة عشرة.

ونحن نعتب على "وينلوك" الذي ذكر في كتابه عن الدولة الوسطى هذه الأسماء نفسها على أنها حكمت مصر في فترة الأسرة السادسة عشرة، ذكر هذا دون أن يبدى أسبابًا واضحة.

لقد اعتاد المؤرخون وعلماء الآثار أن يحددوا مدة قرن كامل للفترة التي استمر حكم الهكسوس فيها لمصر، ونحن نعتمد كثيرًا على المقارنات التاريخية بين مصر ومناطق آسيا القريبة وهي مقارنات تقوم على قرائن متعددة.

ويحدد "شتوك" للأسرة الخامسة عشرة (أسرة ملوك الهكسوس الكبار) الفترة من ١٧١٠ إلى ١٦١٠ ق.م، كما يحدد للأسرة التالية أي السادسة عشرة (أسرة ملوك الهكسوس الصغار) وعاصر البعض منهم ملوك الأسرة السابعة عشرة في طيبة، الفترة من ١٦١٠ إلى ١٥٧٠ ق.م.

لقد بالغ الكثيرون في تقدير أهمية عصر الهكسوس بالنسبة إلى مصر وبالنسبة إلى تاريخ العالم كله، ومثل هذا ما قاله "شبنجلر" في كتابه Untergang des Abendlandes (اضمحلال حضارة الغرب) عن هذا العصر.

وفي الواقع نحن لا نعرف إلا القليل عن هذه الفترة المهمة من التاريخ المصري، ويرجع ذلك إلى أسباب جوهرية يعرفها الجميع، وهي أن الهكسوس استقروا طوال حكمهم في الدلتا، وهي منطقة لم تبق لنا على آثار كثيرة مثل مصر العليا التي تمتاز بجفاف تربتها.

هناك أسماء كثيرة لملوك الهكسوس لا يمكن تحقيقها لغويًا تحقيقًا يقربها إلى فهمنا فبينما نجد أسماء مصرية مثل "أبو فيس" نجد أسماء غربية مثل "خيان" وأخرى سامية مثل "يعقوب حر" و"عنات حر". ولقد وصلت إلينا من "حيان" (الأسرة الخامسة عشرة من ١٦٤٤ – ١٦٠٤ ق.م) مجموعة كبيرة من الآثار عثر عليها في مصر، غير أن هناك غطاء لآنية من حجر الديوريت يحمل اسمه وعثر عليه بين أطلال قصر "كنوسرس" بجزيرة كريت، كما عثر أيضًا في أحد حوانيت تجار العاديات ببغداد على تمثال صغير من حجر البازلت يحمل اسمه وهو سد رابض، ولا نشك في أن التمثال عثر عليه أولًا بمصر ثم تسرب بطريقة ما إلى بابل.

واعتمد الكثيرون على هاتين القطعتين وادعوا أن حيان، استطاع أن يشيد إمبراطورية شاسعة الأطراف.. إلا أننا الآن نعارض هذه النظرية ولا تقيم وزنًا، لمثل هذه القرائن الضعيفة.

ونحن لا نود أن نعتقد أن غارة الهكسوس على مصر كانت حملة كبيرة شنها شعب متحد تواق إلى الغزو والحرب، بل أن الذين غزوا مصر كانوا شرذمة من جند عر كوا الحياة العسكرية وبرزوا فيها، وتزعمهم قادة غير مصريين، كما أنهم دخلوا البلاد بجهاز إداري تكون من رجال لم يسبق لهم معرفة أحوال مصر.

واستقر ملكهم ومعه جهازه الإداري في شرق الدلتا، أي في أقرب منطقة تجاور فلسطين موطنهم الأصلي. وقد شيدوا في أهم المواقع الإستراتيجية بالبلاد حصونا منيعة. ويبدو فيما عدا ذلك أن الأحوال في مصر بقيت تسير سيرها الطبيعي. وأخذ كثير من رجال الآثار يؤكدون عثورهم على مقابر الهكسوس في كثير من المناطق المصرية، ولكن هناك منطقة واحدة عثر فيها

على هياكل بشرية يمكن التأكيد بأنها كانت لقوم من الساميين، هذه المنطقة تقع بالقرب من "أبو صير الملق" عند مدخل الفيوم، واستطاع العلماء تأريخ هذه الدفنات التي كانت الجثة فيها توضع مُمتدة، على أساس عثورهم فيها على جعلان (جعارين) نقشت على بطونها أسماء الملوك الهكسوس، ولوجود أنواع من الأواني الفخارية غير مصرية الصنع وذلك بجانب الأواني المصرية العادية.

كانت "أواريس" هي عاصمة ملوك الهكسوس ومكانها في شرق الدلتا، ويقول مانيتون أنها شيدت في عصر أول ملك من ملوك الهكسوس. واختلف الناس طويلا في تحديد موقع هذه العاصمة، إلا أنه أصبح من المؤكد الآن أن موقعها هو بعينه موقع عاصمة الرعامسة (أي "بررامسر") ثم تانيس فيما بعد.

ويبدو أن معظم أجزاء مصر كانت تابعة لحكم الهكسوس ولكن من الثابت أن الدلتا كانت هي منطقة نفوذهم الأولى، إلا أن كثيرًا من النقوش الخاصة بملوك الهكسوس عثر عليها في أقصى الجنوب من مصر العليا، إذ عثر في "جبلين" إلى الجنوب من طيبة على نقش منها، ولا يغرب عن بالنا أن هذه كانت تقع في وسط المنطقة التي تركزت فيها حركات الثوار الذين ناوءوا الهكسوس.

وفي حين نشأت الأسرة الثالثة عشرة في جبلين، نجد أن طيبة كانت موطن الأسرة السابعة عشرة التي حررت البلاد من نير حكم الهكسوس، وهو أمر سيأتي الحديث عنه على الصفحات التالية، وعثر الباحثون على جعلان منقوشة بأسماء ملوك الهكسوس في منطقة كرمه البعيدة في أقاصي السودان، وهو أمر لا يعني مطلقًا أن الهكسوس كانوا قد مدوا سلطاتهم إلى السودان.

كان الإله سمت هو المعبود المصري الرئيسي الذي فاز بعبادة

الهكسوس له. بعد أن أطلقوا عليه اسمًا ساميًا هو "سوتخ"، وهو الاسم الذي اعتقد العلماء لفترة طويلة أنه يمثل التسمية الكنعانية أو السامية لإله الحرب أو لإله الرعد "بعل" والذي كثيرًا ما ورد اسمه في العهد القديم. إلا أن "يونكر" استطاع أخيرًا أن يثبت أن الإله الجنوبي الذي عبد باستمرار في مصر العليا تحت اسم "نوبتي" أو "سمت"، كان يعبد أيضًا في منطقة تقع على مقربة من "أواريس" عاصمة الهكسوس في الدلتا، وإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة مطلقًا في أن يصبح "سوتخ" (وهو اسم يمكن أن يكون محرف من الاسم الأصلي "ست") إلها للهكسوس.

وبقي هذا الإله محتفظًا بمكانته ونفوذه في هذه المنطقة عندما شيدت فيها فيما بعد عاصمة الرعامسة "برراميسو" بل حين سميت باسم تانيس.

ومما لا شك فيه، أن عصر الهكسوس، بما ساد فيه من فوضي واضطراب، لم يسهم في نهضة الفن بالبلاد، ومن أجل هذا كانت آثار هذا العصر قليلة، بحيث أن ما عثر عليه منها يكاد يعد على الأصابع، وأراد بعض العلماء أن ينسب إلى أواريس، عاصمة الهكسوس، فنا ذا طابع خاص، يسمو في دقته إلى حد الروعة والجمال، وأطلقوا عليه تمييزًا له اسم "طراز تانيس"، نسبة إلى تانيس العاصمة التي شيدت في العصور المتأخرة في نفس المكان، إلا أنه ظهر أن أهم القطع التي تنسب إلى هذا الطراز لا علاقة لها بعصر الهكسوس بل ترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة، ونخص بالذكر منها التماثيل الفريدة من نوعها والمعروفة باسم "تماثيل أبي الهول "التانيسية" والمحفوظة الآن بالمتحف المصري. ومن أسباب إرجاع هذه التماثيل إلى عصر الهكسوس أن هناك نقوشًا أضيفت إليها كما دعا شكلها الغريب العلماء في أول الأمر إلى الاعتقاد بأنها تماثيل لملوك الهكسوس، ثم تبين بشكل

قاطع أنها تماثيل الملك أمنمحيت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة.

والشكل الغريب الذي تتميز به هذه التماثيل أنها ليست على غرار تماثيل أبي الهول التي تتكون من جسم أسد ورأس إنسان يتحلى بلباس الرأس على هيئة المنديل، بل أنها تمثل جسم ورأس الأسد وليس فيها من سمات الإنسان سوى الوجه الذي يبدو كقناع لوجه إنسان وضع على رأس أسد، فيحين نجد عرف الأسد يغطى الرأس ويتكاتف حول الوجه.

ولست أود أن أشغل القارئ هنا بحديث مسهب عن طراز تانيس، إلا أننا نستطيع أن نذكر في هذه المناسبة مجموعة أخرى من التماثيل عثر عليها في نفس المنطقة مع تماثيل أبي الهول سالفة الذكر، وهي منحوتة من حجر أسود صلب ويبدو أنها تمت إلى عصر مُتأخر، إلا أنها تشبه تماثيل أبي الهول في هيئتها الغربية وملامح وجوهها غير المصرية، وأقصد بذلك التماثيل المعروفة تحت اسم "مقدمي القربان من السمك"، والمحفوظة بالمتحف المصري، وكذلك التمثال المعروف في متحف "ترمن" بروما تحت اسم "ملك الرعاة" ان هذه التماثيل لا تتصل بالأسلوب الفني المصري وهي تخرج عن نطاقه وبخاصة ذقونها الكثيفة التي لا مثيل لها عند المصريين.

ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن مظهر ملوك الهكسوس أو ما يتصفون به كأفراد من شعب أجنبي، فكان لا بد لهم ملامح خاصة بهم، وذلك لعدم عثورنا على تمثال واحد لهم، اللهم إلا تمثال صغير من العاج محفوظ الآن بالمتحف البريطاني بلندن وكان قد عثر عليه في مقبرة بأبيدوس ومعه مجموعة من الأواني الفخارية المصرية العادية، هذا التمثال يمثل الجزء الأمامي لأبي الهول برأس بشرية لملك، ملامح وجهه سامية بحتة، ويبدو واضحًا أن القدمين الأماميتين لهذا التمثال تطأ أسيرًا له الملامح المصرية المعروفة. هذه

القطعة التي لا شك في أنها كانت تستعمل كمقبض لصندوق، تعتبر تمثالًا صغيرًا الأحد ملوك الهكسوس الساميين.

وقبل أن نختتم هذا الفصل نجد لزامًا علينا أن ننوه بصنيع كبير قدم ملوك الهكسوس الأجانب إلى المصريين، فقد تعلموا منهم طريقة استعمال الخيول في جر العربات الحربية. ويبدو أن هؤلاء الغزاة الآسيويين استطاعوا مداهمة مصر ودخولها بسهولة لأنهم عرفوا استعمال الحصان والعربية الحربية، ووصل الحصان إلى منطقة الشرق القديم وإلى سوريا على وجه الخصوص من مناطق بعيدة نائية، فهو أتي من أوروبا عن طريق بلاد البلقان، أو من جنوب روسيا عن طريق بلاد القوقاز إلى آسيا الصغرى ثم نقله "الخوريون" إلى المناطق العليا من نهر الفرات.

لم يكن البابليون يعرفون الحصان ويدل على ذلك تسميتهم له في العصور المتأخرة "بحمار البلاد الجبلية" وكذلك كان المصريون الذين لم تحو لغتهم لفظ يطلقونه على الحصان يستعملون كلمة أجنبية استعاروها من لغة سامية. وظهر الحصان لأول مرة في رسوم مقابر الفترة المبكرة من عصر الأسرة الثامنة عشرة، أي مباشرة بعد عصر الهكسوس، وحوت هذه الرسوم أيضًا العربة الحربية والعربة التي استعملت في الصيد.

وهُناك تمثال واحد خشبي محفوظ في متحف نيويورك يمثل فارسًا يمتطى ظهر حصان، ويبدو أنه يرجع أيضًا إلى أوائل عصر الأسرة الثامنة عشرة، والسبب في عدم استطاعتنا تحديد تاريخه أنه اشترى من أحد تجار العاديات ولم يعثر عليه في إحدى المقابر.

حقيقة نحن لا نملك رسمًا واحدًا من عصر الهكسوس، بل لم تصل إلينا وثيقة واحدة من نفس العصر، تمثل الحصان أو تذكره، ولكن ليس معنى هذا أننا نشك في أن الهكسوس لم يكونوا هم الذين أحضروا الحصان معهم إلى مصر.

هذا هو كل ما نستطيع ذكره عن الهكسوس وحضارتهم في مصر وما أسدوه إلى المصريين من نفع. ولدينا أكثر من وثيقة ترجع إلى أوائل الدولة الحديثة، وتذكر الهكسوس على أنهم شعب أجنبي، وتتحدث عن مشاعر المصريين نحو هؤلاء الغزاة، وهي مشاعر الكره لهم والغضب لوجودهم في البلاد. ومعنى هذا أنه كانت تتفاعل في مصر أحاسيس مختلفة، كانت لا بد أن تتبلور وتنتهي بحركة التحرير التي قضت على حكم الأجانب للبلاد، وحدث للمرة الثانية أن قامت حركة التحرير وإنشاء دولة مستقلة تمامًا على أكتاف أسرة طيبة كما حدث للمرة الأولى إبان عصر الدولة الوسطى، وهكذا بدأ التاريخ يتحدث عن الأسرة السابعة عشرة وعن بدء الدولة الحديثة.

الفصل الخامس

الدولة الحديثة

من (١٦١٠ إلى ٧١٥ ق.م)

هُناك اختلاف أساسي بين المراحل السابقة التاريخ مصر، التي تناولناها من قبل أي مراحل عصر الدولتين القديمة والوسطى، وبين عصر الدولة الحديثة التي نتناوله الآن.

ويكمن هذا الاختلاف في أن مجرى التاريخ في العصور السابقة يبدو لأعيننا مثل تيار بطئ السير، يتجه إلى مصبه في تؤدة واطمئنان، بمعزل عن المؤثرات الأجنبية كأنما ليس بينه وبينها أدنى اتصال.

حقًا لقد تناول الحديث في العصرين السابقين أيضًا أحداث الحروب، ومؤثرات الحضارة وعلاقات السلم. مع البلدان الخارجية، ولم تضطرهم الظروف إلى مغادرة أرض مصر، وذلك من وجهة النظر الجغرافية. إلا أن الأمر يختلف بالنسبة إلى عصر الهكسوس الذي ألممنا به أخيرًا.

لقد بدأت مصر نهضتها التي جعلت منها دولة عالمية مُنذ عام ١٥٠٠ ق. م تقريبًا نتيجة لطرد الهكسوس الأجانب من البلاد، إذ حدث للمرة الأولى في تاريخ العالم، حسبما انتهى إليه علمنا بذلك التاريخ، أن أخضع شعب دقيق التنظيم من حيث الحكم والإدارة بلدانًا وشعوبًا تقع خارج نطاق حدوده، وأدخلها في دائرة نفوذه وسلطانه وجمعها في إمبراطورية كبرى.

لم يكن هذا التوسع من نصيب أية دولة أخرى سوى تلك الدولة التي أقامها كل من "سرجون" و"نارمسين"، أي الدولة "الأكدية" التي استطاعت لفترة قصيرة أن تبسط سلطانها على المناطق فيما بين بابل والبحر المتوسط وذلك في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، ولو أن تلك الدولة الأكدية لم يقدر لها طول البقاء.

وقد ترتب على تجاوز منطقة الدولة الخاصة إلى مناطق أخرى أن دخل الشعب الغالب بطبيعة الحال، وهو الشعب المصري في حالتنا هذه، في نزاع واصطدام، مع المغلوبين الذين استغلوا كل فرصة للثورة ضد مخضعيهم ومع دول كبرى أخرى، تدعي أن لها هي أيضًا حقوقا ثابتة، أو على الأقل مطامع ينبغي أن تحصل عليها في المناطق التي استولت عليها مصر، وهكذا صارت الدولة المصرية الحديثة دولة عالمية كبرى في أقدم العصور.

ولم يعد مُمكنا أن ينظر إلى تاريخ مصر على أنه تاريخ مستقل بنفسه، بل على أساس تلك العلاقات المطردة التي تربط بينه وبين تاريخ سوريا وآسيا الصغرى أي تاريخ "الخوردين" والحيثيين ثم بينه وبين تاريخ "الآشوريين" فيما بعد.

ولو أننا في نفس الوقت نقرر أن مصر ستظل بمثابة نقطة البدء ونواة البحث بالنسبة إلى العرض التاريخي الذي سيأتي الحديث عنه على الصفحات التالية.

إن استعداد طيبة لنهضتها من جديد وقيامها بطرد الهكسوس يعتبر نقطة تحول نبدأ بها عصر الدولة الحديثة، وهو أمر اتفق عليه الجميع ولكنهم اختلفوا في تحديد نهاية هذه الدولة.

فكثير من الباحثين يحدد نهايتها بانتهاء عصر الرعامسة، أي بانتهاء عصر الأسرة العشرين، وهو العصر الذي زالت فيه الإمبراطورية المصرية وأصبحت في واقع الأمر لا وجود لها، ولكننا إذا أمعنا النظر في آثار العمارة التي خلفها لنا العهد الليبي (في الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين) لوجدنا أنها متأثرة تمامًا بروح الدولة الحديثة، هذا مع أنها شيدت في ظل عصر بلغ حدًا من التدهور سنلمس مداه على الصفحات التالية، وعلى هذا فنتناول عصر الأسرات من الحادية والعشرين إلى الرابعة والعشرين على أنه عصر تدهور واضمحلال أتي في نهاية الدولة الحديثة، وهذا يطابق تمامًا التقسيم الزمني الذي اتبعته في العرض الذي قدمته في كتابي عن تطور العمارة المصرية.

كما أنه يطابق كذلك فترات التدهور والاضمحلال التي أتت بعد كل من الدولتين القديمة والوسطى.

أما مرحلة الختام في التاريخ المصري التي تعارف على تسميتها – العصر المتأخر، فهي تبدأ بالأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية.

ويجدر بي أن أوضح الطريقة التي سأتبعها في تقسيم الباب الطويل المخصص لعصر الدولة الحديثة وذلك طبقًا للنظرة التي عرضناها آنفًا والتي تجعل منه عصرًا يبدأ حوالي عام ١٦١٠ ق.م وينتهي حوالي عام ٧١٥ ق.م والطريقة هي تقسيم هذا العصر إلى خمسة فصول تتفق تقريبًا مع الفصول التي استخدمتها في العرض الذي قدمته للفن المصري في كتابي:

"Scharff, "Handbuch der Archaeologie.

١- نشأة الإمبراطورية المصرية (١٦١٠ق.م إلى ١٤١٣ ق.م)

قامت حركة التحرر من حكم الهكسوس الأجنبي في مصر العليا مرة أخرى، كما قامت من قبل في طيبة في نهاية فترة الانتقال الأولى عند تأسيس الدولة الوسطى، فهُناك استطاعت أسرة من الأمراء الوطنيين أن تحتفظ بنفوذها المحلي أثناء سيطرة الهكسوس على مصر – ويبدو لنا حتى الآن أن هذه الأسرة لا ترتبط بأية قرابة أو نسب مع الأسرة الثالثة عشرة التي ظهرت في مصر العليا، كما أنها لا تتصل بأسرة، الاناتفة والمناتحة، أي الأسرة الحادية عشرة الطيبية الأصل، هذا مع أن بعض ملوك الأسرة السابعة عشرة تسموا باسم "أنتف".

وعلى كل حال فالفارق الزمني بين الأسرتين الثالثة عشرة والسابعة عشرة هو فارق قصير نسبيًا. وليس في استطاعتنا أن ندلي بمعلومات أكثر دقة عن أصل الأسرة السابعة عشرة وعن بدء ظهورها، وبخاصة أن مقابر هذه الأسرة التي بنيت على هيئة أهرامات صغيرة من اللبن قد تم الكشف عنها مُنذ زمن طويل ولكنها تحطمت تحطيمًا مريعًا ثم اندثرت تمامًا.

وقام "وينلوك" بدراسة هذه الآثار دراسة دقيقة، خرج منها بأن أصحاب هذه المقابر من الملوك هم الذين أسسوا الأسرة السادسة عشرة وبذلك اعتبرهم من عصر الدولة الوسطى، إلا أننا لا نستطيع الأخذ بهذا الرأي لأن القرائن التي قدمها غير كافية، ومن أجل هذا نفضل أن نتبع في هذا الكتاب نظرية "شتوك" التي ضمنها كتابه عن عصر الهكسوس والتي تقول بأن هؤلاء الملوك هم الذين كونوا الأسرة السابعة عشرة، واعتمد "وينلوك" في بحثه الطويل على وثيقة ترجع إلى عصر الأسرة الحادية والعشرين وهي المرونة باسم

بردية "أبوت" (١٠٠٠ ق.م) وهي الوثيقة التي تحدثنا عن البعثة القضائية التي تولت التحقيق في سرقات مقابر الملوك بطيبة. ويبدو منها واضحًا أن معظم مقابر الملوك في ذلك العصر كانت قد نهبت واضطر أولو الأمر في الأسرة الحادية والعشرين أن ينقلوا عددًا كبيرًا من جثث هؤلاء الملوك الذين حكموا مصر مُنذ الأسرة السابعة عشرة إلى آخر العشرين ويحفظوها في مخبأ كبير عثر عليه "ماسبرو" عالم الآثار الفرنسي بالقرب من معبد الدير البحري، وفي هذا جاء عرض المومياوات الكثيرة لملوك الدولة الحديثة في صالة فسيحة بالمتحف المصري.

ومن بين هذه المومياوات الملكية واحدة تظهر في رأسها آثار لإصابات مميتة ونعرف من التابوت الذي وضعت فيه هذه الجثة أنها للملك "سقنن – رع" من الأسرة السابعة عشرة، ولا شك في أنه مات مثخنًا بجراحه في حرب التحرير ضد الهكسوس ومن السهل التعرف على توابيت ملوك الأسرة السابعة عشرة وتوابيت كبار الموظفين فيها، إذ كانت هذه التوابيت على هيئة آدمية تحلت بثياب من الريش (ولذلك تعرف بالتوابيت الريشية).

وعلى كل حال فقد ظهرت في الدولة الحديثة عادة إعطاء التابوت الخارجي هيئة صاحبه بل كثيرًا ما يأخذ التابوت الداخلي أيضًا هذه الهيئة، وذلك بتشكيل طرف التابوت على هيئة رأس الإنسان ومن هنا جاءت تسميتها بالتوابيت الآدمية الشكل.

ولسنا في حاجة هنا إلى سرد أسماء أمراء طيبة الذين اعتبرتهم الوثائق المصرية المتأخرة ملوكًا للأسرة السابعة عشرة، وحسبنا أن نذكر إلى جانب اسم الملك "سقنن – رع"، الذي مات مثخنًا بجراحه في القتال، ملكًا آخر

يحمل نفس الاسم وكلاهما "يلقب بلقب "تاعا"، ويتميز أحدهما بوصف "الكبير" والآخر بوصف "الشجاع".

ونظرًا لأن أمراء طيبة هؤلاء كانوا يهيمنون على شئون إقليمهم الصغير كولاة للهكسوس في بادئ الأمر، وأنهم لم يستطيعوا تنمية سلطانهم إلا على خطوات متدرجة، فليس في وسعنا أن نعرف اليوم على وجه الدقة المناطق التي كانت تهيمن عليها الأسرة السابعة عشرة من مصر، وطبقًا لما ذكره "شتوك" حكمت الأسرة السابعة عشرة فترة تتراوح بين ٥٥ و٦٠ سنة فقط، أي على وجه التقريب في المدة من ١٦١٠ إلى ١٥٧٠ ق. م. وإذا كان الأمر كذلك فهي تتداخل إلى حد كبير في عصر أسرتي الهكسوس.

وصلت إلينا وثيقتان تحدثنا عن طرد الهكسوس من مصر.أحداهما صيغت في قالب قصة لم يتبق لنا منها مع الأسف، إلا مطلعها في بردية من الأسرة التاسعة عشرة ويبدو من ذلك جليًا أن الحدث الأساسي الذي سجلاته الدولة الحديثة، وهو حزب التحرير من ربقة الهكسوس، قد غدا موضوعًا محببًا، ونال حتى بعد عدة قرون شهرة أدبية أقبل عليها الشعب.

والوثيقة الأخرى هي لوح خشبي لأحد التلاميذ، يرجع إلى نفس الزمن الذي طرد فيه الهكسوس، ولعل الوثيقة المكتوبة على هذا اللوح كانت منقولة عن حجر تذكاري مفقود، وعلى كل حال فهي ولا شك تقرير تاريخي وليست بقصة خرافية.

وتتحدث هذه الوثيقة عن أن أمير "أواريس" (أي ملك الهكسوس) قد احتل الأشمونين في مصر الوسطى وأن اعتداء. "نوبيا" من الجنوب يهدد كذلك مصر العليا، وأن الملك المصري المدعو "كامنس" من الأسرة السابعة

عشرة أخذ يصف الخطورة البالغة التي تهدد مصر ثم حث مستشاريه على النهوض معه لتحرير مصر من نيز الهكسوس. ويظهر بوضوح أنه كان في ذلك الوقت، إلى جانب خطر الهكسوس، خطر آخر مصدره بلاد النوبة، وذلك بما عثر عليه في بعض المقابر التي ترجع إلى هذا العصر والموجودة في جبانات مصر العليا إذ حوت بعضًامن الأدوات صناعتها نوبية أجنبية.

كان الملك "أحمس" هو المتمم لرسالة التحرير من نير الهكسوس، ويغلب على الظن أنه كان الأخ الأصغر للملك "كامس" الذي سبق ذكره واعتادت قوائم الملوك أن تذكر "أحمس" كمؤسسي للأسرة الثامنة عشرة. ولم تكن تلك المعارك الكبرى التي عاشها فراعنة الأسرة الثامنة عشرة في مناطق آسيا القريبة سوى ضمان ضد وقوع هجمات أخرى من الهكسوس على مصر.

واسم أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وهو الذي تكتبه "أموزيس" طبقًا للنطق الإغريقي يتكون من الكلمتين المصريتين: "اياح" وتعني "قمر" ثم "مس" وهي صيغة فعلية معناها "ولد"، وعلى ذلك فصواب نطق هذا الاسم باللغة المصرية هو "اياح مس "، وهو نفس الاسم الذي يظهر من جديد، بعد نحو ألف سنة من ذلك التاريخ، أي في الأسرة السادسة والعشرين والذي يسميه هيرودوت "أمازيس". وكان ينبغي – وضعًا للأمور في نصابها – تمييز الملكين باسمي "أموزيس الأول" و" أموزيس الثاني "، أو بعبارة أخرى "أمازيس الأول" و" أمازيس الثاني ".

ومما يلفت النظر أنه في الوقت الذي ظهر فيه هذا الاسم الملكي المشتمل في تكوينه على كلمة "القمر" وجد أيضًا أسماء عديدة لملوك حكموا مصر في أوائل عصر الأسرة الثامنة عشرة تحوي هذه الكلمة، ومثل

ذلك "اياح حوتب" (القمر راض) وهي أم الملك "أموزيس" (ويكتب هذا الاسم غالبًا "اح حوتب") ثم هناك الاسم الملكي المشهور "تحوت مس"وقد كان الإله "تحوت" ورأسه على هيئة رأس الطائر "ايبس" هو إله القمر) وكذلك الملك "كامس" الذي سبق الحديث عنه وهو الأخ الأكبر للملك "أموزيس")، ويشير الباحثون إلى أن كلمة "كا" بمعنى "الثور" ترد كثيرًا للدلالة على معنى "القمر" ولا شك في أن هذه الأسماء التي تدخل في تركيبها كلمة "القمر" تشير إلى معان دينية لا تزال مراميها غير واضحة لنا تمامًا.

حكم "أموزيس" اثنتين وعشرين سنة (١٥٦٧- ١٥٤٥ ق.م) وسنرى عند الكلام على فترة حكم ابنه وخليفته "أمنحوتب الأول"، وهو الذي وصل إلينا تقويم زمني له بحساب دورة النجم الشعري اليمانية"، كيف أن هذا التاريخ قد ثبتت صحته من الوجهة الزمنية، وسوف نتحدث عن تلك الظاهرة الغريبة، وهي أن جميع المصادر التاريخية تعتبر "أموزيس" مؤسسًا لأسرة جديدة هي الأسرة الثامنة عشرة، على حين يتضح جليًا مما ذكرناه أن هذا الملك – باعتباره الأخ الأصغر للملك "كاميس" المعترف من الجميع بأنه من الأسرة السابعة عشرة – لا يعد مع ذلك من هذه الأسرة.

هذا وقد ظهر بصورة خاصة في القتال الحاسم الذي شنه الملك "أموزيس" مع الهكسوس ضابط يحمل نفس الاسم، وقد سجل في النقش المكتوب على جدران مقبرته في "الكاب" وصيفًا حيًا للمرحلة الأخيرة من القتال مع الهكسوس وذلك عند الاستيلاء على العاصمة "أواريس" ويتضح من هذا النقش أيضًا أن مطاردة المصريين اللهكسوس امتدت فقط إلى "شاروهين" وهي قلعة حصينة تقع جنوبي فلسطين في منطقة قبيلة "سمعان" وأن الاستيلاء على هذا الحصن استغرق ثلاث سنوات من الحصار الشديد.

ويبدو أن توطيد الحكم في مصر داخليًا قد تم دون عقبات وذلك على أثر طرد الهكسوس منها، وأن الشعب انضم بمحض اختياره إلى الملك المخلص، ولم يبق على "أموزيس" إلا أن يقاتل في بلاد النوبة السفلى، وأن يخمد بالقوة ثورات صغيرة قامت للتخلص من السيادة المصرية.

وفي النص الطويل المكتوب على لوحة حجرية محفوظة اليوم بمتحف القاهرة والذي سجل الملك فيه انتصاراته، نجد كيف أشاد الملك بمجهودات أمه الملكة "آح حوتب"، التي وصفت بأنها "سيدة الحانبو"، ولفظ "الحانبو" يستعمل للتدليل على سكان جزر البحر المتوسط، وقد استخلص "إدوارد ماير" من هذه الصفة أن الملكة كانت أميرة كريتية، وأنها عملت حينذاك على إبرام حلف بين كريت ومصر كان من أثره طرد الهكسوس نهائيًا. وهذه النتيجة التي وصل إليها "إدوارد ماير" فيها مغالاة من غير شك.

حقيقة هناك بعض القرائن تساعدنا على الأخذ بهذه النظرية، نقصد بذلك الأسلحة النفيسة التي عثر عليها في مقبرة الملكة والتي تحمل اسمها واسم أبيها كما تحمل اسم "كامس"، والتي تعتبر من الصناعة الكويتية الميسينية، أو على الأقل متأثرة من ناحية الصناعة والزخرفة تأثرًا قويًا بمؤثرات من تلك الجزر، ولكن الصور الكثيرة التي وردت على جدران مقابر طيبة والتي ترجع إلى الجزء الأول من عصر الأسرة الثامنة عشرة والتي تمثل ما كان يرد إلى مصر من الهدايا الكريتية، إن دلت على شيء فهي تدل على ازدهار التبادل التجاري بين البلدين في هذا العصر، وهذا أمر تمكنا من إبرازه بالنسبة إلى عصر سابق أي عصر الدولة الوسطى.

خلف "أموزيس" في الحكم ابنه "أمنوفيس الأول"، وكان اسمه للعرش هو "دجسر كارع" و" أمنو فيس" هو الاسم الذي تسمى به أربعة من ملوك الأسرة الثامنة عشرة والذي ينطق في اللغة المصرية "أمنحوتب" (أو أمنحتبه) أي "أمون راض". أما الصيغة اليونانية المعتادة عندنا وهي "أمنوفيس"، فهي التسمية التي وردت إلينا من العصر المتأخر والتي أصبحت تطلق على هؤلاء الملوك في العصر الحالي ولو أن الأصح أن يسموا كما نطق الإغريق الاسم وهو "أمينوتيس".

أو على الصفحة الخلفية للبردية الطبية المشهورة "ايبرس" ورد تقويم زمني بحساب النجم الشعري اليمانية" أرخ من عصر هذا الملك، وذكر هذا التقويم ضمن قائمة من الأعياد وقيل أن النجم "الشعرى اليمانية" طلع في يوم كذا من السنة التاسعة من حكم الملك "أمنوفيس الأول"، وسبق لنا أن أبرزنا أهمية مثل هذه التقاويم بحساب طلوع النجم الشعري اليمانية" بالنسبة إلى التأريخ المصري.

وإذا كان هناك حتى الآن بعض الغموض حول تحديد الزمن الذي ذكرته بردية "ايبرس" فإن ما قرره "ادجرتون" الأمريكي يبدو لي أقرب الآراء إلى الواقع، إذ يحدد السنة التاسعة من حكم "أمنوفيس الأول" (وهو التاريخ الذي ورد في بردية "ايبرس") بعام ١٥٣٦ ق. م.

ونظرًا لأن النصوص تذكر واحدًا وعشرين عامًا مدة لحكمه فيمكننا على هذا الأساس أن نحدد فترة حكم "أمنوفيس الأول"، على أنها بدأت عام ١٥٤٥ ق.م. وانتهت عام ١٥٢٤ ق.م، وعليه حددنا فترة حكم أبيه "أموزيس" من ١٥٦٧ إلى ١٥٤٥ ق.م أي ٢٢ سنة.

هذا التحديد الزمني الذي تداخلت في حسابه القواعد الفلكية الحديثة والتي أدخلت في الاعتبار خط العرض المدينة "منف"، يجب إنقاصه عشرين عامًا إذا حسب على أساس خط العرض لمدينة طيبة، ويسري هذا التحديد الزمني إلى نهاية ناصر حكم الملك وتحوتمس الثالث، وفي هذه الحالة يبدو هذا التقويم متفقًا إلى أبعد ما هي مع ما ورد على ظهر بردية "ايبرس".

لم تصل إلينا معلومات كافية عن الأعمال الشهيرة التي قامت في عصر "أمنوفيس الأول"، ولكن لا بد أن كانت لهذا الرجل مكانة خاصة في قلوب معاصريه ومن جاء بعدهم، لأن اسمه أطلق على أحد الأعياد الشهيرة، بل صار فيما بعد اسمًا لأحد الشهور وبقي في اسم الشهر القبطي "فامينوت" (برمهات).

غير هذا فقد لعبت الأم عنده دورًا خاصًا، وكانت أمه هي الملكة "آيا حمس – أفر تاري" زوجة الملك أموزيس ولهما في الجانب الغربي من طيبة معبد صغير مشترك واعتبرا مُنذ أواخر الأسرة الثامنة عشرة وبخاصة إبان عصر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين من قديسي الجبانة.

واعتاد الناس تصوير صورتيهما على جدران مقابرهم، حيث جرت العادة بتصوير الملكة "أيا حمس نفرتاري" باللون الأسود، ولا نعرف السبب في ذلك إذ لا نعتقد أنها كانت نوبية أو زنجية الأصل، وعثر مُنذ سنوات قليلة على مقبرة "أمنوفيس الأول"، وهي محفورة في تل منفرد بالقرب من مقابر ملوك الأسرة السابعة عشرة في الجزء الشمالي من جبانة طيبة.

جاء الملك تحوتمس الأول (واختار اسمًا للعرش هو "عاخبر كارع") خليفة للملك "أمنوفيس الأول"، وكان طبقًا لقوائم الملوك هو الثالث من ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلا أن هناك غموضًا يحيط بقرابته إلى سلفه. ومن المؤكد أن "تحو تمس الأول" لم ليكن ابن "أمنوفيس الأول"، كما لم يكن أخًا له، ويفترض "زينه" أنه كان صهرا له واسم أم هذا الملك معروف، ولكنها لم تكن ملكة. ومن ثم يمكن التساؤل في عجب: كيف حدث هنا أن الأسرة استمرت وأن قوائم الملوك المصرية، وجميع الوثائق التاريخية تجعل من "أموزيس" المؤسس للأسرة الثامنة عشرة في حين كان هو وابنه من بعده الوارثين الشرعيين للأسرة السابعة عشرة ؟ لست أعرف حلا أو شرحا لهذه المسألة، وينبغي أن نقرر مرة أخرى أنه كان من الواجب – كنتيجة منطقية – أن يعد "أموزيس" و"أمنوفيس الأول" من الأسرة السابعة عشرة فيصبح المؤسس الحقيقي للإدارة الثامنة عشرة هو الملك تحو تمس الأول.

وبناء على ما ذكرناه بالنسبة إلى الملك "أمنوفيس الأول" يكون خليفته ، "تحوتمس الاول" قد جلس على العرش عام ١٠٢٤ ق.م تقريبًا. ونظرًا لقلة الآثار التي وصلتنا من عصره، لا نعرف مدة حكمه على وجه التحقيق، كما أننا لا نستطيع أن نقدر لابنه وخليفته في الحكم الملك "تحوتمس الثاني"، أكثر من ثلاث سنوات، ويبدو أنهما قد حكما مصر فترة لا تزيد على العشرين عامًا، أي إلى حوالي عام ١٥٠٢ ق.م.

ذكرت النصوص إرسال حملات صغيرة إلى بلاد النوبة في عصر كل من "أموزيس" و"أمنوفيس الأول"، وذلك لأن هذه المنطقة كانت قد استطاعت الفوز باستقلال ذاتي في عصر الهكسوس، واستغل "تحوتمس الأول"، قيام

ثورة هناك فأرسل حمولة وصلت إلى ما بعد الشلال الثاني وتغلغلت إلى نباتا عند جبل البركال، أي عند الشلال الرابع في السودان، وهكذا استقرت الحدود المصرية الجنوبية عناء هذه المنطقة وبقيت كذلك مُدة خمسة قرون من عصر الدولة الحديثة، وسجل الملك هذا العمل العظيم في نقش كتبه على لوحة كبيرة أقامها على الصخور المواجهة لجزيرة "تمبوسي" على مقربه من الشلال الثالث.

وليس من شك في أن دولة "كرمه" كانت قد اختفت في ذلك الوقت تمامًا. وصارت بلاد النوبة إلى الشلال الرابع إقليمًا مصريًا، ويبدو أن تمصير هذا الإقليم قد تم حينذاك بخطوات سريعة، وأصبحنا لا نعثر على أدوات ذات طابع نوبي كما كان الحال في عصر الدولة الوسطى وبقيت بلاد النوبة ثابتة في أيدي المعربين ووضعت تحت إدارة حاكم مصري يحمل لقب "ابن الملك المولى على كوش"، وكان عليه. تصريف شئون الإقليم الجديد الذي كان يبدأ شمالًا من مدينة "الكاب"، أي جنوبي الأقصر وينتهي عند "نباتا" في الجنوب. وأصبحت بلاد النوبة مُنذ ذلك الوقت تعرف باسم بلاد "كوش "، وهو نفس الاسم الذي أطلق عليها في كتاب العهد القديم.

وبعد أن استتبت الأمور في الإقليم النوبي أسرع "تحوتمس الأول" إلى فلسطين وصادفه التوفيق في حملته هذه، إذ استطاع أن يتغلغل في سوريا شمالًا حتى وصل إلى نهر الفرات الذي أطلق عليه المصريون اسم "الماء العكسي الجريان"، وذلك لأنه يجرى – كما هو معروف – في اتجاه عكسي أي من الشمال إلى الجنوب... واختلف بذلك عن النيل الذي اشتهر وحده حتي ذلك العهد عند المصريين بأنه النهر الكبير. وأنبل المصريون على صيد الفيلة في منطقة الفرات، وقدموا أنيابها قربانًا إلى "أمون" في طيبة.

ويعتبر "تحوتمس الأول" أول فرعون في الدولة الحديثة الذي شرع في بناء معبد أمون في الكرنك، ووضع الأساسي بذلك لأكبر وأشهر معبد من معابد الدولة الحديثة، ويبدو أن المعبد الصغير الذي شيد هناك في عصر الدولة الوسطى كان قد هدم حينذاك. وأقام تحوتمس الأول أيضًا مسلتين أمام مدخل المعبد (ولا تزال إحداهما قائمة حتى الآن في مكانها الأصلي)، كما أقام بهوًا تتوسطه أعمدة ضخمة من النوع المعروف باسم "أعمدة أزوريس".

ومن الأعمال الهامة التي قام بها هذا الملك أيضًا أنه قضى على العادة المتوارثة والتي كانت تحتم دفن كل ملك في مقبرة على هيئة مرم، واستن سنة جديدة بأن أمر بحفر مقبرة له في الصخر تتكون من ممرات متتابعة، واختار لها مكانًا يقع في واد مقفر صحراوي تحيط به التلال الصخرية غربي طيبة.

وحذا حذوه في ذلك كل الملوك الذين خلفوه في عصر الدولة الحديثة (أي إلى نهاية الأسرة العشرين) وهكذا أصبحنا اليوم نتحدث عن مقابر وادي الملوك (بيبان الملوك) التي تقع على الجانب الغربي لمدينة طيبة.

ولم يصلح هذا الوادي الضيق المقفر لإقامة معابد جنازية تجرى فيها الطقوس الدينية اللازمة للماك، ولهذا اضطروا إلى فصل الجزئين فشيد كل ملك "معبدًا لإقامة الشعائر الدينية في مكان يقابل وادي النيل، وعلى مقربة من الأرض الخصبة، ولدينا من هذه المعابد الكثير التي ما زالت موضع الإعجاب. وعلى كل حال فالعلاقة بين المقبرة والمعبد كانت مفقودة في جميع العصور.

ويُمكن اعتبار "تحوتمس الأول" بجدارة أول ملك كبير فاتح في الدولة الحديثة. وستبقى أعماله ساطعة اللهم إلا إذا قارناها بتلك التي قام بها ابنه وخليفته الثاني"تحوتمس الثالث" فهي حينئذ تتضاءل أمامها ولم تذكر له سوى حملتين، إلا أنه استطاع فيهما أن يصل جنوبًا إلى الشلال الرابع وشمالًا إلى سوريا والفرات. حقيقة أم أسمح سوريا إقليمًا مصريًا كما كان الحال مع بلاد النوبة، إلا أنها بقيت فترة طويلة ارتبطت بمصر وإن ظلت تحت إدارة وطنية خاصة.

خلف "تحوتمس الأول"، ابنه "تحوتمس الثاني"، الذي ولد من زوجة غير ملكية والذي لا يمكن أن يكون حكمه قد استمر أكثر من سنوات قليلة، وتدل جثته على ملامح شاب دب في جسمه السقم والمرض، وهناك نص في المتحف المصري يبدو أنه نسخ عن وثيقة ترجع إلى عصر هذا الملك إلا أنها مفقودة الآن، وهي تذكر العام الثامن عشر من حكمه، لكن "زيته" الذي وجه عناية خاصة بدراسة الفترة الأولى من تاريخ الأسرة الثامنة عشرة، لا يأخذ بهذه الوثيقة بل ويطعن في صحتها، ومما يؤكد قصر مدة حكم "تحوتمس الثاني" عدم وجود آثار أو نقوش من عصره.

ومن ثم خلفه على العرش "حتشبسوت" وزوجها "تحوتمس الثالث"، وكانت "حتشبسوت" هي الوارثة الشرعية للعرش باعتبارها بنت تحوتمس الأول من زوجته الملكية "ايا حمس".

أما "تحوتمس الثالث" فكان ابن "تحوتمس الأول" من زوجة غير ملكية، ولقد نشأت عن ذلك أكبر المشكلات في ذلك العصر، كما كانت هذه المشكلة التاريخية، التي نشأت بعد وفاة كل من تحوتمس الأول والثاني،

شغلًا شاغلًا الأكبر علماء الآثار في وقتنا الحاضر، فانكبوا على دراستها عشرات السنين – وليس هناك ما يدعو إلى إعطاء صورة مفصلة للمراحل المختلفة التي تطورت فيها نظريات العلماء على مر السنين عن الاختلافات حول عرش مصر في أوائل الأسرة الثامنة عشرة، وسأكتفي هنا بعرض أحدث نظرية علمية عن هذه المشكلة، معتمدًا في ذلك على التفسير الواضح الشامل الذي انتهى إليه "ادجرتون".

كتب "أنيني" – وكان يشغل إحدى الوظائف الكبرى في ذاك العصر – تاريخ حياته على جدران مقبرته في طيبة، وفيه نقرأ قصة التطور التاريخي الصحيح لهذه المسألة خاليًا من كل شائبة: قال "حينما ذهب تحوتمس الثاني إلى السماء (أي مات) وذكر قبل ذلك وفاة تحوتمس الأول بكلمات مشابهة – حل محله ابنه ملكًا على القطرين وعاملًا على عرش أبيه.

وعنيت أخته، الزوجة الملكية حتشبسوت بالمهر على مصالح البلاد وإدارة شئونها، وكانت مصر خاضعة لها، باعتبارها البذرة الإلهية، فكان حكمها ممتازًا واستطاعت إرضاء الإقليمين بحكمتها.

وكان "تحوتمس الثاني" قد تبنى أخاه من أبيه، أي "تحوتمس الثالث، واختاره خليفة له معتمدًا في ذلك على نبوءة صدرت عن "أمون"، وذلك على أساس أن تمثاله المقدس توقف أمام الكاهن الصغير أثناء أحد الاحتفالات التي أقيمت في المعبد. وتحوتمس الثالث نفسه هو الذي سجل هذا الحادث في نقش له بمعبد الكرنك.

ونحن نعلم أن "تحوتمس الثاني" وقد كان هو الآخر ابنًا غير كامل الشرعية للملك "تحوتمس الأول" – وإن كانت أمه إحدى الأميرات وتسمى "موت – نفرت"، تعلم أنه تزوج من أخته لأبيه "حتشبسوت" الوريثة الوحيدة الكاملة الشرعية، لأن تحوتمس الأول أنجبها من زوجته الرئيسية الملكة "آيا حمس"، وقصد "تحوتمس الثاني" من زواجه بأخته أن يكتسب لنفسه الشرعية الكاملة للجلوس على عرش الفراعنة. وبعد موته تزوجت "حتشبسوت" من أخيها الآخر لأبيها وهو "تحوتمس الثالث".

وكان الهدف من ذلك ولا شك أن يكتسب الملك الشرعية الكاملة في الملك، ولكن ما حدث خالف ذلك، إذ لجأت الملكة "حتشبسوت" زوجها الجديد الذي كان فيما يبدو أصغر منها سنًا – إلى أن يكون الأمير الزوج "فقط، ويغلب على الظن أن هذا هو الموقف الحقيقي للاختلافات على العرش المصري التي حدثت في مبدأ الأسرة الثامنة عشرة، ويتفق أكثر الباحثين اليوم مع "إدوارد ماير" على الأخذ به.

وهكذا تربعت على عرش الفراعنة امرأة بعد وفاة "تحوتمس الثاني"، حقيقة أنها لم تكن المرأة الوحيدة أو الأولى بين الفراعنة، ولكنها كانت بلا شك المرأة المصرية الأولى التي خلفت آثارًا خاصة بها، ودون التاريخ العالمي اسمها على صفحاته كشخصية تاريخية فذة. واختارت لنفسها اسمًا للعرش، باعتبارها فرعون أنثى وهو "معا كارع"، ومعناه "الحق هو روح رع". أما اسمها "حتشبسوت"، فقد ترجمه "زيته"، كالآتي: "ذروة النساء النبيلات".

ومن الصعب علينا أن نحدد مدة حكمها على وجه الدقة، ولعلها بدأت بعد عام ١٥٠٠ ق م مباشرة، وبذلك تكون فترة حكمها من ١٥٠٠ إلى

١٤٨٠ ق.م وتعتبر مدة حكمها فترة هدوء وسلام بعد حروب "تحوتمس الأول" وعهد بناء للدولة العظمي في الداخل. ويتبين بوضوح أن الملكة خافت أن تنصب زوجها تحوتمس، الشديد النشاط والحيوية، قائدًا على رأس جيش من الجيوش.

ومما يلفت النظر في التماثيل الكبيرة، وفي الأجزاء المهشمة من التماثيل التي عثر عليها بين أطلال معبد الدير البحري الذي شيدته، أن الملكة أصرت على تمثيل نفسها بزي الرجال، وعلى أن تتحلى بالتيجان والرموز الملكية الخاصة بالفراعنة الذكور، وتبعًا لذلك نجدها تتحدث في نقوش هذا المعبد بضمير الغائب بدلًا من ضمير الغائبة.

ويتضح من هذا أنها أرادت أن تبرز في كل مكان صفتها كفرعون حقيقي له شرعية كاملة.

وغير هذا فقد عملت على جذب أولى الحظوة والمقربين من رجالات الدولة إلى بلاطها وكان وزيرها الأول رجلًا لا ينتمي إلى طبقة النبلاء، وهو "سنموت" (أو سننموت) الذي خلد اسمه على صفحات التاريخ بتشييده المعبد ذي الشرفات المتعددة في منطقة الدير البحري. وكان "سنموت"، هو المربي للابنة الوحيدة "حتشبسوت" وهي الأميرة "نفرو رع" ولقد عثر على تماثيل كثيرة تُمثلها مع "سنموت" وعثر على مقبرتين "لسنموت"، إحداهما شيدها عندما كان موظفًا عاديًا على الطراز الخاص بهذا العصر وزخرف جدرانها بكثير من المناظر الجميلة الزاهية الألوان، إلا أنها هشمت تمامًا أبان الحملة القاسية التي شنها "تحوتمس الثالث" فيما رد ضد "حتشبسوت" وأعوانها.

أما المقبرة الثانية فقد كشف عنها أخيرًا أثناء أعمال الحفر والتنقيب التي قامت بها بعثة متحف المتروبوليتان بمنطقة الدير البدري: وهي تقع على مقربة من المعبد وتتميز برسوم تطابق الرسوم التي كانت وقفًا على مقابر الملوك بطيبة.

وهذه المقبرة بالذات لم ينته العمل فيها كما أنها لم تستخدم للدفن: وجلي أن "سنموت". كان يمني نفسه بالوصول في يوم ما إلى منصب الأمير الزوج، ومن يدري فلعله كان يأمل أن يصبح فرعون لمصر. بيد أن القدر كان قد أعد لمثل هذه الأحلام بالسيادة والسيطرة خاتمة مروعة قبل الأوان.

أما الأثر البنائي العظيم الذي وصل إلينا من عصر الملكة حتشبسوت، فهو المعبد ذو الشرفات الذى شيدته في منطقة الدير البحري والذي يقع في القسم الشمالي من جبانة طيبة. أقيم هذا المعبد ملاصقًا للجانب الشمالي لمعبد الأسرة الحادية عشرة الذي تحدثنا عنه آنفًا، وكان أمون هو الإله الأول الذي قدس في هذا المعبد ونجد إلى جانبه الإلهة "حاتحور" ربة الجبانة في طيبة وكذلك الإله "أتوبيس" رب التحنيط، وخصص المعبد كذلك لإقامة الطقوس الجنازية للملكة ولأبيها وتحوتمس الأول.

وتمكن مهندس هذا المعبد من أن يتبين نواحي الضعف في بناء معبد الأسرة الحادية عشرة فتجنبها بطريقة تدل على تمتعه بحس فني مرهف. فجعل المعبد الجديد يرتفع في ثلاثة مدرجات، يتصل كل منها بالأخر بواسطة طريق صاعد سهل المرتقب متدرج الارتفاع، مسندًا هذه المدرجات الثلاثة التي تبدو على هيئة شرفات متتابعة إلى الجدار الصخري المرتفع عموديًا، والذي ينتهي إليه الوادي، بحيث حفر في هذا الجدار "قدس الأقداس"، الذي

ينتهي به المدرج الثالث ومجموعة من المقصورات والمشكاوات. أما المدرجان الأسفل والأوسط فيتميزان بقاعات أقيمت أسقفها على أعمدة مربعة ومناظر كثيرة تحلى جدرانها، نخص بالذكر منها المناظر المرسومة على المدرج الأوسط فإن لها طابعًا تاريخيًا على جانب كبير من الأهمية.

إذ نجد على جدران الجزء الجنوبي منه مناظر الرحلة المشهورة التي أرسلتها الملكة إلى بلاد العطور والبخور أي إلى "بونت"، وهي البلاد التي ورد ذكرها في نصوص الدولة القديمة، ونستطيع الآن أن نحدد موقعه اعتمادًا على خصائصها الجغرافية وما تنفرد به من حيوان وهذا الموقع هو الساحل الإفريقي لمنطقة الصومال، وليس الساحل الجنوبي البلاد العرب، وينتسب سكانها إلى الجنس الحامي مثل المصريين، وكانوا يعيشون في أكواخ ترتفع على قوائم خشبية يقيمونها بجوار شاطئ البحر، والذي استطاع الفنان أن يرسم أسماكه بطريقة واقعية جميلة، ويرى الناظر كيف تنقل أشجار البخور إلى السفن المصرية التي وصلت إلى هناك مخترقة البحر الأحمر، كما يقرأ في النصوص التي تصاحب هذه المناظر كل الخطوات التي تمر فيها مثل هذه البعثات مُنذ البدء حتى ترجع إلى مصر وتزرع الأشجار في الحديقة الكبرى التي تتقدم معبد الدير البحري.

ونرى أيضًا في هذه المناظر أمير "بونت" وزوجة يستقبلان أفراد البعثة المصرية بالتحية، وقد بدت الأميرة في هيئة امرأة زنجية مكتنزة الأرداف ولا تخلو صورتها من تعبير فكاهي: ولقد أخذ المعماريون في ذلك العصر يتصلون لأول مرة في تاريخهم بأفراد من الجنس الزنجي الخالص.

وفي الجانب الشمالي من المدرج الأوسط نجد مناظر ولادة حتشبسوت من أبيها الإله "آمون"، ولقد بدت هذه المناظر مرسومة بطريقة لا تقل اتقانًا من التي سبق ذكرها.

وأريد من هذه المناظر توضيح شرعية حتشبسوت المرأة في أن تتولى عرش حوريس، وصدم هذا المصريين في مشاعرهم على ما يظن، أو على الأقل ارتسمت على شفاههم ابتسامة كلها سخرية.

ويبدو بوضوح أن حكم الملكة "حتشبسوت" لقي نهاية مفزعة على يد زوجها وأخيها الأصغر "تحوتمس الثالث"، ومما يدل على ذلك: التدمير المروع الذي أجري على النقوش في معبد الدير البحري نفسه، وتهشيم كل التماثيل الخاصة بالملكة والتي أقيمت في المعبد، وتخريب مقبرة "سنموت"الذي اختفى وأصبح أثرًا بعد عين، وكذلك الأميرة الصغيرة ابنة الملكة التي كان يشرف على تربيتها.

وكان قد أعد للملكة مقبرتان، إحداهما في مكان قصي واختير بين الصخور بعيدًا عن الأنظار، لحفر مدخل المقبرة التي تمتد في ممرات طويلة وتنتهي بحجرة الدفن حيث عثر على تابوت حجري خلوا من الجثة، أما المقبرة الثانية فقد كانت في وادي الملوك حيث عثر فيها على تابوت فارغ لها، بجانب تابوت آخر لوالدها.

وعلى هذا لم يعثر على جثتها في كل من المقبرتين، ويغلب على الظن أنها قد عبث بها واختفت كنتيجة للحملة الشعواء التي شنها عليها أخوها تحوتمس الثالث.

وبعد تنحية "حتشبسوت" والاستئصال الكامل لذكراها، استقل "تحوتمس الثالث" بشئون الحكم وكان قد أصبح رجلًا يافعًا. وأخذ يحسب سنى حكمه مُنذ تولت "حتشبسوت"، ونتفق مع "إدوارد ماير" على أن هذه الفترة بدأت من حوالي عام ١٥٠٢ ق.م وانتهت عام ١٤٤٨ ق.م، وكان اسم العرش الخاص به هو "من خبر رِع"، وكان البابليون ينطقونه كما ورد في نصوصهم "ماناخبيريا".

وعقب انفراد "تحوتمس الثالث" بالسلطة مباشرة، خرج على رأس جيش كبير، قاده من حصين "سيلا"، عند الحدود (تقع حاليًا بالقرب من القنطرة على قناة السويس)متجهًا، صوب فلسطين، حدث هذا في السنة الثالثة والعشرين من حكمه، أي عام ١٨٤٠ق.م، وذلك بعد أن استقل قسم كبير منها جهارًا في مدة الحكم المسالم لحتشبسوت، وبعد أن تم فتحها على يد تحوتمس الأول.

وأدت الحملة الأولى إلى معركة "مجدو" التي انتهت بالاستيلاء على هذا الحصن المنيع الذي يقع على الحافة الجنوبية لسهل "جسر بل" (ويسمى اليوم "تلم المتسلم"). هذه الحملة وجهت ضد الحلف الذي تكون من كثير من أمراء المدن الفلسطينية والسورية الذين حاولوا التحرر من السلطان المصري، وسجل تحوتمس الثالث وصف هذه المعركة واجتياز جيشه لجبل "الكرمل" بشيء من التفصيل في حولياته التي نقشها على جدران معبد الكرنك، وهذه الحوليات تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ البشرية إذ أنها بمثابة تقارير حربية تشبه إلى حد كبير اليوميات التي يكتبها قادة الجيوش في عصرنا الحالي عن المعارك التي يخوضونها وليس من شك في أن هذه

الحوليات قد أمدت المؤرخ الحديث بمادة تاريخية على قدر كبير من الأهمية.

وعلى رأس الحلف السالف الذكر كان أمير قادش وهي المدينة التي تقع على مسافة بعيدة إلى الشمال أي على نهر الأورونط (العاصي)، وهذا الأمير بالذات لاذ بالفرار حين وقع حصن "مجدو"، في أيدي المصريين: ونحن نعلم منحوليات تحوتمس الثالث أن الملك قام بست عشر حملة على سوريا جاء وضعها ؟؟؟ الحملة الأولى في أسلوب موجز مقتضب وهذا أمر نأسف له كثيرًا.

ونظرًا لأن هذه الحملات كانت تتحرك باستمرار في شهور الصيف فإننا نجد الملك يوجه جهده في الفترة الباقية من العام لتنفيذ المشروعات الأخرى مثل إقرار الأمن في المناطق التي تم غزوها، وكذلك تشييد محطات للأسطول المصري على طول الساحل السوري وملء المخازن المصرية بالذخيرة والمؤن.

وكان الهدف من كل هذه الحملات القضاء على دويلات المدن الكثيرة العدد في شمالى سوريا، وبخاصة دويلة مدينة قادش الواقعة على نهر العاصي وكانت تعتبر من أقوى الحصون بل وكانت تمثل المركز الدائم لمقاومة السيادة المصرية، ويبدو أن هناك هدفًا آخر وهو إنشاء خط دفاع قريب من حدود دولة "الميتاني" القوية والطموحة التي أسسها الخوريون والتي أخذت تهدد المصريين وبخاصة بعد أن مدت سلطانها على شمال سوريا وفي المناطق الواقعة إلى الغرب من الفرات.

واستطاع المصريون الاستيلاء على حصن قادش وتخريبة في الحملة السادسة، بينما استطاعوا في الحملة الثامنة أن يصلوا إلى نهر الفرات ثم مدينة حلب وقرقميش، إلا أن هاتين المدينتين لم تبقيا في حوزة المصريين إلا لفترة قصيرة. وأقام "تحوتمس الثالث" حينذاك لوحة كبيرة عند الفرات بجانب اللوحة القديمة التي كان أبوه "تحوتمس الأول" قد أقامها هناك.

أما الحملات الاخرى فقد وجهها الملك ضد دويلة "تهوشة" في شمال سورية وكانت عنيدة في تمردها، أما خاتمة الحملات التي خرج بها الملك في العام الثاني والاربعين من حكمه (١٤٦١ق. م) فكانت ضد مدينة "قادش" وعمل المضربون على تخريبها مرة ثانية.

وهناك كلمة أخرى نقولها بمناسبة الحديث عن حملات تحوتمس الثالث، وهي أن الجيوش في ذلك الوقت كانت صغيرة العدد، يؤكد ذلك الأعداد الصغيرة من الأسرى والقتلى التي كانت تذكر بعد كل معركة، وكانت هذه الغزوات تأخذ في الغالب شكل غارات وكثيرًا ما كانت شاقة وطويلة الأمد بسبب محاولة الاستيلاء على الحصون المنيعة المقامة على مرتفعات جبلية. وكانت العربة والحصان، وكلاهما دخل مصر في عصر الهكسوس، قد أصبحتا من الادوات الحربية التي استقر استعمالها في عصر "تحوتمس الثالث".

ولعبت عربة القتال في ذلك الوقت نفس الدور الذي كان يلعبه "سلاح الفرسان" في الجيوش الأوروبية الحديثة حتى الحرب العالمية الأولى، أما قوات الفرسان بالمعنى الصحيح فلم تكن قد ظهرت أنذاك في جيوش الشرق القديم.

وتقدم لنا مقابر العظماء في طيبة صورة مليئة بالحياة لذلك العصر الزاهر، وكثير من هذه المقابر تخص موظفين وضباطًا عظامًا، سجلوا على جدرانها بعضًا من المغامرات التي اشتركوا فيها، أثناء حملات" تحوتمس الثالث"، وإن كان هذا التسجيل قد دون بأسلوب "اليوميات"، الا أنه لم يعين الغزوة التي حدثت إبانها المغامرة، ولنضرب لذلك مثلًا ما سجله القائد "أمنمحب" في مقبرته عن اشتراكه في حملة صيد الفيلة شماليسوريا وأظهر شجاعة فائقة أمام الملك، ثم ما قاله عن قتله لفرس غير مستأنسة أطلقهاأمير قادش عمدًا أثناء حصار المصريين لحصنه وذلك لتوقع الاضطراب بين خيل الجيش المصري.

وتلقي مقابر طيبة من ذلك العهد ضوءًا ساطعًا على النفائس المختلفة التي كانت ترد على قصر فرعون بصفة "خراج" أو "هدايا" يحملها السفراء الأجانب وبخاصة من السوريين الذين ازدحمت المقابر بصورهم، أما سكان جزيرة كريت وهم الذين أطلق عليهم المصريون اسم "كفتي" والذين تحدثنا عنهم فيما سبق، فقد ورد ذكرهم في أغلب الأحيان مع السوريين، ومن أجل هذا يود البعض أن يعتبر شعب "كفتي" هم سكان جزيرة كريت، وسكان مناطق قريبة من سوريا مثل "فيليقيا"، وكثيرًا ما نجد بين السوريين من يتميز بملابس حيثية، ولا بد أنه كان من ذلك الشعب الذي يقطن آسيا الصغرى، والذي بدأ يلعب دوره على المسرح السياسي في عصير "تحوتمس الثالث" ورأى المصريون في زيه القومي زيًا لم يعهدوه من قبل.

ويبدو أن غزوات "تحوتمس الثالث" التي استمرت عشرين عامًا في سورية انتهت بإبرام معاهدة نصت على احتفاظ الميتانيين بمناطق شمال سوريا مع مدينتي حلب وقرقميش، وضمنت للمصريين طريقًا إلى الفرات مع

الاحتفاظ بجميع الأراضي الساحلية من فلسطين إلى مصب نهر الأورونط شمالًا؛ أي الساحل الفينيقي برمته وما يتبعه من مناطق الأشجار التي كانت دائمًا على جانب كبير من الأهمية لمصر بسبب ما تستورده منها من خشب الأرز. أما دويلات سوريا الأخرى فقد فرضت مصر عليها الخراج، ومن بينها بلاد "حيتا" (أي الحيتيين) التي أرسلت إلى مصر خراجًا أهم عناصره "الفضة"، حدث هذا دون أن تقع حروب بينها وبين مصر وقامت نفس العلاقات مع دولة أشور التي تقع على نهر دجلة، ومع بابل وكذلك مع جزيرة قبرص – وتملأ قوائم هذا الخراج بعناصره المختلفة المساحة الكبرى من الحجرتين اللتين خصصت جدرانهما لتسجيل نصوص حوليات تحوتمس الثالث بمعبد الكرنك.

وتطورت علاقات مصر مع دولة الميتاني في العصور التالية وساد السلم بينهما إلى درجة أن كثيرًا من أميرات الميتاني وصلن إلى الحريم المصري. وقد عرف العالم في ذلك الوقت من تلك الحروب الطويلة الأمد، أنه لا توجد هناك قوة في بلاد الشرق الأدنى تستطيع أن تواجه الجيش المصري الذي نال تدريبًا عسكريًا ممتازًا، وفاز بقيادة ملك عبقرى هو فرعون مصر العظيم.

وكان "إدوارد ماير" موفقًا غاية التوفيق حين أشاد بمواهب "تحوتمس الثالث" وشخصيته القوية التي يرجع إليها تشييد هذه الامبراطورية العالمية المصرية الأولى والتي امتدت – رغم قلة اتساع رقعتها – من مصب نهر الأورونط شمالًا إلى مدينة نباتا في بلاد النوبة جنوبًا، وبلغ امتدادها مسافة ٣٢٠٠ كيلو مترًا تقريبًا و "إدوارد ماير" على حق حين ينوه بملامح وجه هذا العاهل، كما تبدو في التماثيل التي وجدت له، فيقول أنها توحي "بحيوية وصراحة، واطمئنان نفسي في شخصيته" لقد حاول أن يطوي تحت جناحه

أمراء الدويلات المغلوبة، بعد أن أخضعهم بالعفو عنهم وبذل الكرم لهم وذلك بأن أحضر أولادهم إلى البلاط المصري في طيبة مركز الثقافة العالمية، حيث يتلقون الدراسات في الثقافة المصرية ويصبحون أتباعًا مخلصين لدولة الفراعنة. وعلى هذا النحو تمت أواصر الصداقة والخضوع بين الاسرات الحاكمة فيفلسطين وسوريا وبين فرعون والادارة المصرية، ونجد صدى هذه العلاقة بعد خمسين سنة من هذا التاريخ في رسائل تل العمارنة.

وخصص "تحوتمس الثالث" الاثنتي عشرة سنة الأخيرة من حكمه، في تنظيم شئون امبراطوريته وفي إتمام منشئاته المعمارية وبخاصة في المعبد الرئيسي لآمون بالكرنك، وهو المعبد الذي كان يرد إليه ما لا يحصى من الهدايا والخراج ووصلت ثروته إلى درجة لا وصف لها.

ولا زلنا حتى اليوم يتملكنا الاعجاب عند رؤية "بهو الأعياد" المحتفظ ببهائه ورونقه، والذي أريد به أن يبدو في صورة سرادق ضخم للأعياد والحفلات. وإلى جواره نجد عددًا من الغرف الصغيرة نقشت على جدرانها رسومًا لحيوانات وطيور ونباتات مختلفة كانت جديدة وغريبة على المصريين، عرفوها في الغزوات السورية، وهي مرتبة ومنسقة بنظام يضاهي الترتيب الذي نراه في كتاب تعليمى حديث لعلم الأحياء تقريبًا.

وينبغي لنا أن نقرر بالنسبة إلى فن النقش في عهد "تحوتمس الثالث"، أن هذا الفن يبدو في كل مكان بسيطًا، رفيعًا بالغًا أقصى الجمال والبهاء، ولقد بينا من قبل السبب في عدم ظهور لوحات كبيرة لمناظر المعارك، وذلك لأن طراز النقش كان يحتم أن يعرض كل شيء موضوعيًا ومفردًا، ولم يبق إلا ذلك المنظر التقليدي القديم الذي يبدو فيه فرعون شاهرًا سيفًا مقوسًا أو

دبوسًا للقتال يقتل به مجموعة كاملة من الأعداء ربطت الى بعضها البعض وقد أمسك بهم الملك من خصل شعرهم.

وقبل أن نسترسل في عرض أحداث التاريخ في البلاد المتاخمة لمصر، إبان هذه الفترة، يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على النظم الداخلية، تقع عاصمة هذه الامبراطورية في نقطة تكاد تتوسط البلاد كما حسب ذلك إدوارد ماير بالكيلو متر– ابتداء من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب، ولكن هذه العاصمة بالنسبة إلى أرض مصر نفسها تقع في مكان بعيد إلى الجنوب من البلاد، ومدينة طيبة هي الخلية التي تكونت فيها نواة الدولة الحديثة.

وسنرى فيما بعد أن انتقال "أمنو فيس الرابع" الى العمارنة كان سببًا في التخلي عن طيبة الى الأبد، كعاصمة للدولة ومقر للملك، وأن الحكومة المركزية استقرت ثانية في أواخر الدولة الحديثة؛ أي مُنذ الاسرة التاسعة عشرة، في مدينة منف، أي كما كانت عليه الحال في الدولة القديمة، أو أنها انتقلت الى مدن جديدة أخرى في الشمال الشرقي للدلتا، كان موقعها الجغرافي أكثر صلاحية من الوجهة العسكرية، ويمثل منصب الكاهن الأعظم للاله آمون في الكرنك أعلى المناصب الدينية، وكان لقب هذا الكاهن الذي يتمتع بأعلى درجات التقديس الدينى، هو "الخادم الإلهي الأول لآمون بالكرنك".

وهذه الاضافة المحددة للمكان هي موضع الأهمية بالذات، إذ كانت هناك معابد أخرى للإله آمون في البلاد. ونحن نعرف سلسلة الكهنة العظام كاملة.

وذلك عن طريق مقابرهم في طيبة والتي تعتبر في الغالب من بين المقابر الضخمة الغنية برسومها، ولم يقتصر الكهنة العظام على منصبهم الدينى بل تقلدوا أيضًا مناصب دنيوية، من بينها منصب يشد به منصب وزير المالية، وتميزوا آيان عصر الأسرة الثامنة عشرة بإخلاصهم الشديد للعاهل.

ويقابل هؤلاء آخرون تقلدوا منصبًا لقب صاحبه بلقب مماثل وهو "رئيس خدام الإله صاحب مصر العليا والسفلى"إلا أن هذا المنصب كان دنيويًا بحتًا إذ يشبهمن نواح عدة منصب وزير التربية والتعليم، ولا بد أن ثروات معبد آمون في الكرنك.

كانت قد بلغت حدًا غير عادي، وأنها أخذت تزداد نموًا في عصر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، أي في العصر الذي كانت الحكومة فيه قد انتقلت مُنذ مدة طويلة إلى الدلتا. وكثيرًا ما كانت منازل الخزانة والمصانع التابعة لمعبد آمون في الكرنك تصور في رسوم مقابر طيبة.

وبعد، فإن معرفتنا بنظام الإدارة في الدولة الحديثة أقل بكثير من درايتنا به في الدولة القديمة، وذلك لأن نقوش المقابر في الدولة الحديثة كان عليها أن تتحدث عن شئون الحروب والخراج والمنشئات الجديدة، بحيث لم يبق مكان للحديث عن شئون الإدارة الداخلية المعتادة.

ويرأس الجهاز الحكومي لشئون الادارة وزيران، أحدهما لمصر العليا والآخر لمصر السفلى وكانت كل خيوط الادارة المتشعبة في البلاد تجمع في مركز كل منهما.

ونعرف الكثير عن وزارة الجنوب كما تدلنا على ذلك النقوش التي وردت على جدران مقبرة "رخ مى رع" وزير "تحوتمس الثالث"، والتي وصف فيها اختصاصاته. كان الملك نفسه هو الذي يعين الوزير، ونعرف حادثًا من عصر الأسرة التاسعة عشرة ومن عصير رمسيس الثاني بالذات أن الإله آمون نفسه كان يوحي للملك باسم وزيره.

ومما يؤسف له أنه لم يصلنا من عصر الدولة الحديثة، ولا من أي عصر آخر، شيء يشبه القانون المنظم، كما وصل إلينا قانون "حمورابى" في بابل. حقيقة نجد في مقبرة "رخ مى رع" رسمًا لعدد كبير من لفائف البردى موضوعة في صناديق كبيرة، كانت لا شك تحوي تفاصيل القانون المصري، إلا أننا للاسف لا نعرف عنها شيئًا. وهذا هو السبب في قلة ما نعرفه عن القانون المصرى القديم.

ومما يلفت النلى حدوث تطورات واضحة وبشكل تدريجي في بعض الوظائف في عصر الأسرة الثامنة عشرة، فمثلًا كانت وظيفة الكاتب مُنذ أقدم العصور أسمى الوظائف وأجدرها بالاحترام في مصر، وهناك وثيقة أدبية مشهورة، يبدو أنها ظهرت في عصر الدولة الوسطى، وهي تقلل من شأن كل ما كان هناك من حرف مختلفة، ولا سيما الحرف اليدوية، ومهنة الخدمة العسكرية، ولكنها تقدس مهنة الكاتب، أي الموظف.

إلا أن الأمر أخذ صورة أخرى نتيجة للغزوات الكثيرة التي قام بها "تحوتمس الثالث"، حين عرف المصريون مُنذ ذلك العهد كيف يقدرون قيمة الضباط الممتازين، وانتهى الأمر مُنذ أواخر الأسرة الثامنة عشرة بأن فاز الرؤساء العسكريون بالكفة الراجحة، وسيأتي الحديث عن هذا الموضوع بإسهاب عند معالجة الأسرة التاسعة عشر.

كان فرعون يقوم على رأس الكهنة، والإدارة المدنية، والجيش سيدًا مطلقًا "هذا حقه الآن كما كان دائمًا في الماضي"، وهو يعتمد في ذلك على مركزه المقدس كابن الإله "آمون رع"، وهما الألهان اللذان اتحدا في ذلك الوقت وتكون منهما إله واحد.

واعتبر الملك إلها تقدم له مشاعر التقديس في كل البلاد الأجنبية الخاضعة للسلطان المصرى وبخاصة في بلاد النوبة، وتأكدت أيضًا قدسية فرعون بوصفه إلها عندما جرت العادة مُنذ عصر الأسرة الثامنة عشرة بأن يتزوج الملك من سيدة تلقب بلقب "الزوجة الإلهية لآمون"، وهذا اللقب كان دائمًا يعطي لإبنة الملك التي اختيرت لتصبح فيما بعد ملكة وبذلك تتأكد صفتها الملكية المحضة على أساس أنها تنحدر من دماء المكية خالصة. هذا العرف ساد الدولة طوال عصر الاسرة الثامنة عشرة، ولقد نالت "حتشبسوت" هذا اللقب، وبقي معمولًا به حتى عصر الملكة "موت أم أوا" أم الملك "أمنوفيس الثالث"، إلا أن هذا العرف انقطع حين اختيرت كل من الملكتين "تيه" و"نفر تيتي"، اللتين لم تمنا بصلة إلى الدماء الملكية، ولم يحى هذا التقليد إلا في الأسرة التاسعة عشرة، ثم صارت له أهمية خاصة في العصر المتأخر، كما سنرى ذلك فيما بعد.

وإذا نظرنا إلى مجريات الأمور نظرة سطحية عامة، وجدنا صورة الملكية والجهاز الإداري في البلاد في الأسرة الثامنة عشرة شبيهة نوعًا ما بصورتهما في الدولة القديمة ولكن في واقع الأمر الاختلاف بينهما كبير وذو أثر عميق، ولا غرابة في ذلك فإن زهاء ألف سنة تفصل بين كلا العصرين.

غير هذا فقد نهضت مصر إبان عصر الاسرة الثامنة عشرة ووصلت إلى

مرتبة الدولة العالمية، وترتب على ذلك أن اتسعت رقعة النظر المصري وامتدت إلى جميع أطراف العالم القديم. وكان "إدوارد ماير" على حق حين قارن هذه الحالة بما حدث في فرنسا حين حكمها لويس الرابع عشر حكمًا استبداديًا وحين حكمها شارل الاكبر، ويفصل بين الحكمين مدة ألف سنة.

توفي تحوتمس الثالث حوالى نهاية السنة الرابعة والخمسين من حكمه، أي عام ١٤٤٨ ق.م. وتحيط صخور عالية مدخل مقبرته المنقورة في منطقة وادى الملوك، أما حجرة الدفن فإنها لا تتميز بجمال النقوش التي اعتاد الملوك ملء جدران مقابهم بها.

وجلس على العرش بعده ابنه الملك "أمنوفيس الثاني"، الذي اختار اسمًا للعرش هو "عاخبرو رع"، ومما يؤسف له أنه لم تصلنا نصوص ذات تأريخ ثابت لهذا الملك، ونظرًا لأننا نعرف بعضًا من التواريخ الخاصة بملوك الجزء الأخير من الاسرة الثامنة عشرة وذلك عن طريق بعض الوثائق الحيثية، ولأننا نعرف على الأقل من مانيتون أن مدة حكم "تحوتمس الرابع" كانت تسع سنوات فقط، لذلك فإننا نستطيع أن نحدد للملك "أمنو فيس الثانى" فترة حكم استمرت سبعًا وعشرين عامًا، أي من عام ١٤٤٨ إلى عام ١٤٢٢ ق.م، و بالرغم من هذه الفترة الطويلة التي بقاها الملك على العرش فإننا لم نحصل على معلومات كثيرة تدل على نشاطه وأعماله.

لقد حدث تمرد على مصر في إقليمي فلسطين وسوريا وذلك بعد تولى الملك شئون الحكم مباشرة، إلا أنه استطاع أن يخمده بقسوة وقوة، وتغلغل شمالًا وعبر نهر الأورونط ووصل إلى نهر الفرات، وتمكن من أن يعيد السكينة تمامًا في اقليم سوريا الذي أخضعه والده، ويبدو أنه استخدم في

توطيد حكمه هناك قسوة تقشعر منها الأبدان، نعرف ذلك عن طريق نقش له مسجل على أحد المعابد النوبية: لقد صلب جثث سبعة من الأمراء السوريين الذين قتلهم على مقدم السفينة الملكية، وعلق الجثث من أقدامهاوجعل رءوسها إلى أسفل، واخترقت السفينة القطر المصري كله، ثم علق ستة من هذه الجثث على أسوار طيبة، وأمر بإرسال الجثة السابعة إلى نباتا في أقصى الجنوب وعلقها هناك على هذا النحو، ويبدو أن "أمنوفيس الثاني" كان رجلًا رياضيًا ذا قوة جثمانية خارقة، ويدل على ذلك بعض النصوص التي تؤكد باستمرار هذه الصفات عنه، فهو يفخر بأنه لا يوجد بين الجند في جيشهبل ولا بين أمراء سوريا من يستطيع أن يشد قوسه، وعثر حديثًا على لوحة حجرية كبيرة أقيمت في معبد صغير على مقربة من تمثال أبي الهول بمنطقة الجيزة، يتحدث نقشها فيما يتحدث عن قدرته الخارقة في التجديف. وهكذا يبدو أن حكم هذا الملك قد انقضى في سلام وبدون أحداث عظام.

وانقضى حكم ابنه وخليفته على نفس الوتيرة، أي "تحتمس الرابع"، الذي اختار اسمًا للعرش "من خبرو رع"، والذي استمر حكمه تسع سنوات (١٤٢٢ الى ١٤١٣ ق.م) وتوفي هذا الملك في الثلاثين من عمره، ومع هذا فقد عرف عنه أنه أنجب ذرية كبيرة، وأشهر آثاره اللوحة الجرانيتية الكبيرة المقامة بين ذراعي أبي الهول بمنطقة الجيزة، والتي تتحدث نقوشها عن "تحوتمس الرابع" وكيف أنه نام يومًا حين كان أميرًا في ظل هذا التمثال، فرأي فيما يرى النائم اله الشمس "رع حور آختى"، يطلب إليه أن يزيل الرمال التي تراكمت حول تمثاله، أي تمثال أبي الهول، وهكذا تعتبر هذه الحادثة بمثابة الأولى من نوعها في إزالة الرمال عن أبي الهول، الأمر الذي تكرر من حين لآخر لكى تزال الرمال التي تتراكم بسرعة حول هذا التمثال. ومن الطريف أن

نعلم أن في عصر الأسرة الثامنة عشرة كان الناس لا يعلمن شيئًا عن "خفرع" مشيد هذا الأثر الضخم، واعتقدوا أن أبا الهول كان صورة من صور إله الشمس. وكان "تحوتمس الرابع" هو آخر ملوك الأسرة الثامة عشرة الذي قاد حملة إلى ربوع سوريا، كما أنه ذهب إلى بلاد النوبة وفاز هناك بنصر عظيم وهناك أثر عجيب سجلت عليه هذه الانتصارات ولا يزال محفوظًا بالمتحف المصري، نقصد الغلاف الخارجي لعربة الملك الحربية وقد نقش فوقه منظران، فنجد على أحد الجوانب انتصاره على الاسيويين وقد استعمل فيه الاسلوب القديم المتوارث الذي يجعل الملك يبدو على هيئة أبي الهول وهو يطأ بأقدامه أعداءه، وعلى الجانب الثاني نجد المنظر الآخر مرسومًا على النمط الخاص بتصوير المعارك الحربية، وهو يصور حربه ضد النوبيين.

أن هذه الرسوم التي وجدناها منقوشة على العربة الحربية لتحوتمس الرابع تعتبر النموذج الأول للأسلوب الفني الذي ذاع وانتشر في عصر الأسرة التاسعة عشرة فوق جدران المعابد. ومما يثير دهشتنا ولا زلنا لا نستطيع تفسيره هو أن النموذج الأول لتلك المناظر الهائلة الحجم، كان مرسومًا على مساحة ضيقة مثل غلاف العربية الحربية أو مثل الصندوق الصغير الذي عثر عليه في مقبرة "توت عنخ آمون". وعاش تحوتمس الرابع في سلام مع دولة الميتانيين، بل تزوج من ابنة ملكهم الملكة "موت أم أوا" أم الملك "أمنو فيس الثالث".

وإن كانت هذه الزيجة قد تمت بعد أن خطبها سبع مرات، فلم تحظ هذه الزوجة بمرتبة الزوجة الرئيسية.

٢-مصر في عصر "أمنوفيس الثالث" (١٤١٣الى ١٣٧٧ ق.م)

بلغت مصر ذروة قوتها ونفوذها العالميين في عهد "أمينوفيس الثالث"، الذي اختار اسمًا للعرش هو"نب معاث رع" (رع هو رب الحق) والذي نطقه البابليون "نيموريا". وثابت من نقش سجل على جدران معبد الأقصر أنه ابن الملك "تحوتمس الرابع" والملكة "موت أم أوا". ونعتبره خاتمة الفراعين العظام من الأسرة الثامنة عشرة فقد كان حفيدًا لتحوتمس الثالث.

وتمتع بمدة حكم طويلة استغرقت ستًا أو ثلاثين سنة أمضاها كلها في سلام كامل تقريبًا، ومن أجل ذلك درج البعض على إطلاق صفة "العظيم"عالية.

وتناول الأستاذ "شتايندورف" دراسة حضارة عصره وتقدمها وازدهارها في كتابه المعروف:"Die Blitezeit des Pharaonenreiches" لقد استطاع "أمنوفيس الثالث"، أن يجني لمصر في مدة حكمه الطويلة التي سادها السلم، ثمار المجهودات الضخمة التي بذلها أسلافه المحاربون بغزواتهم المتعددة في الجنوب والشمال. وبالرغم من وجود لوحة كبيرة لانتصاراته كان قد أقامها في طيبة وهي محفوظة الآن في المتحف المصري، لم ترد عن غزواته إلا أخبار غزوة واحدة وجهها في العام الخامس من حكمه إلى بلاد النوبة، ومن المعروف أنه لم يرسل حملة واحدة إلى آسيا.

وليس من شك في أن الفن بلغ أقصى درجاته في عصر هذا الملك وذلك بالنسبة إلى الدولة الحديثة، أما تطور الفن في العصر التالي، أي عصر العمارنة فهو يعتبر– رغم كل ما فيه من سحر وبهاء – بدء الاضمحلال.

وأشهر الآثار المعمارية التي شيدت في عصر "أمنوفيس الثالث" هو المعبد الذي بني خصيصًا للإله آمون بالأقصر، ويقع على مسافة ليست بعيدة إلى الجنوب من معبد الكرنك وتتجمع حول معبد الأقصر حاليًا الأبنية الحديثة لمدينة الأقصر.

واعتبر هذا المعبد قديمًا بمثابة حريم الإله آمون، الذي كان مقره الرسمي في معبد الكرنك وكانت تقام في كل عام حفلة كبيرة بمناسبة زيارة الإله آمون؛ أي تمثاله، لحريمه الجنوبي، وكان تمثاله يوضع في قارب كبير تكثر الزخارف التي تحلى جنباته، ويسير الموكب على صفحة النيل من الكرنك إلى الأقصر ثم بالعكس وكانت تلاحقه جموع غفيرة من الناس فوق الشاطئ.

أن هذا المعبد الذي شيد على شاطئ النيل في الأقصر يعتبر من العمائر التي تمت أجزاؤها كلها في عصر هذا الملك، وهو لا يزال حتى الآن من أكثر المعابد تأثيرًا في الناس من حيث الروعة والجمال، إلا أن رمسيس الثاني ببنائه للفناء الذي يقع إلى الشمال من المعبد كان قد أفسد التناسق الجميل لمعبد أمنوفيس الثالث إذ خرج هذا الفناء عن المحور الأصلي للمعبد واتجه نحو الشرق، والأعمدة الجميلة التيشكلات على هيئة حزمة من سيقان البردى وهى التي ترتفع في وسط صالة الأعمدة المحاذية للنيل قد بلغت حدًا من الدقة والرشاقة بحيث تبدو للناظر كما لو كانت غابة احتشدت فيها الأعمدة الحجرية، وتتميز النقوش التي زينت جدران الحجرات بدقه وجمال يفوق الوصف، ومن بين هذه النقوش صورة طبق الأصل لمناظر أولاده التي كانت "حتشبسوت" قد سجلتها على جدران معبدها ولكن الإله آمون في هذه

المرة، كما ذكر صراحة في هذا النقش، اجتمع مع الملكة "موت– أم– أوا" متقمصًا صورة الملك تحوتمس الرابع، وذلك لإنجاب أمنوفيس الثالث. وتوجد غير هذا المعبد منشئات اختفت الآن بعد أن تهدمت.

ونضرب لذلك مثلًا القصر الذي كان الملك يسكنه عند إقامته في منطقة طيبة الغربية، ويقع مكانه إلى الجنوب من معبد مدينة هابو (ويطلق على موقعه الآن اسم "الملفطة") هذا القصر اختفى ولم يبق منه إلا بعض قطع جصية تحوي زخارف جميلة، لها أهمية كبرى بالنسبة إلى تاريخ الفن وإلى الاساليب الزخرفية التي انتشرت في العصر التالي لها أي عصر تل العمارنة.

وشيد الملك معبدًا ضخمًا لإقامة الشعائر الجنائزية الخاصة به، واختفى أيضًا ولم يبق منه إلا التمثالان المعروفين باسم "تمثالي ممنون"، وكانا في الأصل يقومان أمام مدخل البيلون الموصل للمعبد، وأصبحا الآن يرتفعان وسط أرض زراعية خصبة ويمثلان أمنوفيس الثالث جالسًا على عرشه.

أما مقبرته فقد اختار لها مكانًا نائيًا يعرف باسم "وادي الملوك الغربي" وهو يقع في منطقة أكثر وحشة وجدبًا من الوادي الرئيسي للملوك. ولا تتميز هذا المقبرة بشيء. وعاصر "أمنوفيس الثالث" رجل تقلد أكبر المناصب في مصر وهو "أمنوفيس" الذي اعتاد الناس،للتفرقة بينه وبين الملك، أن يقرنوا اسمه باسم أبيه أي "آمنوفيس– حابو"، واستطاع هذا الرجل أن يفوز بحق تعذر على غيره أن يناله وهو إقامة مقبرة بمعبد ملحق بها (أي ليس كالمقابر الصخرية العادية) في جبانة طيبة الغربية، ولقد عثر عليها رجال البعثة الفرنسية قبيل الحرب العالمية الثانية. وهناك عدة تماثيل جميلة "لأمنوفيس – حابو" هذا، تمثله وهو في جلسة الكاتب، وتعتبر من أشهر القطع الأثرية الجميلة.

وللتعرف على مدى تفوق أساليب الفن في عصر أمنوفيس الثالث، علينا أن نلقي نظرة على نقوش مقابر موظفي هذا العصر في جبانة طيبة، ولعل من أهمها مقبرتي"خع- أم- حيت" و "راموزة "، أن هذه النقوش قد بلغت ذروة الجمال والدقة سواء في خطوطها اللينة أو في التناسق بين نسبها، وليس من شك في أن هذه بذروة لم يصل إليها الفن في أي عصر آخر من عصور التاريخ المصري حتى في عصر الدولة القديمة الشهيرة بفنها الجميل.

ولقد سار فن نحت التماثيل في هذا العصر في نفس الطريق ووصل إلى ذروة الدقة والجمال.

وإذا كان "أمنوفيس الثالث" قد جعل من نفسه إلها قدم في المعابد و بخاصة معابد بلاد النوبة، إلا أنه حدثت في عصره بعض الأحداث التي تدل على نوع من التحلل من القديم، وهي بالذات التي كانت بمثابة المقدمة لما وقع في مصر في عصر خليفته أخناتون.

ونضرب لذلك مثلًا "الأسلوب الواقعي" الذي ظهر على أحد التماثيل الخاصة به، تم الطريقة التي اتبعها في إظهار الملكة في كل مناسبة كانت الزوجة الرئيسية هي الملكة "تيه" ابنة من الشعب انحدرت من أب وأم عملا في بعض الوظائف البسيطة في الدولة، إلا أن زوج ابنتهما؛ أي أمنوفيس الثالث، أغدق عليهما من أنواع التكريم، حتى وصل إلى إعطائهما الحق في أن يدفنا في إحدى مقابر وادي الملوك التي كانت مخصصة فيما عدا ذلك لدفن الفراعنة.

ولا بُد أن هذه الزوجة الرئيسية هي الملكة "تيه"، ابنة من الشعب انحدرت من أب وأم عملا في ومن أجل ذلك رأى الملك لزامًا عليه أن يبلغ الشعب رسميًا أمر هذا الزواج، ولما لم تكن هناك في ذلك الوقت وسائل كافية للإعلان العام شبيهة بالصحف اليومية في وقتنا الحاضر، فقد اضطر الملك إلى صنع "جعلان" (جعارين) كبيرة الحجم، ونقش على باطنها هذا الخبر ثم أمر بتوزيعها في أنحاء البلاد، والناس على حق إذا قارنوا بين هذه الجعلان، التي لم يصدر مثيلًا لها إلا في عصر "أمنوفيس الثالث"، وبين ما نصدره حاليًا من القطع النقدية التذكارية.

وكثر بعد ذلك إصدار هذه الجعلان التذكارية في كل مناسبة، فمنها ما يسجل فوز الملك في صيد الأسود والثيران الوحشية، ومنها ما يسجل حفر بركة متسعة نزم إعدادها لرحلات البهو الملكية، ومنها أيضًا جعلان صدرت بمناسبة زواج الملك من الأميرة "كيلوخيبا" (وتكتب الكتب القديمة اسمها "جيلوخيبا" إحدى بنات الملك الميتاني، وأنها وصلت إلى مصر يصحبها ٣١٧ من بنات بلاطها، وسميت هذه الأميرة باسم مصري واختفت بعد ذلك في البلاط المصري) ومن الطريف أن نعلم أن هذه التسجيلات التذكارية كانت تنوه باستمرار أن الملكة الشرعية للبلاد همي "تيه": وفي أواخر عصر هذا الملك تزوج من أميرة ميتانية أخرى اسمها "تا دو خيبا".

ونحن على معرفة جيدة بعلاقات مصر الخارجية في هذه الفترة التي نبحثها، وهي فترة لم تتميز بحدوث أية حروب أو غزوات خارج الحدود، ووصلت إلينا هذه المعلومات عن طريق المجموعة الكبيرة من "ألواح تل العمارنة"، المشهورة والتي عث عليها أحد المزارعين مصادفة عام ١٨٨٧ م،

ونقشت عليها الرسائل والمكاتبات الرسمية المتبادلة بين أمراء المناطق الآسيوية وبين الملكين أمنوفيس الثالث والرابع وقام بنشر هذه اللوحات الطميية المستشرق النرويجي"كتود نسون" وأتت دراسته لها كاملة مجدية.

ومن الطريف أن نعلم حقيقة هامة من الناحية الحضارية وهي أن رسائل تل العمارنة هذه كانت قد كتبت باللغة البابلية وأن هذه اللغة كانت هي لغة المكاتبات الدبلوماسية، ولم تكن اللغة المصرية تستخدم في هذا المضمار وكانت بابل في ذلك الوقت تنوء تحت حكم الكاشيين، ولم تلعب مطلقًا دورًا مهمًا على المسرح السياسي، لقد كانت ألواح تل العمارنة تحوى الخطابات المرسلة إلى مصر مكتوبة بالخط الإسفيني البابلي، ولابد أن المسردين كانوا يرسلون إجابتهم عليها بنفس اللغة والخط.

وأنه قد أن الإلمام باللغة البابلية وبالخط الإسفيني كان أمرًا يتحتم على كثيرين من الكتاب المصريين وذلك للقيام بأعباء وظيفتهم. وتحتوى الرسائل سالفة الذكر أولًا على تقارير من أمراء الدويلات الفلسطينية والسورية، ثم على خطابات أرسلها ملوك بابل والميتاني إلى فرعون مصر، والرغبة الأولى التي تبرز لنا من هذه المراسلات هي الإلحاح المستمر في طلب المزيد من الذهب، ويبدو من هذا مدى الثراء الفاحش والتي كانت تتمتع به مصر في ذلك الوقت، ومن أهم الأشياء التي تبرزها لنا هذه الرسائل والتي تساعدنا على التعرف على ما كان يسود العلاقات الخارجية بين مصر وهؤلاء الجيران، هو أن الرسائل كانت تبدأ باستمرار بصيغة التحية بين الملوك وبكلمة "يا أخي"، ومعنى هذا أن مصر لم تحتفظ لنفسها بحقها القديم المتوارث الذي يجعل منها البلد الوحيد الذي يتمتع ملوكه بقدسية الآلهة، بل اضطرت بالنسبة إلى علاقاتها الخارجية على الأقل، أن تأخذ بمبدأ المساواة بين الملوك، ولكن

هذا لا يمنع إن كانت مصر صاحبة النفوذ السياسي الأول في ذلك الوقت، ودليلنا على ذلك هو الطلب الذي تقدم به ملك بابل يطلب فيه السماح له بالتزوج من أميرة مصرية، أن هذا الطلب رفض رفضًا صريحًا، في حين كانت الأميرات الميتانيات يحضرن بأعداد وفيرة إلى البلاط المصري، كما رأينا ذلك فيما سبق أن مراسلات تل العمارنة تعطينا صورة واضحة للحالة السياسية التي كانت تهيمن على بلاد الشرق الأدنى القديم في ذلك العصر.

وأثر ازدياد نفوذ مصر العالمي في ذلك العصر تأثيرًا واضحًا على ناحية من النواحي المحببة إلى قلوب المصريين، نقصد بذلك الناحية الدينية. فإذا كان فرعون مصر قد أصبح سيدًا على سوريا وبلاد النوبة، فقد تبع ذلك امتداد ذو آلهة مصر إلى هذه البلاد، وبخاصة إله الشمس.

وكان هذا بمثابة التمهيد للثورة الدينية التي قامت في عصر خليفة هذا الملك، أي في عصر "أمنو في الرابع" المعروف باسم "أخناتون"، وهو الذي حاول أن يجعل من الله الشمس إلهًا واحد عاليًا لا يدين به المصريون فحسب، بل كل الشعوب القديمة بأسرها.

وهناك بردية محفوظة الآن في المتحف المصري، تحوي نشيدًا لآمون، يعتبر من أهم الأدلة على أن التمهيد الجديدة التي نفذها أخناتون، كان قد بدأ في عصر "أمنوفيس الثالث"، فإن ألفاظ هذا النشيد (الذي لا بد وأنه كتب في عصر أمنوفيس الثالث) تردد كل المعاني الجديدة التي ظهرت في أناشيد العمارنة فيما بعد.

٣- عصر العمارنة (محاولة الملك "أخناتون" القيام بحركة اصلاح) من ١٣٧٧ الى ١٣٤٥ ق.م

أنجب أمنحوتب الثالث من زوجته الملكة تيه ابنا هو الملك المشهور "أمنحوتب الرابع" أو كما سمى نفسه فيما بعد حين أعلن إلهه الجديد "أتون""أخناتون" (الذي رضي عنه آتون) لقد منكم تسعة عشر عامًا (من ١٣٧٧إلى١٣٥٨ ق. م) وخلفه ملوك لم تطل مدد حكمهم، كما أن حركة أخناتون أصيبت في فتراتهم بنكسة وما لبث أن انهارت ورجعت عبادة آمون إلى مجدها القديم. من الواضح أذن أن عمر العمارنة لم يدم بعد أخناتون أكثر من ثلاث عشرة سنة أي إلى عام ١٣٤٥ ق. م.

ومُنذ البدء كان اسم الملك الخاص بالعرش يحوي ما يدل على ارتباط كبير بعقيدة الشمس وأن كان اسم الشمس هو الاسم القديم أي "رِع" وكان اسم العرش "نفر خبرو رعواع آن رِع" والذي معناه "رِع صاحب الأشكال الجميلة– أنه الوحيد لرع".

ليس من شك أنه أقدم على محاولة جبارة بأن أقام دينًا جديدًا كما أدخل تجديدات كبيرة على الفنون، ولعل هذا هو السبب الذي دفع الفراعنة على إطلاق اسم "المهرطق" عليه.

وهناك رأيان متعارضان: فالأول يمجد تلك الشخصية الفذة التي استطاعت أن تخلق دينًا جديدًا والتي تمكنت أيضًا من أن تخرج لنا روائع فنية كانت نتيجة مباشرة لوحيه الشخصي، أما الرأي الثاني فيستنزل عليه اللعنات لأنه كحاكم أهمل واجباته المقدسة وترك الحبل على غاربه في السياسية وشئون الحكم وسبب انهيار البلاد وتأخرهما بشكل مزر.

ومن واجبنا هنا أن نتخذ طريقًا وسطًا بين الرأيين على أن نبرز أحداث هذه الفترة بطريقة إيجابية بعيدة عن التحيز.

يبدو أن أمنحوتب الرابع نشأ في "أرمنت" القريبة من طيبة (وهي التي عرفت باسم "هينيو بوليس مصر العليا) وقام على تعليمه فيها كهنة من أتباع مدرسة لاهوت ميليوبوليس وليس من شك في أن "يونكر" كان على حق حين أكد أن "عقيدة أمون" الطيبية التي أخذت تنتشر مُنذ الأسرة الثامنة عشرة قوبلت بجفاء في كل من المدينتين القديمتين هيليوبوليس ومنف، لأن كهنة ماتين المدينتين لم يجدوا في هذه العقيدة شيئًا جديدًا كما أنها لم تخلق وعيًا جديدًا يفخر به الناس.

فلا غرابة إذن إذا أحسسنا بوجود تيارات مناهضة من جانب هيليوبوليس ضد عقيدة آمون الطيبية التي لم يمض على ظهورها إلا فترة قصيرة – ولم يكد الملك الصبي يجالس على العرش حتى أخذ ينفذ بعض توجيهاته الجديدة التي كانت تقوم على أسس استمدها من هيليوبوليس – وبدأ يطالب بتقديم مظاهر التقديس على نطاق أوسع لرع إله هيليوبوليس في طيبة، واحتفظ بهيئة الإله كادمي ذي رأس صقر يعلوه قرص الشمس إلا أن اسم "أتون" أخذ يظهر في أوائل هذه الفترة.

ولم يكن "آتون" في هذه الحالة عنصرًا إلهيًا جديدًا أوجده الملك بل كان هو الاسم الذي أطلق على قرص الشمس مُنذ عصر الدولة القديمة. كان هذا هو الاسم الفلكي للشمس مجرم في السماء دون أن يرتبط بأية صفة من صفات الآلهة، ومن الواضح أن هدف الملك كان يتجه نحو محو الصورة القديمة للإله "رِع" وتخليص إلهه منها وتغليب المظهر الروحي له، وانتهى

الأمر بتلك الصورة المعروفة للإله "آتون" التي تصوره في صورة قرص الشمس، تشع منه أشعة شديدة،إذا وجهت إلى إنسان ما، انتهى كل شعاع منها إليه بيد بشرية تقدم رمز الحياة القديم "عنخ" وشيد أمنحوتب الرابع لإله الشمس أتون في طيبة معبدًا ملاصقًا لمعبد آمون.

ومن الواضح أنه أراد في أول الأمر مهادنة كهنة آمون معللًا النفس باكتساب بعضهم الاعتناق دينه الجديد، وأظهرت الأحداث أن هذا الهدف لم يتحقق مطلقًا. حقيقة إننا لم نعثر على وثائق مكتوبة تثبت معارضة كهنة آمون مُنذ أول الأمر لهذه العقيدة الجديدة إلا أن منطق الأحداث لا يجعل هناك شكًا في هذا.

ومما زاد الطين بلة أن الإصلاح الديني كان مصحوبًا بتجديدات فنية أصابت القيود والقواعد القديمة في صميمها وهدمتها وأودت بها. ولقد عثر في هذا المعبد على تماثيل للملك قدت على أساس الفن التعبيري وهو فن كان تأثيره على مصري ذلك العصر بمثابة صفعة على وجهه وتحريض سافر على نشوب المعركة.

وليس من شك في أن الدافع لإظهار هذا الاتجاه الفني "التعبيري" الجديد كان رغبة الملك الملحة في تجنب المبالغة في إبراز صور الفرد في ذلك الإطار المثالي ووجوب إظهاره على حقيقته، وانصب هذا التوجيه الجديد على الملك نفسه، وفي واقع الأمر لا نفتأ نلاحظ تمسك الملك بأهداب "الحقيقة"" في كل تصرفاته، هذا مع العلم أن هذا الرجل المصلح كان مريضًا بمرض عضال شوه كل أجزاء جسمه ولم تمض غير فترة قصيرة حتى أخذنا نلاحظ تريثًا في تحقيق قواعد الفن "التعبيري" الجديد.

ظهر هذا في الروائع الفنية الخالدة التي وصلت إلينا من العاصمة الجديدة "تل العمارنة" سواء منها التماثيل أو اللوحات المنقوشة، وهي التي تثير إعجاب الناس في عصرنا بشكل لا مثيل له.

يبدو أن معارضة كهنة آمون وكفاحهم ضد الدين الجديد أخذ يزداد ويتطور بحيث لم يستطع الملك معه البقاء في طيبة، ولذلك نراه في العام السادس من حكمه يقرر تشييد عاصمة جديدة اختار لها مكانًا جديدًا يتوسط تمامًا المسافة بين منف وطيبة وهما العاصمتان اللتان تبادلتا الحكم في التاريخ المصري، وسمى عاصمته الجديدة "أخيت أتون" (أفق أتون) واعتقد أن في استطاعته أن يهب حياته لعبادة إلهه الجديد، كما كان أمله أن يمتثل المصريون ويدخلون في دينه أفواجًا، إلا أن آماله خابت تمامًا في هذه الناحية. حقيقة أن بعضًا من رجالات البلاط أظهروا إعجابهم بالدين الجديد ولا شك أنهم كانوا في ذلك متملقين.

ولكن الأحداث التاريخية أظهرت بوضوح أن هذا الإصلاح الديني الذي ترى فيه كل معنى من معاني الخير والعمق الديني لم يؤثر مطلقًا على الشعب المصري ولم ير فيه تلك المعاني: لقد بدأ الملك في ذلك الوقت بتوجيه حملة شعواء في طيبة ضد الإله آمون والآلهة التي ارتبطت به فمحا اسمها من فوق تماثيلها وصورها المنقوشة، بل أكثر من هذا غير الملك اسمه الذي يحوي لفظ "آمون" وأطلق على نفسه اسمًا جديدًا هو "أخناتون".

تميز الموقع الجديد الذي اختير لتشييد العاصمة والتي نطبق عليها حاليًا اسم "تل العمارنة" باتساع رقعته اتساعًا كبيرًا.

وأقام الملك عددًا من اللوحات الحجرية التي تحدد حدود هذه المدينة على جانبي النيل بين الصحراء الشرقية والصحراء الغربية ولا تزال بعض هذه اللوحات قائمة في مكانها حتى عصرنا هذا.

ونظرًا لأن هذه العاصمة قد هجرت بعد موت الملك مباشرة (وهذا أمر نعلمه تمامًا) أي أنها لم تعمر أكثر من اثنتي عشرة سنة، لذلك كان من الواضح ألا تتعدد أبنيتها كما أن تلك التي تم تشييدها كان قليل العدد، والزائر لأطلال هذه المدينة يشعر تمامًا بأزمة أنشئت لتكون ممتدة الأطراف وظلت الأبنية التي بدئ بإنشائها غير كاملة. لقد كانت "العمارنة" مدينة غير محصنة واسعة الأرجاء قام بتخطيطها على الإكثار من الحدائق وزرع الأشجار على جوانب طرقها وهناك ثلاثة قصور على الأقل كشفت عنها البعثة الألمانية، ثم أخذ رجال الآثار من الإنجليز تكملة هذا العمل بعد الحرب العالمية الأولى، ولقد زخرفها بكل العناصر التي أحبها والتي تمثل طيور الكماء وحيوان الصحراء.

وكانت هذه القصور مشيدة من اللبن كما كانت جدرانها وأرضيتها مغطاة بطبقة من الجص لونت بعد ذلك بأزهى الألوان. وتعتبر مناظر العمارنة المرسومة على الجص ومثيلاتها التي غطت جدران قصر "أمنحوتب الثالث" بطيبة من أهم وأروع ما خلفه الفنان المصري القديم هذا الفنان الذي لم يترك فرصة دون أن يبرز فيها جمال الطيور التي تتدافع فوق أغصان الأشجار والتي تزدحم بها شواطئ النهر، وغير هذه القصور الملكية فقد احتفظت لنا أطلال المدينة بعدد كبير من منازل الأفراد، ومن هذا استطعنا أن ندرك ما كان يدور في حياة الناس المنزلية إبان هذه الفترة.

ووجه أهل هذه المدينة عنايتهم أيضا نحو تشييد مقابرهم. لقد رأينا أن الموقع الذي خصصه الملك لمدينة تل العمارنة يمتد بحيث يغطي مساحات واسعة على شاطئ النيل ولكننا نجد أن الجبانة لم يخصص لها مكان في الجانب الغربي كما كان الحال بالنسبة إلى المدن الأخرى التي كانت تقع جباناتها على الشاطئ الغربي للنيل - إن كلمة "غرب" في اللغة المصرية القديمة استعملت للتدليل على الجبانة - بل نجد الجبانة هنا تقع على الشاطئ الشرقي للنيل بالقرب من المدينة نفسها وهذه الظاهرة لا بد أن يكون مرجعها إلى أن ديانة الشمس تجعل من الشرق (حيث يشرق الإله) المكان المقدس الذي تفوق أهميته ما كان للغرب واتبع أهل العمارنة نفس الطراز المستعمل في طيبة في نقر مقابرهم في باطن الصخر، إلا أن أسلوب النقش كان متغيرًا واستعملوا أسلوب العمارنة المشهور الذي يتميز أيضًا بأن اللوحة كانت تتجمع حول صورة الشمس ذات الشعاع وهي الصورة التي وصفناها فيما سبق.

ووجه أهل العمارنة عنايتهم نحو أحداث الأسرة المالكة فنجدهم تارة يصورون الموكب الخاص بزيارة الملك والملكة وبناتهما الصغيرات لمعبد أتون وقد امتطى كل فرد من الأسرة الملكية عربة خفيفة يجرها زوج من الخيول، أو زيارة الأم الملكية "تيه" لابنها في العمارنة - ويبدو أن الملكة العجوز (تيه) كانت من أكثر المتحمسين لديانة ابنها الجديدة - وتارة أخرى نجدهم يمثلون الاحتفالات الخاصة بإهداء الأوسمة والهدايا المختلفة إلى أصحاب النفوذ من رجالات البلاط ويكون هذا بأن يقف الملك وحوله أفراد أسرته في شرفة قمره وهي شرفة من الطراز الذي كان شائعًا في قصور الأسرة الثامنة عشرة، ومن أبرز الشخصيات التي لعبت دورًا كبيرًا في البلاط "آي" الذي

نقش منظرًا لنفسه ولزوجته فوق جدران مقبرته المنحوتة في جبانة العمارنة والتي لم يستعملها مطلقًا، هذا المنظر يمثلهما راكعين يرتلان أنشودة آتون المشهورة التي كانت تعتبر الأساس لعبادة آتون وديانته، والتي قال عنها المؤمنون بهذا الدين أن الملك لم يحاول مرة أن يطلعهم على نصها.

وهذه الأنشودة تعتبر أيضًا قصيدة شعرية رائعة تترنم بالشمس خالقة الوجود وكائناته ولم تقتصر في خلقها على مصر بل على العالم أجمع والناس على حق عندما يقارنونها بالمزمور ١٠٤ من العهد القديم بل حين يقارنونها بأنشودة الشمس للقديس فرنسيس من العصور الوسطى للمسيحية.

وهذه الأنشودة بما فيها من آراء جميلة تجد طريقًا سهلًا إلى قلوبنا ومنطقنا فلا غرابة إذا اعتبرنا صاحبها أخناتون يعيش متقدمًا عن عصره وذلك لعبقريته ولا غرابة أيضًا إذا كان المصري في ذلك العصر لم يفهم مغزاها ولم يستطع التعرف على كنهها.

إِن أخناتون يُمثل لنا عبقرية تم نضوجها في وقت سابق لأوانها وإن ظهورها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان ميلادًا مبكرًا جدًا لها.

و نقر "أخناتون" مقبرة صخرية لأسرته اختار لها موقعًا في واد صخري بعيد في الصحراء الى الشرق من تل العمارنة. هذه المقبرة لم تسمح الظروف بإنهائها ومعنى هذا أنها لم تستعمل أيضًا.

إلا أنه يبدو أن ابنته الثانية (ومن المعروف أن أخناتون أنجب ست بنات) ماتت في سن مبكرة ودفنت في هذه المقبرة ونستدل على هذا من تلك الصور المحزنة التي صورت على التابوت الخشبي لهذه الفتاة.

أما التابوت الخارجي الجرانيتي الضخم لهذه الفتاة وهو الذي تحطم إلى قطع صغيرة نتيجة لحملات الأخذ بالثأر التي وجهها أعداء آتون إلى المؤمنين به، ويحوي هذا التابوت على أركانه الأربعة – بدلًا من صدور آلهة – صورًا لأم الأميرة تمثلها واقفة يرفرف عليها منظر الشمس التي يمتد منها الشعاع. وإن دل هذا على شيء فهو يدل على الاتجاه الروحي الذي تميزت به ديانة آتون.

وكما تمتعت الملكة "تيه" بمركز ممتاز في عصر زوجها الملك أمنحوتب الثالث، نجد أيضًا أن زوجة "أخناتون" قد فازت بنفس المركز بل لعلها كانت أكثر تمتعًا به. ويغلب على الظن أن "نفرتيتي" (الجميلة تتهادى) تنتسب إلى أسرة أجنبية لا نعرف موطنها الأصيل، وكما جرى العرف في مصر القديمة، اختارت لنفسها اسمًا مصريًا بعد أن استقرت بها الحال في البلاد.

ونفرتيتي هذه هي التي حاز تمثالها النصفي الملون إعجاب الناس في العالم كله. ولم تتم الهناءة لهذه الزيجة السعيدة بإنجاب ابن يرقى العرش بل أنجب الزوجان بنات بلغ عددهن ستًا.

ولقد كثر الحديث عن الانبعاج الغريب الذي بدا في مؤخرة الرأس للأميرات. وبعض ما قيل صحيح والبعض الآخر يبعد عن الصحة. ومن المؤكد أن هذا الانبعاج لم يكن نتيجة لنوع معين من تصفيف الشعر، بل يبدو أنه كان نتيجة مقصودة لمحاولة تجرى لمؤخرة الرأس إبان الطفولة المبكرة للأميرات.

وهناك ما يدل على أن هذه العادة كانت متبعة في قبرص حوالي القرن العشرين قبل الميلاد، ولو أنه من الجرأة حقًا أن نعتمد على قرينة أثرية مماثلة لنربط بين "نفرتيتي" وبناتها وبين قبرص كوطن أصلي لهن.

ولقد أنتجت أعمال الحفر والتنقيب العلمي في العمارنة العثور على أكثر من حانوت من حوانيت الفنانين هناك، وهذه أمدتنا بعدد ضخم من روائع فن النحت كما أمدتنا بمعلومات وافية عن طريقة تحت التماثيل والأساليب المختلفة لهذا الفن، ونأسف لأن صفحات الكتاب سوف لا تتسع لمعالجة هذه الناحية الأثرية الفنية.

وبينما كانت الأيام تمر سراعًا على أخناتون وهو قابع في قصره بمدينة العمارنة يتعبد لإلهه يترنم بأنشودته، أخذت تنهال على مصر خطابات أمراء مدن سوريا وفلسطين المليئة بالشكوى والمُنذرة بالخطر الذي أخذ يدق الأبواب ومصر لا تحرك جانبًا ولم ترسل جيوشها للقضاء على عوامل الفتنة والثورة المتفشية في مراكزها الأمامية.

هذه الخطابات التي كتبت بالخط الإسفيني والتي عثر على مجموعة كبيرة منها في أرشيف العمارنة، تصف مدى ما وصلت إليه الحالة من خطورة في عصر أخناتون، وهذا الانحلال السياسي بالذات هو نقطة الضعف التي تحاول باستمرار أن تغض الطرف عنها عندما ننكب دارسين للروائع الفنية التي خلفها لنا هذا العصر تمتع النظر بها ونتعجب لجمالها.

أن الواقع يدل على أن أخناتون قد تسبب في ضياع كل ما حققته جهود أجداده الجبابرة من نصر في آسيا القريبة، وكان على خلفائه من ملوك الأسرة التاسعة عشرة أن يبدؤوا من جديد كما سنرى ذلك فيما بعد.

لقد قلنا فيما سبق أن تماثيل أخناتون ذات الفن "التعبيري" التي عثر عليها في طيبة والتي تمثله في باكورة عصره تدل على أنه كان رجلًا ضعيفًا مريضًا لا يُمكن أن يكون قد عاش طويلًا.

لقد مات بعد أن حكم مصر لفترة تسعة عشر عامًا ولم نعثر حتى الآن على مقبرته، ونذهب الى حد التوكيد أنه لم يدفن في المقبرة التي تقرها لأفراد أسرته إلى الشرق من تل العمارنة.

ونرجح أن موته حدث نتيجة لمؤامرة دبرت للقضاء عليه، إلا أن الثابت أننا نجهل تمامًا ما حدث له في نهاية عمره، كما أن عدم عثورنا على جثته يجعل من العبث التحدث عن سنه حين فارق الحياة. ولأن أخناتون لم ينجب وريثًا للعرش، خلفه زوج ابنته الكبرى "سا كا رع" (ويمكن قراءة اسمه أيضًا "سمنخ كا رع") واسم هذه الابنة (مريت أتون) (المحبوبة من أتون).

ومن أهم القرائن التي تثبت مدى ما وصلت اليه البلاد من اضمحلال داخلي بعد موت أخناتون، الخطاب الذي أرسلته أرملة الملك (نفرتيتي) إلى الملك الحيثي تطلب إليه أن يرسل أحد أبنائه لتتزوجه وليصبح ملكًا على مصر.

إن هذا التصرف يعتبر من الناحية التاريخية صفعة دنيئة على وجه مصر والمصريين: وهذا الحادث، بالذات، لم تصلنا إلا تفصيلات ضئيلة عنه وذلك عن طريق بعض النصوص التي ظهرت في أطلال مدينة "بوغاز كوى" العاصمة القديمة لدولة الحيثيين. وكل ما نعرفه هو أن الملك الحيثي استجاب إلى هذه الدعوة وأرسل بالفعل أحد أبنائه.

ومن المعروف أن دولة الحيثيين في تلك الفترة كانت قد وصارت إلى أوج قوتها وكان يجلس على عرشها إذ ذاك الملك "شوبوليما" المعاصر لأخناتون والذي امتد حكمه بعد موت أخناتون، ومن المعروف أيضًا أن الحيثيين مدوا نفوذهم نحو الجنوب ووصلوا إلى سوريا الشمالية أي أنهم

أصبحوا على حدود الإمبراطورية المصرية. ولقد سكتت المصادر المصرية ولم تذكر شيئًا عن رغبة الملكة "نفرتيتي" في التزوج من أمير حبشي وتنصيبه فرعون لمصر.

وعلى كل حال فقد فشلت المؤامرة وقتل الأمير الحيثي في الطريق قبل أن يصل إلى الحدود المصرية. ويجدر بنا هنا أن ننبه الى ظاهرة غريبة وهي أن ذكر "نفرتيتي" في أواخر عصر أخناتون على الآثار المصرية كان قد قل بشكل يبعث على التساؤل، أضف إلى ذلك أن كثيرًا ما كان اسمها يمحى ويستبدل به اسم ابنتها الكبرى "مريت آتون" زوجة الملك "سا كا رع" وعلى كل حال نحن نجهل تمامًا كيف قضت نفرتيتي نحبها كما لا نعرف مكان مقبرتها.

لم يحكم الملك "سا كا رع" مصر إلا فترة قصيرة جدًا اختفى بعدها تمامًا. وخلفه على العرش زوج آخر لإحدى بنات أخناتون أي "توت عنخ آتون" (حياة أتون كاملة) وكانت هذه الزوجة هي الابنة الثالثة لأخناتون واسمها "عنخ اس أن با أتون" (إنها تحيا من أجل أتون) وفي عهد هذا الملك تم الانتقال من تل العمارنة إلى طيبة وذلك بعد أن تم الصلح مع كهنة آمون وبذلك أصبحت العمارنة مدينة مهجورة ولم يحدث أن سكنها الناس بعد ذلك.

ومن الطريف أن نذكر هنا كيف غير كل من الملك والملكة اسميهما فأصبح الملك يسمي نفسه "توت عنخ آمون" والملكة "عنخ اس آن با آمون" أي أن آتون استبدال بآمون ولعل من أهم النصوص التي وصلت إلينا من هذا العصر والتي تمدنا بمعلومات قيمة عن تطور الأحداث الدينية في مصر هو النص الذي نقشه "توت عنخ آمون" على لوحة كبيرة أقامها في معبد الكرنك

وفيما يلي ترجمة لبعض سطور منه: "لقد أولت الآلهة ظهورها لهذا البلد، وإذا ما حاول أحد من الناس أن يطلب من إله وحبه لم يستجب هذا الإله لدعائه. وإذا توجه أحد إلى إلهه برغبة تصمت ولا تجيبه".

وتذكر هذه اللوحة أيضًا بعضًا من الأحداث الخارجية فتقول: "وإذا ما أرسل الجند إلى فينقيا لتوسيع الحدود فإنهم لا يصلون إلى نتيجة".

ولقد عثر ذا على معبد في طيبة شيد في عصر هذا الملك الذي لم يمتد حكمه إلا لفترة قصيرة، كما أن معبد الأقصر كان قد تم بناؤه في عصره وتم أيضًا نقش المناظر الجميلة التي تصور الاحتفالات الكبيرة والتي تقام بمناسبة انتقال "آمون" من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر ولعل حديثنا عن هذا الملك كان يصبح قصيرًا لولا عثور اللورد كار نارفون والأثري الإنجليزي كارتر على مقبرته عام ١٩٢٢بوادي الملوك وكنوز هذه المقبرة هي التي جعلت اسم هذا الملك الخامل الذكر يدوي في العالم ويصبح على لسان كل فرد، وليس من شك في أن روعة هذه الكنوز ليست إلا دليلًا على ما كان يكنه له كهنة "آمون" من تقدير وشكر.

ودلت الدراسات الطبية التي أجراها العلماء على جثة هذا الملك، أنه مات في سن مبكرة ولم يبلغ بعد العشرين من عمره، وإذا صحت الأخبار التي ذكرتها النصوص من أنه حكم تسع سنوات فلابد أن يكون قد ارتقى العرش في سن الحادية عشرة أي وهو لا يزال في سن الطفولة (١٣٥٨- ١٣٤٩هـ ق.م).

ومن بين المناظر المرسومة على جدران المقبرة نجد منظرًا لم نعهد له مثيلًا من قبل، يظهر فيه الملك "أي" وهو يقوم ببعض الطقوس اللازمة لجثة الملك "توت عنخ آمون" ونحن لا ندري مطلقًا كيف استطاع "آي" أن يخلف "توت عنخ آمون" على العرش وقد عرفناه من قبل كأحد رجالات البلاط في قصر العمارنة وممن سارعوا بالانضمام إلى دعوة أخناتون فلا بد أنه كان قد رجع إلى حظيرة "آمون" بعد أن خرج عن ديانة "آتون"، ولابد أيضًا أن يكون قد ارتقى العرش كرجل ممن ولم يبق عليه سوى خمس سنوات (١٣٤٩–١٣٤٥) ونقر لنفسه مقبرة في وادي الملوك الغربي بالقرب من مقبرة "أمنحوتب الثالث". وبار تقاء "آي" العرش انتهت فترة العمارنة بل انتهت فترة الأسرة الثامنة عشرة صاحبة المجد التليد، وهي ولا شك نهاية محزنة.

وقبل أن نختتم حديثنا عن فترة العمارنة. نقول أنها لم تكن – وهذا بالنسبة إلى وجهة النظر المصرية على الأقل – بمثابة القمة في تطور الحضارة المصرية، كما يود بعض المعجبين بالديانة والمفتونين بالفن أن يعتقد أن هذه القمة وصلتها مصر في العصر السابق مباشرة لهذه الفترة؛ أي عصير "أمنحوتب الثالث".

ونحن إذا كنا ترغب في أن نكون منصفين في حكمنا بعيدين عن التحيز، فعلينا أن نسأل المصري القديم نفسه عن رأيه في هذه الفترة التي نطلق عليها الآن "عصر العمارنة"، أن الإجابة عن هذا السؤال ستكون بكل تأكيد، أن الشعب المصري – ومنهم من عاصر أخناتون بل ومن عاش بعده – لم يتفهم رسالة "آتون"، ومن أجل هذا رفضوها رفضًا باتًا.

ومن الغريب أن هذه الديانة لم تنتشر خارج مصر ولو أن هناك في بلاد النوبة العليا مدينة شهدت وسميت باسم آتون وهي "جم آتون" وهي تسمية لاشك تأثرت بهذه العبارة وغير هذا وذاك فإن مؤرخي الفراعنة أنفسهم لم يعترفوا بأخناتون كملك مصري شرعي. واسقطوا اسمه من قوائم الملوك الرسمية، ومنها قائمة أبيدوس للملوك، أما الأتقياء من المصريين فقد رأوا فيه مهرطقًا يجب أن تحل اللعنة عليه، يدلنا على ذلك بعض الأغاني التي وصلت إلينا من عصر الأسرة التاسعة عشرة والتي كانت تشيد بعظمة آمون، ونحن نقرأ فيها ما يلي: (ترجمة أرمان) "إنك (يا آمون) تعثر على كل من يجرأ بمعارضتك.. الويل لكل من يلمسك.. أن مدينتك طيبة ستبقى، بينما ذلك الذي لمسك قد سقط.- إن العار سيصيب كل من يثور ضدك في أي مكان".

الآن على المؤرخ الحديث الذي يستعرض التاريخ المصري واضعًا إياه في إطار يجمع بقية بلدان الشرق القديمة أبان القرن العشرين قبل الميلاد، أن يدخل في اعتباره الحكم القاسي الذي أصدره الشعب المصري ضد أخناتون، وهو الذي أهمل شئون الحكم الداخلية، وترك الحبل على غاربه في الشئون الخارجية.

إن نصوص العمارنة والمناظر المنقوشة على جدران مقابر العمارنة لم تتحدث مطلقًا عن أي شأن من شئون الحكم، اللهم إلا تلك المناظر القابلية التي تمثل حضور بعض الرسل الأجانب إلى العمارنة واستقبالهم رسميًا فيها، وهو إجراء كان الهدف من ورائه إظهار السلام الذي كان يخيم على الإمبراطورية في عصر "أمنحوتب الثالث" بأنه لا يزال مخيمًا في عصر

أخناتون مع فارق بسيط وهو اختلاف موقع العاصمة. ومن أغرب المناظر الجديدة التي لم يحدث أن عثرنا على مثيل لها فيما سبق، هي تلك الخاصة بالحرس الملكي من الجند الأجانب ذي الجنسيات المختلفة، وهم ولا شك يذكروننا بجند الحرس الذين اظهروا في أواخر عصر القياصرة في روما والذين كانوا عادة ينتسب معظمهم إلى الجيش الجرماني. وعلينا الآن أن نتساءل هل لم يجرؤ أخناتون على اختيار حرسه الخاص من جند مصريين لأنه لم يكن يأمن على حياته منهم؟

رسمت لنا خطابات العمارنة صورة لمصر يسودها الاضمحلال والقلاقل، وهي نفس الصورة التي نجح في توضيحها إدوارد ماير. لقد ضاعت من مصر إبان فترة العمارنة كل المناطق السورية التي كان ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأمجاد قد ضموها إلى البلاد.

أما فلسطين فقد تعرضت لأقسى الهجمات من البدو الذين كانوا يعتدون عليها من الصحراء السورية. وتميزت الشكاوى التي كان يرسلها حاكم أورشليم الموالي لمصر بإظهار خطورة الموقف، وأورشليم مدينة بدأ ظهورها أول ما بدأ في خطابات العمارنة.

وكانت قبائل البدو التي تأتي من الصحراء تسمى بقبائل "الخبيري" ويبدو واضحًا من نصوص "بوغاز كوى" الحيثية أن "الخبيري"كاسم لم يطلق على شعب بعينه، أي بمعنى آخر لا علاقة لهذا الاسم "بالعبرانيين"، بل هو اسم يطلق على مجموعة بعينها من الشعوب، إذ كان هناك مثلًا بعض قبائل "الخبيري" تسكن أواسط آسيا الصغرى، وهي منطقة لم يصل إليها مطلقًا العبرانيون.

ولقد تمكن الآراميون والعبرانيون إبان الهجرات الواسعة لهذه الشعوب من أن يستقروا في وطنهم الأخير أي في سوريا وفلسطين. وأطلق أهل البلاد من الكنعانيين على العبرانيين اسم "عبريم" أي "الذين عبروا إلى هنا، وهم الذين وفدوا من شرقي نهر الأردن، ونرجح أن الاسمين "خبيرى" و "عبريم" يرجعان إلى أصلين مختلفين، ولو أن هذا الاختلاف لا يمنع أيضًا من وجود تشابه في بعض حروف الاندمين يجعل بعض المستشرقين يربطون بينهما ربطًا لغويًا.

وسوف نعود إلى الحديث عن ظهور الإسرائيليين وذلك عند دراستنا لتلك اللوحة المصرية التي ورد ذكرهم فيها، أما تلك الكلمات الموجزة التي ذكرناها في السطور السابقة واصفين بها الحالة السيئة بالنسبة إلى المصريين في فلسطين وذلك إبان عصر العمارنة، فليس من شك في أن نتيجتها المحزنة كانت الانهيار التام للسلطان المصري في ربوع آسيا القريبة.

لقد وقف الحظ بجانب مصر في هذه الأزمة وهيأ لها حفنة من الرجال احتفظوا برباطة جأشهم ورفضوا عقيدة أتون وابتعدوا عن كل ما يمس هذه العقيدة. وأهم هؤلاء كان القائد "حورام حب" (حوريس في الاحتفال) الذي اضطر في أول الأمر ولفترة قصيرة أن يجامل الظروف ويقطن العمارنة وسمى نفسه "با آتون أم حب" (آتون في الاحتفال) ونقر لنفسه مقبرة هناك لم يحدث أن استعملها لأن حالتها تدل على عدم العناية بتكملتها. لقد استقر "خور أم حب" في منف، وهي العاصمة التي كانت تعتبر أيضًا مقرًا لشئون الإدارة في عصر العمارنة وحاول منها أن ينقذ ما يمكن إنقاذه من فلسطين.

وبقى أيضًا محتفظًا بوظيفته هذه إبان عصري حكم كل من "توت عنخ آمون" و"آي" ويبدو أن عداءه للأخير كان سافرًا، وبنى لنفسه مقبرة في"سقارة" جبانة منف، لا ندري تمامًا موقعها إلا أن كثيرًا من أجزائها يحوى أروع النقوش وتتميز بأنها تحتفظ بمعلومات هامة لنا، هذه الأجزاء تكون الجزء الرئيسي من مقتنيات متحف "ليدن"، أما الأجزاء الأخرى من هذه المقبرة فقد تسربت إلى أكثر من متحف من متاحف أوربا (بولونيا – فيينا – برلين وغيرها من المتاحف).

نعلم من نقوش هذه المقبرة أنه أرسل حملة إلى فلسطين لإعادة الأمن إليها.

ولقد سجلت النقوش الموجودة من هذه المقبرة في متحف "ليدن" منظر الاحتفالات التي قامت في مصر بمناسبة رجوع جند هذه الحملة منتصرين واستعراض"توت عنخ آمون" وزوجه لهم، أن الأسلوب الفني المستعمل في نقوش هذه المقبرة هو بعينه أسلوب العمارنة، وتتميز هذه النقوش بالطريقة الجميلة التي أوضحت بها رءوس الأسرى من الفلسطينيين وخطوط أجسامهم، ويبدو من هذه الرؤوس أن الفنان قد أراد التفرقة بين عنصرين أحدهما هو العنصر السامي بكل ما اشتهر به من ملامح والعنصر الآخر يختلف تمامًا عن السابق ولو أننا لا نستطيع تحديد جنسيه، وبين محتويات متحف "المتروبوليتان" بنيويورك يوجد تمثال "لحور ام حب" يمثله جالسًا على هيئة الكاتب وعلى جوانبه نص طويل يتحدث فيه عن مراحل حياته، ويبدو أن هذا التمثال كان أصلًا من بين التماثيل التي أودعت مقبرته في سقارة.

٤- العصر الذهبي الثاني (الأسرتان التاسعة عشرة والعشرون) (١٣٤٥ إلى ١٠٨٥ ق. م)

ارتقى آخر الأمر "حور أم حب " عرش مصر بعد موت" آي" وتسلم زمام الحكم كرجل مسن صقلته الأحداث وتم نضجه، ونراه يسجل اسمه على كل العمائر التي أقامها" توت عنخ آمون " ويأمر بمحو اسم" آي" من على آثاره ومن ثم أخذ يعيد بسرعة فائقة ما كان لعبادة آمون من حقوق مسلوبة.

ويبدو بوضوح من أحد مراسيمه التي وصلت إلينا، أنه استعمل القسوة والشدة لإعادة الأمن إلى البلاد إذ كانت أحكامه تتراوح بين القتل أو جدع الأنف أو مائة جلدة تنتج خمسة جروح دامية وغير ذلك.

ومن الغريب أنه لم تصل ألينا أخبار ما عن حملاته الحربية ولعل السبب في ذلك تهدم واختفاء معظم أجزاء صرحه (البيلون) الذي أقامه في الكرنك وهو الصرح التاسع في هذا المعبد، أما المعبد الكبير الذي شيده أخناتون (المهرطق) في رحاب الكرنك لإلهه (آتون) فلا تدهش إذا علمنا أنه قد تهدم واختفت أجزاؤه في عصر "حور ام حب" ولقد عثر المنقبون في السنوات القليلة الماضية على معبده الجنازي الذي شيده في أقصى الجنوب من جبانة طيبة على الشاط الغربي للنيل وبالقرب من معبد مدينة ها بو، وهذا المعبد، وهو في حالة سيئة من التهدم، يدل بوضوح على سياسة "حور أم حب" نحو الملك "آي" ومدى القسوة التي عامله بها بعد موته إذ اغتصب هذا المعبد الذي لم يكن قد تم بعد وأكمل بناءه واستخدمه لنفسه.

ودفن "حور أم حب" في مقبرة صخرية كبيرة بوادي الملوك تتميز جدرانها الداخلية بنقوش رائعة ذات ألوان زاهية، أما تابوته الجميل المنحوت من حجر الآبستر فقد حوى تلك الصور التي تميز هذا العصر بها وهي صور الآلهة الأربعة التي تقوم على حماية الميت وكانت تنقش بارزة على الأركان الأربعة للتابوت.

دلت الآثار الجديدة التي عثر عليها في منطقة مدينة هابو على أن "حور أم حب" حكم مصر مُدة ٢٧ عامًا، في حين أن هناك وثيقة أخرى تتحدث عن العام التاسع والخمسين من حكمه، وهذا التقدير لا يمكن الأخذ به إلا إذا كان المقصود به احتساب مدة حكمه ابتداءً من موت "آي" أي من عام ١٣٤٥ ق.م، وبخاصة أننا نعلم أنه اعتلى العرش وهو رجل مسن، وهكذا لا نستطيع تفسير هذا التقدير إلا على أساس أن "حور ام حب" أهمل مدد حكم ملوك عصر العمارنة واعتبر نفسه خليفة للملك "أمنحوتب الثالث" نفسه.

وفي واقع الأمر حكم "حور أم حب" سبعًا وعشرين سنة بعد موت "آي"أي من سنة١٣٤٥ إلى ١٣١٨ ق. م ويلاحظ أنه عام ١٣١٨ يؤرخ لنا مضي ٩٥ سنة على موت "أمنحوتب الثالث" (١٣٧٧ ق.م).

يعتبر المؤرخون "حور أم حب"، المؤسس للأسرة التاسعة عشرة، ولو أن الجسد الأول لملوك هذه الأسرة كان خليفة "حور أم حب" المسمى "رمسيس الأول" وهو الاسم الذي يعني "رِع والده" والذي حمله معظم ملوك الفترة التالية و "رمسيس الأول" هذا كان من القادة العظام الذي وقف بجانب "حور أم حب"، ولعب معه دورًا مهمًا دون أن يكون بينهما صلة قرابة.

إِن هذين الرجلين اللذين ارتقيا سلم المجد مبتدئين بأولى الألقاب العسكرية حتى وصلا إلى العرش ليعتبرا من أوضح الأمثلة على تميز رجال الجيش في المجتمع المصري في الفترة التي امتدت من أواخر الأسرة الثامنة عشرة إلى أوائل الأسرة التاسعة عشرة.

لقد ارتقى "رمسيس الأول" عرش مصر ومثله في ذلك مثل "حور ام حب" رجل مسن، واختار لنفسه اسمًا للعرش هو "من بحتي رِع" أي "قوة رِع تدوم" ويبدو أنه اعتقد أن الزمن سيطول به فنراه يبدأ في تشييد بناءين ضخمين، لم يتم العمل فيهما تمامًا إلا في عصر حفيده رمسيس الثاني – البناء الأول هو البهو الكبير المعروف بأعمدته في الكرنك، والثاني المعبد الضخم بأبيدوس، واستمر العمل فيهما أيضًا في عصر ابنه سيتي الأول. و نظرًا لأن القدر لم يسمح لرمسيس الأول أن يحكم مصر أكثر من عام واحد لذلك نرجح أنه فكر في هذين المشروعين ولم ينفذهما (١٣١٨إلى١٣١٧ ق.م).

ويغلب على الظن أن أسرة "رمسيس الأول" نشأت في مصر السفلى وعلى وجه التحقيق في شرق الدلتا وفي "أواريس" العاصمة التي كان قد شيدها الهكسوس وسوف نرى كيف أن رمسيس الثاني اختار هذا المكان بالذات ليشيد فيه عاصمة جديدة له.

انتقل مركز الثقل في مصر إلى شرق الدلتا، ففيه تجمعت القوة الضاربة المصرية، لأنه كان مفتاح الطرق المؤدية إلى آسيا القريبة، أما طيبة في موقعها البعيد في أقاصي صعيد مصر فقد فقدت أهميتها كعاصمة للإمبراطورية المصرية مُنذ الأسرة الثامنة وبدأت تفقد هذه الأهمية مُنذ أول الملوك الذين

خلفوا "تحوتمس الثالث" واحتفظت طيبة ومعابدها الغنية المخصصة لآمون بمركز قوى لا يداني كعاصمة دينية.

ومن الغريب حقًا أن اسم آمون لم يعد يدخل في تركيب أسماء ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، بل دخل في تركيبها اسم "رع" إله الشمس (مثل رعمسيس) أو اسم إله آخر هو "ست" الذي كان يعتبر في ديانة "أوزوريس" من الآلهة الشريرة لأنه قتل "أوزوريس" واعتبرته ديانة "رع" في هليوبوليس أحد الآلهة القوية المهابة الجانب إذ كان يقاتل الثعبان "أبوفيس" وهو يرمز إلى القوة التي تجمع السحب وتدفع بها على صفحة السماء.

وقام "يونكر" بدراسات واسعة خرج منها بأن "ست" في صورته التي تمثله من الأعوان الأقوياء الذين يدافعون عن إله الشمس، عبد في "أواريس" أو في مكان قريب منها وإن له فيها معبدًا شيد في عصور قديمة ترجع إلى أوائل عصر الدولة القديمة على الأقل.

كان اسم ابن "رمسيس الأول"، وخليفته على العرش "سيني الأول"، أي دخل اسمًا لإله "ست" في تركيب اسمه، واختار لنفسه اسمًا للعرش هو "من مهات رع" تدوم حقيقة "رع" وأضاف عليه صفة أخرى هي "مر آن بتاح" أى "المحبوب من بتاح" و"بتاح" هو الإله الأول لمنف التي أوضحنا أنها كانت في عصر "حور أم حب" العاصمة التي تتجمع فيها أهم إدارات الحكم في مصر.

لقد ذكرنا فيما سبق في معرض الحديث عن المدد الخاصة بفترات النجم "الشعري اليمانية"، أن إحدى هذه الفترات تبدأ عام ١٣١٨ ق.م (أو على وجه التحديد بحسب رأي بورخات تبدأ عام ١٣١٧ ق.م).

وهناك وثيقة ترجع إلى العصر اليوناني ذكرت هذا الحادث الفلكي المهم – الذي نعجب حقًا بأن المصريين القدماء عرفوه ولاحظوه وسجلوه وربطت بينه وبين اسم"

"مينوفريوس" وليس من شك بأن العالم الروسي "ستروفه" على حق حين يرى أن هذا الاسم الغريب لا بد أن يكون النطق الإغريقي للاسم المعروف للملك "سيتي الأول" وهو "مر آن بتاح" (وكثيرًا ما ننطقة أيضًا "منفتاح") وفي واقع الأمر يتفق العام ١٣١٨ ق.م (أو ١٣١٧) الذي سبق ذكره مع بدء حكم هذا الملك تمام الاتفاق.

هذا ولم تصل إلينا وثائق تحدد لنا مدة حكم "سيتي الأول"، التي نعتقد أنها لم تمتد سنين عديدة، إلا أننا نعلم على وجه التحقيق من بعض الوثائق التاريخية التي عثر عليها في بعض مناطق آسيا القريبة أن خليفته "رمسيس الثاني" ارتقى عرش مصر حوالي عام ١٣٠٠ ق.م وعلى هذا الأساس يكون تقديرنا لمدة حكم سيتي الأول التي بدأت عام ١٣١٧ ق.م وانتهت عام ١٣٠٠ ق.م هو أقرب تقدير إلى الحقيقة.

وأخذ سيتي الأول، الذي ارتقى عرش مصر وهو في سن الرجولة الناضجة، على عاتقه تنفيذ تلك المهمة الشاقة وهي إعادة السيطرة المصرية على ربوع فلسطين وسوريا فبدأها في العام التالي لتوليه الحكم، وقد حاول "حور أم حب" قبله أن يقوم بهذا فلم يكتب له فيها النجاح الكامل بل حقق بعض الانتصار فحسب.

ويغلب على الظن أن "حور أم حب"، كان قد اتخذ إجراءات حاسمة في إعادة تنظيم الجيش المصري الذي أصبح يتكون من عدة فرق كاملة أطلق على كل منها اسم لإله من آلهة مصر الكبرى، كما ألحق بكل منها مجموعة كبيرة من العربات الحربية لعبت دورًا كبيرًا في المواقع الحربية في عصر الرعامسة، إذ كان دخولها المعركة بمثابة التعجيل بالفوز والنصر.

استن "سيتي الأول" سنة جديدة بتسجيل أخبار حملاته الحربية، فبدأ بذلك عصرًا جديدًا في تسجيل الأحداث التاريخية. سبق القول بأن "رمسيس الأول" بدأ مشروعًا جديدًا وهو تشييد بهو أعمدة كبير يقوم في الفضاء الواقع إلى الغرب من أبنية ملوك الأسرة الثانية عشرة في معبد الكرنك، ولا تلبث أن نجد سيتي الأول يخصص جزءًا كبيرًا من المسطح الخارجي للجدار الشمالي لهذا البهو ليسجل عليه مناظر انتصاراته الكبرى التي حققها في فلسطين، ويعتبر هذا بمثابة المحاولة الأولى لتنفيذ مناظر منقوشة على مساحات واسعة من عصر الدولة الحديثة، إذ أن المناظر المشابهة التي وصلت إلينا من العصور السابقة لسيتي الأول كانت تنقش على أدوات صغيرة مثل الجوانب الواقية للمركبات الحربية أو صناديق صغيرة وما إلى ذلك وكانت مناظر الحرب التي سجلها سيتي الأول تصور بإسهاب كل أحداث الحملة ابتداءً من خروج الجيش من "سيلة" أول حصن عند الحدود المصرية حتى رجوعه إليه، حقًا أن هذه المناظر لا يُمكن أن تقارن بالوصف المادي الذي تتميز به حوليات تحوتمس الثالث، ولازلنا نأسف لأن معارك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين لم تصل إلينا مشروحة بتلك الطريقة الموضوعية التي اتبعت في عصر تحوتمس الثالث.

وهناك بعض اللوحات الحجرية التي أقامها سيتي الأول، مثل اللوحة التي عثر عليها في منطقة "بيت شعبان" (بيسان) في فلسطين، نقش عليها نصوص تميط اللثام عن بعض الحقائق الخاصة بهذه الحملات إلا أنها لا ترقي مطلقًا إلى ما وصلت إليه الحوليات من إسهاب في الشرح الموضوعي.

والأسلوب الفني الذي اتبعه "توت عنخ آمون" في تصوير مناظر حملاته الحربية على جوانب الصناديق الخشبية الصغيرة هو بعينه الأسلوب الفني الذي استخدمه سيتي الأول في تسجيل مناظر حملاته المنقوشة على نطاق واسع، ففيها نجد فرعون مصر هو الشخصية الوحيدة المهيمنة على المنظر، وهو المهاجم الفائز بالنصر دائمًا، بينما الأعداء يصورون كمجموعة من حيوانات الصيد تهيم على وجهها هربًا من صائديها.

ولعل أهم منظر من الوجهة التاريخية هو ذلك الذي يمثل الهجوم على "مدينة كنعان" المشيدة على جبل عال جوانبه شديدة الانحدار، وهذه هي المرة الأولى التي تقابل فيها اسم هذه المدينة التي ورد اسمها كثيرًا في نصوص التوراة.

ولا نشك مطلقًا في أن "سيتي الأول" قد أصاب نجاحًا كبيرًا في حملته هذه التي كان يهدف من ورائها إلى استرجاع تلك المناطق من فلسطين التي كانت قد تعرضت الهجمات البدو في عصر العمارنة، كما استطاع أن يغزو كل المناطق الساحلية حتى ميناء صور في الشمال. ويبدو أن الزحف شمالًا والتوغل في سوريا أصبح من المعضلات التي لم يقو عليها الجيش المصري في عهد الأسرة التاسعة عشرة.

وبطبيعة الحال لم يقدر له أن يرى نهر الفرات أو أن يعبره، والسبب في ذلك أن"شوبولوليما"، ملك الحيثيين كان قد استغل ضعف مصر في عصر العمارنة، ومد سلطته على كل المناطق التي خضعت لمصر في شمال سوريا إبان عصر الأسرة الثامنة عشرة وبذلك هدد دولة الميتاني بل جعلها تنكمش في حدودها، وهي الدولة التي انتهت واختفت على يد الملك الآشوري "شالمنصر" حوالي عام ١٢٧٠ ق.م.

وتحدثنا نصوص "سيتي الأول" التي نقشها فوق مناظر حملاته العسكرية، عن تصادم وقع بينه وبين ملك الحيثيين، وعن حملة جردها ضد الليبيين غربي الدلتا وكانت قد قويت شوكتهم وأصبحوا خطرًا يهدد مصرومن المعابد التي شيدها "سيتي الأول"، وهو على جانب من الأهمية، ذلك المعبد الذي بناه في "بيت شعبان" (بيسان) في فلسطين، ولهذا الموقع أهمية حربية واضحة إذ يربط بين نهر الأردن وبين الأماكن التي تقع إلى الشرق منه. وكان يقع إلى الجنوب من الشاطئ الجنوبي لبحيرة "جنيسارت".

أما في مصر فإن أهم معابده هو معبد أبيدوس وكان المركز الرئيسي لعبادة أوزوريس والآلهة الأخرى التي تمت إليه بصلة.شيد بحيث يتسع لعبادة سبعة من الآلهة، اختص كل منهم بمقصورة تتقدمها قاعة تُؤدي إليها، وتتميز بلوحات منقوشة بألوان زاهية وخصصت المقصورة الوسطى لعبادة آمون إله طيبة وإلى اليسار منها نجد ثلاث مقصورات الأولى لعبادة الملك الإله نفسه، والثانية للإله "بتاح" والثالثة لإله "الشمس "حور أخت" وإلى اليمين من المقصورة الوسطى مقاصير ثلاث أخر مخصصة لأسرة أوزوريس وهم الآلهة أوزوريس وإيزيس ودوريس ولازلنا نعتبر هذا المعبد من أهم المعابد المصرية

التي وصلت إلينا، كما أن الأسلوب الفني المتبع في نقوشه يتميز بجمال خطوطه ورقة انسيابها ودقة تنفيذها ومن أهم ما يحويه هذا المعبد القائمة المشهورة لأسماء ملوك مصر.

ونظرًا لأن هذه المنطقة لعبت دورًا كبيرًا في عبادة أوزوريس فقد شيد المصريون إبان هذه الفترة معبدًا خاصًا عرف بين الإداريين باسم "الاوزيرايون" أقاموه إلى الخلف من المعبد الكبير.

يتميز هذا البناء الغريب بأنه شيد داخل تل صناعي تناثرت فوقه الأشجار ويمثل عندهم قبر أوزوريس وتعتقد أنهم كانوا يقومون بأداء الطقوس الخاصة التي تمثل قصة أوزريس في داخل هذا القبر وكان أداؤهم لها ينصب على "سيتي الأول" وليس معنى هذا أن"الاوزيرايون" كان مقبرة فعلية لسيتي بل كان قبرًا رمزيًا له – وسبب ذلك واضح وهو أن مقبرة الملك موجودة في وادي الملوك.

وتعتبر من أكبر المقابر هناك وأجملها، ولا يزال الزائرون لها تتملكهم الدهشة ويملؤهم الإعجاب بأعمدتها الضخمة وبخاصة تلك التي تقوم في حجرة الدفن والتي تتميز باتساعها الكبير وبسمة منها الذي يمثل السماء الزرقاء بنجومها الذهبية اللون.

أما تابوت الملك المصنوع من حجر الآبستر فمحفوظ الآن بمتحف لندن، وتعتبر مومياؤه من أكثر الموميات حفظًا لملامحها. ويوجد المعبد الجنازي الخاص بسيتي الأول في أقصى الشمال من الجبانة الطيبية وهو المعبد الذي لم يوفق مهندسو مصلحة الآثار إلى ترميمه والمعروف باسم معبد القرنة.

خلف "سيتي الأول" ابنه "رمسيس الثاني" الذي حاز شهرة كبيرة وذلك للعدد الكبير من المعابد التي شيدها في كل ركن من أركان البلاد، واختار لنفسه اسمًا للعرش "وسر معات رِع" (قوية هي حقيقة رِع) وأضاف عليه "شب آن رِع" الذي اختاره رِع وورد اسم "رمسيس" في كثير من النصوص الإسفينية (المسمارية) منطوقًا على الوجه الآتي: "ريا مشيشيا".

ولقد واتاه الحظ فحكم مدة طويلة بلغت ٦٧ سنة؛ أي من عام ١٣٠١إلى١٢٣٤ ق.م. وهذا التاريخ ثابت، إذ ساندتنا في تحقيقه بعض النصوص المعاصرة التي عثر عليها في مناطق آسيا القريبة.

وبدأ رمسيس الثاني حكمه بأن وجه عنايته إلى متابعة الانتصارات التي حققها أبوه في فلسطين ومدها نحو الشمال أي إلى سوريا. ولقد سبق لنا أن أوضحنا تغلغل السلطان الحديثي في سوريا إبان عصر العمارنة، وهكذا تقابل كل من القوتين الحيثيون وسياستهم تقوم على مد سلطانهم جنوبًا إلى فلسطين والمصريون وسياستهم تقوم على مد سلطانهم شمالًا إلى سوريا، وكانت الحدود الفاصلة بين هاتين القوتين تقع في عصر رمسيس الثاني إلى الشمال من مدينة بيروت الحالية على نهر الكلب.

وأقام رمسيس الثاني لوحدين حجيتين فوق الجبل مختارًا لهما منطقة عالية تصل من ناحية على البحر المتوسط ومن ناحية أخرى تقرب من منبع هذا النهر الصغير الذي ينبع من أعلا الجبل ولا يلبث أن يسير في مجراه المنحوت في وسط الصخر حتى يصب في البحر المتوسط؛ أي أنه اختار لهما منطقة حربية لا تعادلها منطقة أخرى في جمالها، وذلك ليعين حدود كل من الدولتين.

ومن الطريف أن تعلم أن الملك الأشوري "أشور أخا أدين" (أسير حادون) أي "أشدور أعطى أخا" وصل بعد بضعة قرون إلى نفس المنطقة غازيًا وأقام (عام ٦٧٠ ق.م) لوحة بجانب أو حتى رمسيس الثاني، معلنًا انتصاراته عليها وتتميز لوحته بقمتها المقوسة بحسب الطراز الأشوري واللوحتان المصريتان مستطيلتان قمتهما مستقيمتان.

سبق لنا الحديث عن النظم الجديدة التي أدخلت على الجيش المصري والتي كانت تقسمه إلى فرق كل منها تحمل اسمًا من أسماء آلهة مصر الكبرى وخرج "رمسيس الثاني" في حملته الثانية ضد الحيثيين وكان ذلك في العام الخامس من حكمه ١٢٩٦ ق.م وتبعه جيش كبير مقسم إلى أربع فرق أطلق عليها أسماء الآلهة: آمون، رع، بتاح، سوتخ (وهو الاسم السامي للإله المصري ست).

وسار بهذا الجيش في طريق يوازي الساحل الفينيقي نحو الشمال. وكانت هناك فرقة مساعدة تكونت من جنود مرتزقة من الشروانيين (شردن) المنتمين إلى شعب من شعوب البحر، وهم عبارة عن فئة من الناس وصلت البحر المتوسط واستقرت في جزره في فوج من أفواج الهجرة، وهم دينهم الذين هاجموا مصر في عصر الأسرة العشرين وكادوا يستولون عليها. وليس من شك في أن اسم هذا الشعب يتصل اتصالًا لغويًا بالاسم المعروف لدينا الآن وهو "سردينيا"، إلا أن السؤال الذي لا نجد له جوابًا هو: هل كانت هذه الطائفة من الناس التي ذكرها المصريون تحت اسم "شروانا"، قد استقرت في "سردينيا" إذ ذاك، أو أنهم بعد هزيمتهم المنكرة على أيدي المصريين ارتدوا عن مصر واستقروا فيها، ومن المعروف أن هناك قرائن أثرية لا نشك فيها تثبت ارتباط الشروانيين الذين ظهروا في مصر مع السردانيين القدامى.

كان رمسيس الثاني يرى في الحيثيين عدوه الأكبر وكان ملكهم إذ ذاك هو "مواتال" (١٣٠٠ إلى ١٢٩٠ ق.م) قد أعد العدة لغزو فلسطين. واستعان الحيثيون أيضًا بفرق أجنبية، ميزهم المصريون في نقوشهم التي سجلها على ما بدهم عن الحيثيين بطريقة تصفيفهم لشعور رءوسهم وذقونهم بل وبالات الحرب التي استعملوها وليس من شك في أن هؤلاء كانوا من الميتانيين الذين تحالفوا مع الحيثيين وخرجوا للحرب معهم وعرف الجانبان أهمية اشتراك العجلات الحربية في المعارك فاعتمدوا عليها بحيث أصبحت هذه المعارك أقرب إلى موقعة حربية بالعجلات، وكان الفارق الواضح بينهما أن العربة المصرية يعتليها مقاتلان أحدهما يتولى قيادة الحصا زين بينما ينهمك الثاني في القتال، والعربة الحيثية يعتليها ثلاثة من الرجال في الأغلب.

دارت الموقعة الحاسمة بين المصريين والحيثيين عند حسن قادش على نهر الأورونط في سوريا، ونشر العالم الأثري الأمريكي"برستد" مُنذ خمسين عامًا مؤلفًا وافيًا عن معركة قادش هذه.

وتعتبر المصادر المصرية القديمة هذه المعركة من أهم المعارك التي يفخر بها رمسيس الثاني، ودليلنا على ذلك أنه أمر بنقشها على المناظر التي تبرز أحداثها فوق خمسة من أكبر وأشهر المعابد المصرية وهي معابد الرامسيوم، والكرنك، والأقصر، وأبيدوس، وأبو سنبل وغير هذا فقد وصلت إلينا بردية معاصرة تحوي وصفًا مسهبًا كتب بأسلوب شعري عن هذه المعركة.

وحاول الكثيرون من الرعيل الأول ممن برزوا في الدراسات المصرية أن يقارنوا بين هذه البردية وبين الوصف الذي أورده هومير لحرب طروادة وكانوا مغالين في ذلك ولا شك.

وعلى كل حال فقد ظهر بعد التعمق في الدراسة والتحليل العلمي أن "بنتاءور" (كاتب هذه البردية أي هومير المصري) لم يكن سوى أحد التلاميذ الذين قاموا بنسخ هذا النص أثناء تدريبهم على الخط بل قد وقع في بعض أخطاء الإملاء السهلة، وللوصول إلى الحقيقة التاريخية يجب علينا أن ننزع عن هذه القصيدة الحشو الذي اعتاد المصري أن يقحمه على نصوصه التاريخية، فإذا ما فعلنا ذلك أمكن أن نلخص أحداث هذه المعركة فيما يأتي:

رمسيس الثاني الذي كان يتقدم أولى الفرق الأربعة التي سبق ذكرها فوجئ بالعدو يداهمه ويخرب معسكر فرقة آمون الذي أقامته على مقربة من حصن قادش وبذلك قطعت الصلة بينها وبين فرق الجيش الأخرى، وحدث هذا نتيجة لمعلومات خاطئة وصلت الملك الذي أصبح في موقف حرج يهدد حياته فاتجه بدعائه إلى إلهه آمون يطلب منه النجدة.

وهذا الجزء من البردية أسهب فيه الكاتب ودبجه بعبارات رنانة شعرية. وليس من شك في أن الملك استطاع بشجاعته وقوة شكيمته أن يحول الموقف ويستبدل بالهزيمة الانتصار وألقى الرعب في قلوب جيش عدوه وأجبره على الفرار ويعتبر "إدوارد ماير" موقعة قادش هذه انتصارًا كبيرًا للمصريين وذلك لأن رمسيس الثاني استطاع بهجومه الفردي أن يوقف تقدم الجيش الحيثي نحو الجنوب، ولكن المؤرخين الحديثين المشتغلين بالدراسات الحيثية يرون أن المعركة انتهت بانتصار الحيثيين.

وإذا أردنا أن نقف موقف المحايد بين الطرفين كان علينا أن نؤكد بأن المصريين انتصروا فوق أرض المعركة، ولكن نصرهم المفاجئ هذا لم يعد عليهم بأي كسب حربي، إذ أنهم لم يقوموا بالاستيلاء على حصن قادش، كما

أن هناك حقيقة أخرى تؤكد ما قلنا وهي أن الحدود بين الدولتين الحيثية والمصرية بقيت في موقعها عند نهر الكلب في فينيقيا تمامًا كما كانت قبل المعركة بل أكثر من هذا لم يستطع المصريون فيما بعد أن يمدوا سلطانهم إلى ما وراء نهر الكلب سواء إلى الشمالي أو إلى الشرق، ولم يحدث طبعًا أن اقتربوا من نهر الفرات بأي حال من الأحوال، وحدثت ثورات جارفة في كل من فلسطين وسوريا وذلك أثناء ارتداد الجيش المصري، ومعنى هذا أن الملك اضطر إلى مهاجمة كثير من الحصون لاستردادها من جديد.

سجل رمسيس الثاني كل هذه الأحداث العسكرية فوق كثير من معابده التي شيدها في مصر في لوحات كبيرة تنقسم إلى مناظر شتى يعلو الواحد منها الأخر، إلا أن تتابع الأحداث لم يظهر واضحًا في هذه المناظر، وضوحه في الحوليات التي خلفها لنا تحوتمس الثالث مكتوبة بطريقة واقعية.

استغرقت حروب رمسيس الثاني مع الحيثيين مدة العشرين سنة الأولى من حكمه تتخللها بعض الفترات القصيرة من الهدوء والسلام، وحوالي عام ١٢٨٠ ق.م. تم عقد محالفة بين رمسيس الثاني وبين الملك الحيثي خ"اشو شيل الثالث" (١٢٩٠ إلى ١٢٦٠ ق.م.) وكان أخًا للملك "موا تال" الذي خاض معركة قادش.

وتُعتبر محالفة السلم هذه بمثابة الأولى من نوعها التي وصلت إلينا مسجلة، ولقد نشر على نسختين منها: نسخة في كل من البلدين المتحالفين، ففي مصر نقشت نصوصها على جدران معبد الكرنك والرامسيوم ومعنى هذا أنها كتبت بأسلوب ديني، أما النسخة الحيثية فقد كتبت بالخط الأسفيني البابلي على لوحات من الأجر عثر عليها في "بوغاز كوى" واتبع في كتابتها

الأسلوب القانوني، وكانت النسخة الرسمية الأصلية قد نقشت فوق لوحة من الفضة. ضاعت ولم يعثر عليها بطبيعة الحال.

كانت محالفة السلم هذه باكورة عصر ساده الوئام والطمأنينة استمر طوال الفترة التالية من حكم رمسيس الثاني التي استغرقت ٤٥ عامًا، ولذلك من الخطأ أن نعتبر هذا الملك من بين فراعنة مصر المحبين للحروب، بل على العكس من "تحوتمس الثالث"، الذي يعد من أبطال الحرب المرموقين وتنصب شهرة رمسيس الثاني على الأعمال الكثيرة التي أتمها أثناء فترة السلام من حكمه الطويل، وإمعانًا في تقوية أواصر السلام بين مصر والحيثيين تزوج الملك في الرابع والثلاثين من سنى حكمه (حوالي عام ١٢١٧ ق.م) من إحدى بنات الملك الحيثي "خاتوشيل الثالث" بل وجعلها الزوجة الأولى له وذلك خلافًا لما كان يجري في الزيجات التي تمت بين فراعنة مصر والأميرات الميتاتيات.

سجل هذا الحادث الهام على لوحة كبيرة منقوشة فوق الصخر الطبيعي المتاخم لمدخل معبد أبو سمبل المنحوت في الصخر، ومثل الملك فوقها جالسًا بين الإلهين أتوم الهليوبوليتاتى وبتاح المنفى (ومن الطريف أنه لم ينقش صورة لآمون رب طيبة) ويتلو هذا صورة الملكة الحيثية التي اتخذت اسمًا مصريًا هو "معات نفرو رع" (الحقيقة هي الجمال للإله رع) ثم أبوها الملك "خاتوشيل الثالث" وقد ظهر في لباسه الحيني الذي كان غريبًا على المصريين أنفسهم في ذلك الوقت، وقد عثر على أجزاء كثيرة من لوحات مماثلة في أكثر من مكان بمصر.

ومما يدل على مدى الأهمية التي صاحبت هذه الزيجة لدى المصريين إذ ذاك، وعلى كل حال كانت معاهدة السلام وهذه الزيجة من العوامل الهامة التي وطدت دعائم السلم لفترة قاربت السبعين عامًا في كل أرجاء الشرق القديم، ولكن الهزات العنيفة التي نتجت عن هجرات شعوب البحر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد قضت على السلم كما قوضت أركان الدولة الحيثية.

استطاع رمسيس الثاني أن يوجه جهودًا ضخمة في تشييد معابد كثيرة في كل ركن من أركان دولته الشاسعة وذلك في أثناء الفترة الطويلة التي سادهما السلام من سني حكمه وليس في استطاعتنا أن نسهب كثيرًا في هذا الموضوع إلا أن الواجب يحتم علينا أن تذكر تلك المعابد الكثيرة التي أقامها في بلاد النوبة السفلى، ويتميز البعض منها بأنه نشر في التلال الصخرية من الحجر الرملي النوبي والتي نطلق عليها اسم المعابد الصخرية وأهم هذه المعابد هو معبد "أبو سمبل" المنقور في الصخر والذي يقع شمالي الحدود الفاصلة حاليًا بين مصر والسودان ويهيمن على واجهة هذا المعبد أربعة تماثيل هائلة الحجم تمثل الملك جالسًا ويبلغ ارتفاع كل منها ٢٠ مترًا.

أما الجدران الداخلية فقد وفق الفنان في تقسيمها إلى لوحات متعددة بعضها يسجل بعض المناظر من معركة قادش. وأقيم في قدس الأقداس تماثيل أربعة تمثل الآلهة بتاح وآمون وحو أختي نم رمسيس الثاني نفسه الذي أعتبر أحد الآلهة التي تعبد في بلاد النوبة.

وهناك مشروع آخر هندسي ضخم نفذه رمسيس الثاني وهو تشييد عاصمة جديدة في شرق الدلتا أطلق عليها "بيت رمسيس" وكانت الظروف وحدها هي التي حتمت إنشاءها في شرق الدلتا وذلك لقربها من المنطقة

الهامة وهي فلسطين وسوريا، بينما كان موقع العاصمة طيبة في مكانها البعيد في أقاصي الصعيد غير ملائم لذلك وكثر الجدل بين العلماء على تحديد موقع هذه العاصمة الجديدة، إلا أن الأبحاث الجديدة التي قام بها عالم الآثار الفرنسي "مونتيه" في أطلال مدينة "تانيس" القديمة أنتجت من القرائن الأثرية ما يثبت أن الأسماء الثلاثة "أواريس" (عاصمة الهكسوس)، و"بيت رمسيس"، و"تانيس" (عاصمة مصر في عهد الأسرة الحادية والعشرين) كانت تطلق على مدينة واحدة.

ولقد ذكرنا قبلًا بأن أسرة رمسيس الأول نشأت في هذه المنطقة كما أن الإله ست كان له هناك معبد أقيمت فيه الطقوس مُنذ أول العصر التاريخية.

ونستخلص من التقارير العامية التي نشرها "مونتيه" عن نتائج تنقيبه في تانيس وجود فوارق واضحة بين تانيس وطيبة، وأكد مونتيه نفسه تأثير هذه الفوارق على إلهي هاتين العاصمتين أي "ست" و"آمون".

ومن الواضح طبعًا أن نقل الرعامسة لمركز الثقل في البلاد من طيبة في الجنوب إلى شرق الدلتا في الشمال أصاب العاصمة القديمة بهزة عنيفة كانت أول نتائجها التقليل من أهمية إلاهها آمون، ومن الأدلة الدامغة على ذلك أن كميات الذهب التي أغدقها فراعنة هذا العصر على كل من "رع و "بتاح" كانت تفوق بشكل واضح تلك التي قدموها إلى "آمون" إله طيبة، ونستدل على ذلك من قائمة الهدايا التي وردت في بردية "هاريس" من الأسرة العشرين.

وبعد أن أسهبنا الحديث عن السنوات الطوال التي استغرقتها فترة حكم رمسيس الثاني، وهي الفترة التي بدأت بأعمال حربية عنيفة، من حقنا أن نثبت هنا بأن العصر الذهبي الثاني للدولة الحديثة الذي حققته الأسرية التاسعة عشرة يرقي في أهميته إلى المستوى الذي حققه فراعنة مصر من التحامسة.

وتمكن أولئك الذين بقوا على ديانتهم القديمة من القضاء بشدة على كل آثار تلك المحاولة العنيفة التي تمت على أيدي الملك المهرطق "أخناتون" ضد الديانة المصرية التي تأصلت جذورها في البلاد مُنذ أول العصور (وهذه حقيقة لعل الكثيرين منا يأسفون لها) – وهكذا اختفت كل معالم عصر العمارنة اختفاء تامًا اللهم إلا بعض العناصر الفنية التي بقيت لاصقة في الفن المصري، أما فيما يتعلق بسياسة مصر الخارجية فلم يستطع ملوك هذه الأسرة أن يمدوا سلطانهم في آسيا القريبة على المناطق التي دانت لمصر في عصر الأسرة الثامنة عشرة وبخاصة على أيدي "تحوتمس الثالث"، ولكن فلسطين وسوريا حتى نهر الكلب شمالًا بقيت خاضعة للسلطان المصري.

أما سياسة الحكم الداخلي فلم يجد عليها جديد وظلت تسير على نفس النمط الذي سارت عليه في عصر الأسرة الثامنة عشرة.

وإذا مرضنا لبعض الاختلافات بين الأسرتين التاسعة عشر والثامنة عشرة، نجد بعد التجديد الذي تم بعيدًا عن محيط السياسة، يخص الدين والفن واللغة.

سبق هذا الحديث عن النشاط الضخم الذي قامت به الدولة في المنشآت المعمارية في عصر رمسيس الثاني وهدأ النشاط يدعونا إلى التساؤل عن الطريقة التي استطاعت الدولة أن نحصل بها على الكميات الكبيرة من المواد التي تحتاج إليها هذه المنشآت العديدة بل أين استطاعت أن تحصل على ذلك العدد الضخم من العمال الفنيين اللازمين للعمل.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى القارئ العظيم بين عمارة الأسرة الثامنة عشرة وأسلوبها الرقيق ونقوشها الدقيقة الجميلة وبين عماره الأسرة التاسعة عشرة وأسلوبها غير المتناسق ونقوشها الغائرة التي تصل في عمقها حدًا يذهب بجمالها ودقتها وبخاصة تلك النقوش التي يكتب بها اسم الملك فكانت تنقر بعمق كبير فوق كتابات أخرى أقدم منها فلا تبقي على أي أثر من آثارها.

ولم يوجه علماء الآثار في دراساتهم عناية كبيرة إلى ناحية من نواحي فن النفش الذي تميزت به الأسرة التاسعة عشرة عن الأسرة الثامنة عشرة. لقد عثر المنقبون على عدد كبير من مقابر الأفراد الذين عاصروا فراعنة الرعامسة وذلك في جبانات طيبة وبخاصة في جبانه دير المدينة التي تقع إلى أقصى الجنوب من الشاطئ الغربي لمدينة الأقصر.

إِن هذه المقابر (ولا بد أن كان هذا هو حال المقابر الأخرى من نفس العصر في المناطق الأخرى) تتميز بطريقة مغايرة في تنظيم لوحاتها المنقوشة فوق الجدران وتنسيقها. كانت طريقة الأسرة الثامنة عشرة تنحو نحو الاستقلال المكاني للمناظر، ومعنى هذا أن كل منظر كان ينقش على الحائط بحيث ينفصل تمامًا عن المنظر الذي يليه وكان الفنان ينتهي بمنظر بعينه عند

نهاية الجدار ويفصل بين الجدارين في الزاوية بخط عمودي يتكون من طراز من طرز الزخرفة المتنوعة الألوان.

أما طريقة الأسرة التاسعة عشرة فقد جعلت المناظر تتابع دون فواصل تحدد نهايات الجدران عند الزوايا، و كثيرًا ما كانت هذه الزوايا تستدير نوعًا بحيث أن منظر "موكب دفن الجثة" مثلًا يبدأ عند أول جدار المقبرة على يمين الداخل ويمتد على جدرانها الأربعة وينتهي عند طرف الحائط على يسار الداخل. وهكذا يستطيع الزائر لمثل هذه المقبرة أن يقف في وسط المكان ويتتبع المنظر من أوله إلى آخره كما لو كان شريطًا تمر مناظره أمام عينيه.

هذا النوع من "الإحساس بالمكان" لم يظهر في الفن المصري إلا في عصر العمارنة واستمر بعد ذلك في عصر هذه الأسرة. وفضل المصريون في الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين المناظر الدينية فملئوا بها جدران مقابرهم وأهملوا المناظر التاريخية.

ويبدو واضحًا أن هؤلاء الناس كانوا في مشاعرهم الدينية أقرب إلى آلهتهم ممن سبقهم وبخاص أولئك الذين عاشوا في عصر الدولة القديمة حين كان الملك الإله هو الوسيط الوحيد بين الناس والآلهة، هذا إلى أنه كان يعيش بينهم فوق الأرض.

إن العلاقة الشخصية التي تربط بين الفرد والإله هي علاقة لم تكن تمس الملك في ذلك الوقت، وهي التي سمحت له بأن يبقى مؤلها وعلى الناس عبادته، هذه العلاقة الشخصية أخذت تبرز لنا بوضوح في تلك الأدعية التي نقشه بها أد صحابها على لوحات حجرية من عصر الرعامسة، وأخذت تظهر لنا أيضًا في الحكم والأقوال المأثورة والتي ترجع إلى هذا العصر المتأخر من

التاريخ المصري، وهذه الحكم لم تكن تلقي على أساس أنها وردت على لسان أحد الملوك أو المعمرين أو عظماء الناس كما كان الحال في الدولتين القديمة والوسطى بل كل ناطقيها بعض من حنكتهم التجارب.

فقد ورد مثلًا على لسان الحكيم "آني" لا تصرخ في بيت الإله، فهو يمقت الصراخ فإذا أتممت الصلاة بقلب مفعم بالحب والولاء، وكانت كلماتك خافتة، فسوف يستجيب الإله لدعائك، ويستمع إلى ما تطلبه ويقبل قربان كأن هذه الأقوال تدل على ما كان يسود المجتمع المصري في عصر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين من مثل خلقية عليا ولدينا منها أمثلة كثيرة تلقى ضوءً واضحًا على التربية الشخصية التي كان ينشدها أهل هذا العصر.

أما الاختلاف الواضح بين العصرين الذي نريد أن نظهره هنا فهو يختص باللغة، فقد حرص الناس على أن يكتبوا اللغة الفعلية التي كان الناس يتحدثون بها في حياتهم اليومية أن هذا التجديد بدأ به أيضًا في عصر أخناتون. وهكذا تمكن لنا دراساتنا الحديثة أن نتتبع تطور اللغة في عصور ثلاثة:

١- العصر القديم (الدولة القديمة).

٢- عصر اللغة الفصحى (الدولة الوسطى).

٣- عمر اللغة العامية (أخناتون وعصر الأسرتين التاسعة عشر والعشرين).

وانتشرت هذه اللغة في عصر الرعامسة انتشارًا كبيرًا وأصبحت تستخدم في جميع الوثائق الرسمية وبالتالي في الكتابات الأدبية.

ولعل هذا التجديد الذي حدث في لغة الأدب والوثائق هو الذي يحدو بنا، ونحن على حق، أن نعتبر عصر الأسرة التاسعة عشرة بمثابة عصر ذهبي ثان للدولة الحديثة.

مات رمسيس الثاني عام ١٢٣٤ ق.م في سن الشيخوخة، وبعد أن حكم مدة ٦٩ سنة وشيد لنفسه معبدًا جنازيًا ضخمًا معروف الآن باسم "الرامسيوم" وذلك على الشاطئ الغربي لمدينة طيبة، ولازالت بعض أجزائه الهامة الباقية تثير إعجابنا الشديد، أما جثة الملك المحنطة فقد عثر عليها في حالة جيدة، ولكن مقبرته التي نقرها في وادي الملوك فهي مقبرة ضخمة لا تتميز بما يدعونا إلى الحديث عنها. وتزوج رمسيس الثاني إبان حياته الطويلة زوجات عديدات وأنجب منهن أولادًا بلغ عددهم ٧٩ وبناتا بلغ عددهن ٥٩.

ولقد بلغ من الكبر عتيًا ومات كثير من أولاده وهو على قيد الحياة مما جعل خليفته وهو الابن الثالث عشر من أبنائه وهو الملك "مر نبتاح" (ويطلق عليه عادة اسم "منفتاح") الذي جلس على العرش بعد أن تقدم سنه ولم يحكم أكثر من عشر سنوات (١٢٣٤- ١٢٢٥)ولو أن الوثائق التي وصلت إلينا من عصره لم تذكره إلا إلى السنة الثامنة من حكمه.

وحدث في عصره أن هددت مصر بعض الأخطار التي دقت أبوابها من الشرق والغرب، إلا أن الحروب الدامية أبعدتها عن مصر وأو إلى حين.

مرت سنوات عصر الدولة الحديثة دون أن يحدث على حدودها الغربية – حيث يسكن الليبيون – حدث يثير قلق فراعنة مصر. لقد كان الليبيون، وهم أقوام ينتسبون إلى الجنس الحامي الذي ينتسب إليه المصريون أيضًا ويعيشون في المناطق المتاخمة لغرب الدلتا، وكانوا يطمعون مُنذ أول العصور في أراضي الدلتا الخصبة، ويدل على ذلك المناظر التي وصلت إلينا من عهد الدولة القديمة. إلا أنه حدث في أواخر عصر الأسرة التاسعة عشرة أن تجمعت حشود ضخمة منهم أخذت تهدد بالهجوم على مصر من الغرب.

وتكونت هذه الجموع من شعبين كل منهما يحاول أن يجد في مصر موطنًا جديدًا يستقر فيه: أولًا شعب "الليبو" وهم الذين أطلق عليهم الإغريق اسم "الليبيون" أي نفس الاسم الذي نطلقه عليهم، وثانيًا شعبة "المشوش" ولعل هذا الاسم هو الذي وصلنا محرفًا عن الإغريقية "ماكسيس". خرج "مر نبتاح" في العام الخامس من حكمه وصد الهجوم العنيف الذي شنه هذان الشعبان على مصر وأنزل بهما خسائر فادحة.

وتخفي محاولة الغزو التي شنها الليبيون على مصر أخطارًا جسيمة إذ لم يكن الغزاة من الليبيين فحسب بل وقفت إلى جانبهم شعوب أخرى أخذت تمد لهم يد المساعدة تنشر الرعب والقلاقل في مناطق شرقي البحر المتوسط وتحاول الوصول إلى مصر المرة بعد الأخرى.

إِن هذه الشعوب في تحركاتها المستمرة للبحث عن أوطان جديدة أصبحت تحتل في التاريخ شهرة كبيرة ونطلق عليها اسم "شعوب البحر"، وكان سبب هجراتهم التزاحم الكبير الذي قام بينهم وبين المستوطنين الجدد من "الاليريين" أحد الشعوب الآرية ومن الدوريين الزاحفين على منطقة شبه جزيرة البلقان.

وتم سرد لنا نقوش ومناظر المعارك التي وقعت بين المصريين وبينهم في العصر المتأخر من الأسرة التاسعة عشرة وبخاصة في الأسرة العشرين أسماء هذه الشعوب ومن بينها: "الشيردانا" (وقد سبق ذكرهم كجند مرتزقة استعان بهم رمسيس الثاني) و "شاكالشا" و"تورشا" و"أكايواشا" و"لوكا" و"بلست" و"زاكار" وتعددت أبحاث العلماء عن مواطن هذه الشعوب وتحركاتها ولكن للأسف لم تسفر هذه الأبحاث عن معلومات محددة كافية. لقد انتهت الآراء مُنذ أمد طويل على أن كلًا من الشعبين "شردانا" و"شاكالشيا" يمتان بصلة إلى

جزيرتي "سردينيا" و"صقلية وأن "تورشا" هم "التيرسينيون" أي "الأتروسيكيون" الذين ظهروا فيما بعد، وأن "لوكا" هم "اللوكيون" الذين سكنوا الشاطئ الجنوبي البلاد الأناضول أما "أكايواشا"، فيغلب على الظن أنهم هم الذين ظهروا فيما بعد تحت اسم "الآخيين"، في شبه جزيرة البلقان.

وفي آخر الأمر فإن "بلست" وهم الذين ورد اسمهم مع "زاكار"، ابتداءً من عصر الأسرة العشرين والذين هزمهم "رمسيس الثالث" فيغلب على الظن أنهم من "كريت" من غرب البحر المتوسط وهم أيضًا الذين ذكرهم كتاب العهد القديم تحت اسم""فلسط" أي الاسم الذي اشتق منه فيما بعد اسم "فلسطين".

ويُمكن لنا في آخر الأمر أن نقول أن معظم هذه الشعوب كانت تستوطن مناطق آسيا الصغرى، إلا أن الهزيمة المنكرة التي منوا بها على يد المصريين جعلتهم يهيمون على وجوههم ويبحثون عن أوطان جديدة يستقرون فيها وهي الأوطان التي تحمل الآن أسماء تقرب من زيارات التي كانت تطلق على شعوب البحر.

هذا الرأي يمكن الأخذ به على الأقل بالنسبة إلى "سردينيا" (أي "شيردانا") وإلى الأتروسك (أي "تور شما").

سجل الملك "مر نبتاح" انتصاراته العظيمة ضد الليبيين على جدران معبد الكرنك وعلى لوحة حجرية كبيرة محفوظة الآن بالمتحف المصري وعثر عليها في الأصل في مدينة طيبة.

ويذكر الملك على هذه اللوحة الحجرية بالذات وفي نهاية النص انتصارات أخرى حققها ضد بعض الشعوب ومن بينها شعب "إسرائيل" الذي يقطن فلسطين.

وتُعرف هذه اللوحة باسم لوحة "إسرائيل" وذلك لأنها تذكر هذا الاسم لأول مرة بل وللمرة الوحيدة في مصر. ويمكن للباحث أن يستخلص من هذا حقيقة تاريخية مهمة وهي أن الإسرائيليين كطائفة من الناس سكنوا فلسطين في عصر الملك "مرنبتاح"، وهذا النص يصف بلادهم على أنها جدباء لا أثر للنبات فيها.

ومن الواضح طبعًا أن مرنبتاح قضى على ثورة كانت قد قامت في هذه المنطقة. وللأسف الكبير ورود اسمهم في هذا النص لا يجدي نفعًا في توضيح مشكلة خروج "بني إسرائيل" من مصر ولو أن من الغريب حقًا أن تذكر النصوص المصرية لأول مرة اسم الإسرائيليين في عصر ملك كان أبوه هو رمسيس الثاني الذي تحدثت عنه التوراة بأنه استعان بالإسرائيليين في بناء أكثر من مدينة وبخاصة العاصمة الجديدة "بيت رمسيس".

وعلى كل حال نستطيع أن نحدد الوقت الذي حدثت فيه أسباب تاريخية دفعت الإسرائيليين إلى الهجرة من مصر أي فيما بين ١٢٤٠و ١٢٣٠ ق.م.

ويبدو أن الأسرة التاسعة عشرة انتهت على إثر انقلاب حدث فيها لم نستطع التعرف على أسبابه من النصوص المعاصرة وذلك لقلتها. ونقر مرنبتاح لنفسه مقبرة في وادي الملوك بطيبة كما شيد لنفسه معبدًا جنازيًا إلى الجنوب من الرامسيوم لم يصل لنا منه إلا بقايا قليلة. ولم يصل إلينا من هذا الملك عمارات أخرى، ويفسر "إدوارد ماير" هذه الظاهرة، وهو على حق فيما يقول، بأن نشاط رمسيس الثاني في إنشاء المعابد الكثيرة استنفد كل إمكانيات مصر في هذا الصدد، ودليلنا على ذلك أن "مرنبتاح" اضطر إلى الاستيلاء على لوحة حجرية كان "أمنحوتب الثالث" قد أقامها، ونقش على ظهرها ذلك النص

الطويل الذي سجل فيه انتصاراته المهمة ضد الليبيين وهي اللوحة المعروفة باسم "لوحة إسرائيل".

خلف مرنبتاح في الحكم ابنه "سيتي الثاني"، وذلك حسب ما أوضحه "بيكر اتيس" في كتابه المعد للطبع عن "عصر الرعامسة" وتذكر النصوص أنه استمر على العرش مدة ست سنوات (من ١٢١٦ إلى ١٢١٠) ق.م. ثم تبعه الملك "سا بتاح" الذي استمر حكمه بحسب ما ورد إلينا من نصوص مدة ست سنوات (أي من ١٢١٠ الى ١٢٠٢ ق.م) ولم ينتسب "سابتاح" إلى الأسرة المالكة، بل اعتمد في ارتقائه العرش المصري، على زواجه من الملكة "تاوسرت" التي كانت ابنة "مرنبتاح") أي الوريثة الشرعية للعرش، والتي تزوجت في أول الأمر أخاها من أبيها الثاني، وعلى كل حال تمتعت هذه السيدة بمركز سام جعلها تتميز بحصولها على حق الفن في مقبرة خاصية لها في وادي الملوك، عشر عاريها وكانت تحتوي على أشياء فاخرة كثيرة، ودفن "سيتي الثاني" و"سدا بتاح" في مقبرتين في وادي الملوك، إلا أنهما كانا يحكمان مصر من العاصمة "بيت رمسيس" في شرق الدلتا، حالهما في ذلك حال ملوك الفراعنة مُنذ رمسيس الثاني: سبق لنا الحديث عن المظاهر التي تدل على وجود جفاء بين أسرة الرعامسة وابن الكهنة في طيبة واستغل أحدهم هذا الجفاء القائم وقام ينادي بحقه في العرش مسميًا نفسه "آمون مسى"، (آمون ولده)، ولا شك في أن هذه التسمية تعتبر استفزازًا للاسم الشائع بين الأسرة وهو "رع مسس" (رع ولده) ثم كون هذا الرجل حكومة في مصر العليا وذلك في أثناء حكم "سابتاح" ولكنها لم تدم إلا فترة قصيرة واختفت حوالي عام ١٢٠٩ ق.م. إلا أن أهل طيبة كانوا قد اعترفوا بزعامة هذا الرجل إذا اسمحوا لجثته أن تدفن في مقبرة منقورة في منطقة وادي الملوك المقدسية.

وزادت الحال سوءا بعد موت "سابتاح"،إذ اغتصب العرش رجل أجنبي (يغلب على الظن أنه كان فلسطيني الأصل) اسمه "ايرسو" ولم تذكره إلا وثيقة واحدة مكتوبة على ورقة بردية، في حين لم تصل إلينا أية آثار له، ولكن ظواهر الأمور تدل على أنه حكم في "بيت رمسيس" وأن حكمه لم يدم أكثر من سنتين (١٢٠٢ إلى ١٢٠٠).

كان "ست تخت" هو مؤسس الأسرة الجديدة (الأسرة العشرين) ومعنى أسد سماه "الإله ست قوي"، وهو ينتسب إلى أسرة كانت تعيش في العاصمة"بيت رمسيس" أي "تانيس" في شرق الدلتا، ودليلنا على ذلك أن اسمه يتكون من مقطعين أولهما هو الإله ست. وبدأ حكمه بأن قضى على الحاكم الأجنبي وأعاد السلام إلى البلاد ولكنه لم يبق في الحكم إلا فترة قصيرة ولم يترك وراءه ما يدل على أعماله وجهوده (١٢٠٠ إلى ١١٩٧ ق.م) وخلفه ابنه الذي كان يبدو أنه اتبع نصيحة أبيه فتسمى بالأدهم المشهور ذي الرنين المدوي أي "رمسيس"، وأصبح بذلك "رمسيس الثالث" الذي ذكره الإغريق منطوقًا "زامبينيت" واحتفظ كل الملوك الذين خلفوه على العرش باسم رمسيس ويعدد التاريخ من هؤلاء الذين حكموا في الأسرة العشرين حتى رمسيس الحادي عشر.

جلس رمسيس الثالث على عرش مصر مدة اثنين وثلاثين عامًا وهو يعني أخر الملوك العظام الذين تولوا الملك في عصر الدولة الحديثة.

والمصادر التي تحدثنا عن فترة حكم رمسيس الثالث، كثيرة متعددة الجوانب فهناك معبده الجنازي الكبير الذي لا زالت معظم أجزائه قائمة والمشيد في أقصى الجنوب من الشاطئ الغربي لمدينة طيبة وهو المعروف لدينا الآن باسم معبد مدينة هابو. ثم بضعة معابد صغيرة أقامها في منطقة

معبد الكرنك. وكذلك مقبرته الضخمة التي تتميز بنصوصها المختلفة والمحفورة في وادي الملوك ثم بردية هاريس الكبرى وهي أطول البرديات التي وصلت إلينا من عصر الفراعنة، وهي تحوي نصًا يعتبر بمثابة تقرير كامل عن ثروات ومقتنيات المعابد المصرية في عصر (رمسيس الثالث) ونستطيع منها أن تتعرف على الثروة القومية الضخمة التي كانت تملكها مصر في عصر أواخر الدولة الحديثة.

وحاول "رمسيس الثالث" طوال مدة حكمه أن يقلد سلفه العظيم "رمسيس الثاني"، وأن ينحو نحوه، هذا مع العلم بأن الملكين لم يكن تربط بينهما أية صلة قرابة أو دم، وبلغ رمسيس الثالث حدًا من التقليد نستطيع أن نستدل من آثاره على أشياء كثيرة كانت تجري في عصر سلفه الكبير.

وما دمنا نستعرض الأعمال التي قام بها "رمسيس الثالث"، فعلينا أن نقف للتحدث عن معبد مدينة هابو، وهذا المعبد نعرف عنه الكثير ومرجع ذلك إلى الدراسة الضخمة التي استغرقت عشرات السنين والتي يقوم بها "معهد الدراسات الشرقية"، بشيكاغو منفذًا بذلك البرنامج الذي وضعه "برستد"، لتسجيل كل النقوش والمناظر التي وردت على جدران المعابد المصرية، وكذلك إلى الجهد الكبير الذي بذله الأستاذ "هنولشر"، في التنقيب عن الأجزاء التي لم يكن قد كشف عنها بعد من المعبد، ولعل من أهم النتائج التي أسفرت عنها عملية التنقيب العثور على القصر الملكي الملحق بالمعبد حيث كان ينزل الملك عند زيارته للقصر آتيًا من عاصمته البعيدة في شرق الدلتا، وكانت كل المعابد الجنازية التي أقامها فراعنة مصر على الشاطئ الغربي لمدينة طيبة مشيدة لإقامة الطقوس الدينية للإله أمون أولًا ثم لإقامة الشعائر الجنازية للملك بعد موته، ومن أجل ذلك كانت هذه المعابد عامرة

بكهنتها وزوارها في أثناء حياة بانيها. ولقد استغل "رمسيس الثالث" مسطحات جدران معبده السالف الذكر وهي من الأشياء التي بقيت لنا محفوظة حتى الآن – لتسجيل مناظر معاركه الحربية ضد شعوب البحر التي هاجمت حدود مصر. ولقد رسمت هذه المناظر بنفس الطريقة والأسلوب الفني الذي ظهر في الأسرة التاسعة عشرة.

بعد موت "رمسيس الثالث" بدأت سطوة الملك وقوته تنهار بسرعة فائقة وتولى عرش مصر من بعده ثمانية ملوك (من رمسيس الرابع إلى رمسيس الحادي عشر) حكموا فترة ثمانين عامًا، أي من حوالي عام ١١٦٥ إلى ١٠٨٠ ق. م. وبقيت عاصمة البلاد في شرق الدلتا أي "بيت رمسيس" (التي سميت فيما بعد تانيس) واستمر التقليد القديم في دفن الملوك في مقابر وادي الملوك بطيبة وأعدت لكل من هؤلاء مقبرة متسعة مزينة بالنقوش والمناظر هناك.

وكما مضى عصر هؤلاء الملوك دون حدوث ما يسترعى النظر تاريخيًا فإنهم لم يخلفوا وراءهم آثارًا تستحق الذكر، وتضاءلت أملاك مصر خارج حدودها بحيث فقدت كل مناطق فلسطين.

في هذه الفترة أخذت قوة كبار كهنة آمون بطيبة تزداد باطراد، وفي عصر "رمسيس الرابع" تولى هذا المنصب الكبير الكاهن "رمسيس نخت"، ومن ثم أصبح من حق صاحب هذا المنصب أن يورثه لأبنائه، ونتيجة لذلك تمكن "أمنحوتب" بن "رمسيس تخت"، أن يصور نفسه بجانب الملك الشرعي في حجم مواز له، وهذا أمر كان يتنافى مع التقاليد المصرية قبل ولم يكن يسمح به مطلقًا في العصور السابقة. ومن بعد"أمنحوتب" تولى هذا المنصب رجل اسمه "حر يحور" لا تعرف عن أصله شيئًا، وكل ما نعرفه عنه

أنه استمد نفوذه وسطوته من الوظيفة التي كان يتقلدها وهي حاكم بلاد النوبة التي كان صاحبها يلقب باللقب القديم "ابن الملك المولى على كوش"، وكانت هذه البلاد هي كل ما تبقى لمصر خارج حدودها في ذلك العصر، وسوف تضيق صفحات هذا الكتاب إذا أردنا أن نسرد هنا ما كان يحدث من مؤامرات مختلفة خاصة ولأن معلوماتنا عنها لا تزال قليلة غير واضحة.

فمن الناحية التاريخية حدث في هذا الوقت أمر هام وهو محاولة "البدء بعمر زمني جديد"، أو كما أطلق المصريون عليه في ذلك الوقت "وحم ميشوت" وهي كلمة تعني "إعادة الولادة" (رنيسانس)، وهذه المحاولة كانت وليدة رغبة صادقة عند الرعامسة الذين حكموا مصر في أواخر الأسرة العشرين، تهدف إلى أن يحققوا للبلاد عصرًا ذهبيًا على نمط ما كانت تتمتع به تحت حكم الملوك الكبار، إلا أن التاريخ بهذا العصر الزمني الجديد ترك وأهمل عندما تولى حكم مصر ملوك الأسرة الحادية والعشرين.

حكم "رمسيس الحادي عشر"، البلاد مدة ثلاثين عامًا، إلا أننا نجهل تمامًا الطريقة التي انتهى بها حكمه وعلى كل حال يبدو أنه نجح في حكم البلاد داخليًا ولكن نجاحه هذا لم يستمر طويلًا، ويغلب على الظن أن خلفه "سمندس" تمكن من أن يقوض حكمه ويتولى هو العرش بدلًا عنه (وسمندس هذا هو الشخص الذي قام بحركته في العاصمة تانيس، ونحن نرفض النظرية القائلة بأن خليفة رمسيس الحادي عشر كان "حرينور" في طيبة).

وانقسمت مصر في عصر الأسرة الحادية والعشرين إلى دولتين إحداهما تجمعت حول العاصمة الشمالية "تانيس" حيث حكم "سمندس" والثانية في العاصمة الجنوبية "طيبة" حيث حكم "حر يحور".

ويبدو أن الاتفاق بين الملكين كان قد وصل إلى حد الاعتراف بآمون في تانيس بل وإلى حد إلغاء عبادة الإله المحلى الكبير في تانيس وهو "ست".

(٥) عصر النكسة والانتقال إلى العصر المتأخر (الأسرات من الحادية والعشرين إلى الرابعة والعشرين) من ١٠٨٥ إلى ٧١٥ ق.م

يمثل عصر الأسرة الحادية والعشرين في مصر اضمحلال شديد بالنسبة إلى سياستها خارج البلاد وكذلك بالنسبة إلى انهيار مظاهر الحضارة فيها. لقد بقيت تانيس في شرق الدلتا مركزًا للحياة السياسية كما كان الحال في عصر الرعامسة، وبقى فيها سمندس يدير دفة الحكم، وهو الرجل الذي قلنا أننا لا نعرف عن أصله شيئًا، أما طيبة، المدينة التي تمتعت في يوم من الأيام بسطوة لا مثيل لها فقد أصبحت الآن تتردى في ظلمات النسيان يقبع فيها «حريحور» الذي استطاع أن يجعل تانيس تعترف بالإله آمون إلهًا للدولة ولكنه بقى ضعيفًا لا حول له، ويرجع إلى هذا العصر التقرير الذي كتبه الموظف المصري «ون آمون» واصفًا رحلته التي خرج فيها من طيبة مبعوثًا من «حريحور» ليجلب أشجار الأرز من مدينة «جبيل» على الساحل الفينبقي وذلك لتجديد بناء القارب المقدس للإله آمون الذي يستعمل في وماكبه، وهذا التقرير يلقي ضوءًا على ما كانت تعانيه مصر من ضعف واضمحلال في عصر الأسرة الحادية والعشرين، عومل هذا الرسول المصري في كل مكان حل فيه بسوريا باحتقار وإذلال، ولا بد أن الناس في سوريا لم يكونوا قد نسوا ما كان لمصر ولإلهها العظيم آمون من قوة وسيطرة فيها ولكن يبدو أن هذا المجد التليد كان قد أصبح في سوريا أثرًا بعد عين، وليس من شك في أن

تقسيم مصر إلى مملكتين في ذلك الوقت كان له أثر فعّال فيما أصاب «ون آمون» من امتهان.

وليس هناك ما يدعو إلى سرد أسماء ملوك هذه الفترة في كل من المنطقتين، ومن الطريف أن ذوق الناس قد تغير في مصر إلى درجة أن أسمائهم كانت تتخذ طابعًا ينسجم مع العصر فنراهم يطلقون على أنفسهم «بي عنخي» (أي «الحي») أو «بي نوتم» (أي «الحلو») وقدر لمصر فيما بعد أن تتحد وذلك بعد أن تزوج حفيد «حريحور» من ابنة أحد ملوك تانيس وبقى الشمال مهيمنًا على مصر وتانيس صاحبة الكلمة فيها.

بل أكثر من هذا نشب خلاف كبير عن أحقية «حريحور» في تلقيب نفسه بلقب ملك وهل يعتبر خليفة شرعيًا لفراعنة مصر؟

حققت الأسرة الثانية والعشرون لمصر وحدتها الفعلية، ونشأت هذه الأسرة من بيت ليبي عمل أفراده بالجيش كضباط عظام وأخذوا يستقرون مُنذ عصر الرعامسة في أهناسيا بمصر، ولقد سبق الحديث عن ازدياد استخدام الجند المرتزقة في الجيش المصري مُنذ عصر الرعامسة، كما أن انتصارات رمسيس الثالث الكاسحة على الليبين لم تمنع تسرب بعض الفلول منهم إلى الدلتا والاستقرار فيها، وكثيرًا ما يرد في النصوص التي وصلت إلينا من القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد اللقب الليبي «أمير ألما» وكلمة «ما» هذه ليست إلا اختصارًا للاسم المعروف «ماشا واشا» (أو «ماشوش») الذي كان يطلق على قبائل الليبيين ولقب «أمير ألما» كان يطلق عادة على المحافظين من الليبيين الذين تولوا إدارة بعض المدن المصرية أو عينوا مديرين لبعض الأقاليم، ونحن نجهل تمامًا الطريقة التي تم بها انتقال الحكم من ملوك الأسرة الحادية والعشرين إلى فراعنة الأسرة الثانية والعشرين.

نحن نعلم فقط أن الملك الليبي «شوشنق» (وينطق أيضًا «شيشونق» وعرفه الإغريق تحت اسم «سيسونخيس») ارتقى عرض مصر حوالي عام ٩٥٠ قبل الميلاد.

اسم هذا الملك ورد لنا مكتوبًا في اللغة الآشورية «شوشينقو» وفي اللغة العبرية «شوشق» (وكتب أيضًا «شيشق»)، وحكمت الأسرة الثانية والعشرين أكثر من قرنين أي استمرتر في الحكم حتى عام ٧٣٠ قبل الميلاد، ومن بين أسماء ملوك الليبيين نجد أيضًا اسم «اوسوركون» و «تاكيلوت» واختار ملوك الليبين الدلتا مقرًا لحكمهم وكانت عاصمتهم هي «بوباستيس» (أي مدينة باستت الآلهة القطة) وتقع هذه العاصمة بالقرب من مدينة الزقازيق الحالية بشرق الدلتا، ونظرًا لأن الملوك الليبيين سيطروا على مصر كلها لذلك نراهم يساهمون في توسيع أرجاء معبد الكرنك فشيدوا فيه بهو الأعمدة الذي يقع إلى الغرب من بهو الأعمدة الكبير في المعبد، كما استطاعوا أن يقضوا على ما كان ملوك الأسرة الحادية والعشرين قد منحوه للكهنة من سلطان في طيبة وأصبحت وظيفة كبير الكهنة «آمون» تعطى إلى أحد أمراء الأسرة المالكة دون أن يكون له حق توريثها لأبنائه، وهكذا ارتبطت طيبة مرة أخرى بالدولة ارتباطًا وثيقًا.

وتمكن الكثيرون من قواد الفرق الليبية المرتزقة الذين استقروا في الدلتا من أن يسيطروا على مناطقهم وانتهى الأمر بأن تكونت منهم طبقة من المحاربين أطلق الإغريق فيما بعد على أفرادها لقب «ماخيموي»، ونظرًا لأن الالتحاق بالعسكريةً ابح هدفًا يرنو إليه كل أفراد الأسرة ويتوارثونه ابنًا عن جد لذلك نجد أن الظروف حتمت وجود طبقة متماسكة منطوية على نفسها من العسكريين مثل هذا التطور حدث بالذات في بعض الأسر التي اتخذت من

الكهنوت مهنة لها وانتهى الأمر بها أن تجمعت في طعمة الكهنة، ومن هذا تكونت الصورة الخاطئة التي رسخت في أذهان الرحالة الإغريق الذين وفدوا على مصر مُنذ القرن السابع قبل الميلاد واعتقدوا أن الحياة الاجتماعية فيها تقوم على نظام الفئات المهنية، وهي بعينها الصورة التي تغلغلت في كتب علماء الآثار من الرعيل الأول.

وبعد أن استقرت الأحوال الداخلية أخذ «شيشونق» الأول يحاول استعادة فلسطين تحت الحكم المصري. وورد ذكر الجملة التي أرسلها الملك في السنة الخامسة من حكمه إلى فلسطين، مكتوبًا في الإصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الأول من العهد القديم، ومن هذا النص القصير نعرف أن الملك الذي كان يحكم في أورشليم هو «رحبعام» من يهوذا وحكم طوال الفترة من ٩٣٥ إلى ٩١٩ قبل الميلاد أي أنه كان معاصرًا «لشيشونق الأول» ويبدو أن هدف هذه الجملة لم يزد على السلب والنهب على نطاق واسع وذلك لملء خزائن مصر التي كانت خاوية أما «شيشونق» فقد سجل انتصاراته في حملة فلطسين على أحد حوائط الكرنك وأخذ يعدد في هذا النص أءماء المدن التي احتلها مغاليًا في ذلك كل المغالاة، وعل كل حال يعتبر هذا النص الأخير من نوعه الذي يسجل لنا انتصارات تاريخية ولو أنه لم يبرز هذا الانتصار العسكري في لوحات واسعة المدى كتلك التي عرفناها من عصر الرعامسة، ويبدو أن هذه الجملة وصلت في زحفها إلى مناطق تبعد عن فلسطين شمالًا إذ عثر على بعض الآثار لملوك من الأسرة الثانية والعشرين في جبلين وهي المدينة التي تفنن أميرها في إذلال «ون آمون» مبعوث مصر في عصر الأسرة الحادية والعشرين، ونعتقد أن هذه الآثار وصلت إلى «جبلين» كهدايا ملكية ثم نقش عليها فيما بعد بعض النصوص الفينيقية.

ونحن لا نشك في أن النفوذ المصري كان قد رجع مرة ثانية إلى فلسطين في ذلك الوقت ودليلنا على ذلك أن حملة «شالمنصر» الثالث التي وجهها إلى هذه المنطقة تقابلت في موقعة «قرقر» حوالي عام ٨٥٣ ق. م بجيش متحد من السوريين والفلسطينيين ومعه فرقة مصرية تتكون من ١٠٠٠ جندي مصري.

وكان السؤال الذي يوجهه علماء الآثار هو: أين الجبانة الملكية لفراعنة الأسرات من الحادية والعشرين حتى الثالثة والعشرين، أي الذين حكموا مصر من العاصمتين «تانيس» و«بوباستيس»؟ وظل هذا السؤال لا يجد جوابًا شافيًا حتى تمكن عائم الآثار الفرنسية «مونتيه» من العثور أخيرًا على مجموعة مقابر ملوك الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين في أطلال مدينة تانيس نفسها ووجد فيها آثارًا تشبه تلك التي احتوتها مقبرة «توت عنخ آمون» بل تفوقها في دقة الصناعة ووفرة المعادن الثمينة التي صنعت منها وإن كانت أقل منها كما

واعتاد المؤرخون أن يربطوا بين الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين وذلك لأن الأسرة الأخيرة ليبية الأصل أيضًا ولأنها حكمت مصر من العاصمة تانيس ونعرف من ملوكها الأسماء الآتية: «بيتو باستيس» و«أوسر كون الثالث» و «الرابع» ويبدو أن الأحوال في مصر أخذت تسوء في أواخر العصر الليبي، وسوف نتحدث على الصفحات التالية عن وقوع الإقليم الطيبي في قبضة الأثيوبيين عام ٧٥٠ ق. م كما أن الدلتا انقسمت على نفسها وأصبحت تتكون من إمارات تقاتل بعضها البعض.

ويجدر بنا هنا أن نذكر كلمة عن الأسرة الرابعة والعشرين التي لم يستطع مانيتون إلا ذكر اسم ملك واحد من ملوكها فيبدو أن أحد الأمراء الذين استقلوا بإماراتهم المتعددة في الدلتا، واسمه «تف نخت» أمير «سايس» (المقاطعة الخامسة من مقاطعات الدلتا وتقع في غربها) استطاع حوالي عام ٧٣٠ ق. م أن يجمع تحت لوائه كثيرًا من مقاطعات مصر السفلى وبدأ يحاول مد نفوذه على مصر العُليا إلا أن محاولاته هذه اصطدمت بأهداف الملك الأثيوبي «بعنخى» ولم يقدر لها النجاح على النحو الذي سنسرده على الصفحات التالية عند الحديث عن الأسرة الخامسة والعشرين ونشأتها وتمكن ابن «تف نخت» وهو المدعو «باك ان رنف» (تذكره النصوص الإغريقية تحت اسم «بوكو ريس» وهو الاسم الأكثر شهرة في الكتب التاريخية) من أن يسيطر على معظم مناطق الدلتا لمدة ست سنوات.

ومن أجل هذا تذكره المصادر التاريخية كمؤسس الأسرة الرابعة والعشرين والملك الوحيد فيها (٧٢٠ إلى ٧١٥ ق. م) ومع قلة ما قالته المصادر المصرية عن هذا الملك تزخر المصادر الإغريقية بأنبائه وهي تذكر عنه أنه كان رجلًا حكيمًا مشرعًا كبيرًا، وانتهى حكمه القصير على يد أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الذي حكم عليه بالحرق حيًا.

وحديثنا عن عصر الأسرات من الثانية والعشرين إلى الرابعة والعشرين لا بد أن يكون حديثًا موجزًا وذلك لقلة الآثار التي وصلت إلينا منه، وهي تدل – مع قلتها – على أنها من عصر يعتبر مع انهيار حضارته عصر انتقال للعصور التالية، ونحن نحس مدى تمسك هذا العصر بأهداب الفنون التي كانت تسود مصر في عصر الدولة الحديثة وتمسكه بأن ينحو نحو ملوك هذه الدولة في تقاليدهم السياسية، فحاولوا استعادة فلسطين وسوريا، ونجح في ذلك شيشونق الأول إلى حد كبير.

وهناك بعض المظاهر الفنية ظهرت في عصر الأسرة الثانية والعشرين، وتأصلت جذورها فيما بعد في العصر المتأخر، نذكر منها على سبيل المثال التماثيل الكبيرة المصنوعة من البرونز والتي تتميز بدقتها الفائقة، ثم انتشار التماثيل التي تظهر أصحابها في جلسة القرفصاء، ونظرًا لأن محاولات «شيشونق الأول» في إعادة مد نفوذ مصر العسكري على فلسطين على الأقل، تعتبر صدى لما كانت تجيش به صدور أهل هذا العصر من عواطف فياضة تدفعهم نحو التمثل بملوك الدولة الحديثة، كذلك عالجنا أحداث هذه الفترة وسردناها في القسم المخصص للدولة الحديثة، ونفرد الفصل التالي للفترة التي بدأت بالأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية وانتهت بدخول إسكندر الأكبر أرض مصر وهي الفترة المعروفة باسم العصر المتأخر.

الفصل السادس

العصر المتأخر

(من عام ٧١٥ إلى ٣٣١ ق.م)

اتفق العلماء على تسمية العصر الرابع من عصور التاريخ المصري باسم «العصر المتأخر» وهو العصر الذي ينتهي بدخول إسكندر الأكبر أرض مصر عام ٣٣٢ ق. م أما العصور الثلاثة السابقة فهي «الدولة القديمة»، «فالدولة الوسطى» ثم «الدولة الحديثة» وآخر أسرات العصر المتأخر هي الأسرة الثلاثين حسب تقسيم «مانيتون».

وأهم ما يتميز به العصر المتأخر هو المغالاة في التمسك بالقديم، وذلك في الأسلوب الفني الذي يضفي على الإنتاج الفني نوعًا من الجمود ويجعله غريبًا علينا، وفي محاكاة الأسلوب الفني للدولة القديمة، وإعادة استخدام الألقاب التي كانت قد اختفت وعفا عليها الدهر بل استخدموا أيضًا الأسماء التي تسمى بها الناس في تلك الفترة.

واعتاد المؤرخون إطلاق اسم «عصر النهضة» (رنيسانس) على العصر المتأخر وذلك نظرًا لتمسك المصري في الأسرة السادسة والعشرين بمظاهر الحضارة التي تميزت بها مصر في عصر الدولة القديمة، ولا نأخذ الآن بهذه التسمية وذلك لأن عصر «الرنيسانس» الحقيقي الذي نبدأ به عصرنا الحديث كان يهدف إلى إحياء بعض مظاهر حضارة ذات قيمة عملية واضحة.

في حين كانت أهداف العصر المتأخر من التاريخ المصري هي التمسك بالقديم فحسب مدفوعين في ذلك نحو المحافظة على قواعده دون إحياء لما قد يعود بالنفع عليهم أو يدفع حضارتهم نحو التقدم والكمال وعبر «يونكر» في عرضه الرائع للتاريخ المصري عن هذه الظاهرة التاريخية قائلًا: «لقد عزلت مصر حضارتها عن ركب الحضارة الذي كان يسير مسرعًا في الأمم المتاخمة وبذلك حكمت على نفسها بالتأخر والدمار».

ينقسم العصر المتأخر إلى فترات ثلاث:

١- فترة حكم الأثيوبيين (الأسرة الخامسة والعشرون).

٢- العصر الصائي (الأسرة السادسة والعشرون).

٣- فترة حكم الفرس (الأسرات من السابعة والعشرين إلى الثلاثين).

١- العصر الأثيوبي (من ٧١٥ إلى ٦٦٣ ق. م).

بقيت بلاد النوبة موالية لمصر بل كانت المنطقة الوحيدة الخاضعة لها عبر الحدود حتى عصر «حريحور» كما سبق القول، ويبدو أنها استطاعت التحرر والفوز باستقلالها في أثناء فترة حكم الأسرة الحادية والعشرين أي في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد، وتكونت على إثر ذلك دولة نوبية اتخذت من مدينة نباتا عاصمة لها، وهي مدينة تقع بالقرب من جبل بركال ومن الشلال الرابع، أي تقع في المنطقة التي كان قد وصل إليها تحوتمس الأول وفرض عليها سلطانه، واعتاد المؤرخون إطلاق اسم «الأثيوبيين» على «النوبيين» وذلك لأنه الاسم الذي أطلقه الإغريق عليهم مُنذ «العصر المتأخر» ونحن لا ندري السبب المباشر الذي أدى إلى تثبيت أقدام عقيدة أمون في بلد بعيد كمدينة نباتا، ولعل هذا السبب هو هجرة بعض كهنة أمون من طيبة إلى نباتا وهي هجرة دفعت إليها إحدى الثورات العديدة التي وقعت في العاصمة

الدينية الكبرى وعلى كل حال نرجح أن أمون ذا رأس الكبش قد أصبح مهيمنًا على الدولة الأثيوبية مُنذ أول القرن العاشر قبل الميلاد، ويغلب على الظن أن أمراء نباتا اعتمدوا على ذلك في المطالبة بالاستيلاء على طيبة فيما بعد.

وعثر العالم الأمريكي «جورج رايزنر» على معابد عديدة وأهرامات ملكية في منطقة جبل بركال وكان الملوك الأثيوبيون قد حذوا حذو فراعنة الدولة القديمة، وشيدوا لأنفسهم مقابر هرمية الشكل إلا أنها تختلف عنها في ارتفاعها القليل وفي أن زاوية أضلاعها كانت أكثر انفراجا، كما كانت معابدها صغيرة، ونقوشها يغلب عليها الأسلوب الأفريقي الخشن الخلاي من الانسجام الفني، وأهم المناطق ازدحامًا بأهرامات ملوك النوبة هما منطقتا «الكورو» و«نوري» وكلاهما يقع على مقربة من نباتا واعتمد «رايزنر» على بعض القرائن الأثرية وأثبت ظهور عنصر جديد ليبي الأصل يتميز ببشرته البيضاء مكونًا طبقة جديدة وكان منها «كاشتا» أول من حقق إقامة دولة نباتا المستقلة حوالي عام ٧٥٠ ق. م واستطاع «رايزنر» بعد تنقيبه الذي استمر سنوات طويلة في بلاد النوبة أن يجمع أسماء الملوك الذين تتابعوا على عرش هذه الدولة لفترة طويلة تمتد ما يقرب من عشرة قرون، واستطاع أيضًا أن يحدد سني حكم بعضهم، ونحن لا ندري الأسباب التي أدت إلى نقل العاصمة من نباتا إلى مروى جنوبًا حوالي عام ٣٠٠ ق.م وتقع العاصمة الجديدة على بعد ٢٠٠ كيلو متر شمالي الخرطوم الحالية، وتكونت هناك في أقصى الجنوب دولة أثيوبية عاشت حتى عام ٣٥٥ ميلادية ولقد تأثرت هذه الدولة بحضارة زنجية ظهرت معالمها واضحة في كل الآثار التي وصلت إلينا من عصرها، وبقيت هذه الدولة إلى أن قضى عليها جيرانها الجنوبيون من الأحباش أي دولة «أكسوم».

واعتمد «كاشتا» على الحقوق المزعومة للأثيوبيين نحو المركز الديني الرئيسي في طيبة لآلهم المشترك آمون فقام عام ٧٥٠ ق. م بضم إقليم طيبة وبقية أقاليم مصر العليا الواقعة إلى الجنوب منه حتى الشلال وجعلها جزءًا من دولته، وهذه الأهمية التي عقدها الأثيوبيون على إقليم طيبة لم تخف وراءها هدفًا دينيًا فحسب بل كمنت فيها ولا شك أهداف سياسية واقتصادية وهيمنت في ذلك الوقت أمير الكهنة على كنوز معبد آمون في طيبة، وهي ظويفة كانت تسند إلى إحدى أميرات الأسرة المالكة وتلقب «الزوجة الإلهية لآمون» وتعتبر بمثابة الزوجة الآدمية لملك الآلهة «آمون» وهذه الوظيفة أنشئت في الأسرة الثامنة عشرة وكانت تسند باستمرار إلى سيدة، واستمر هذا التقليد إلى ما بعد حركة أخناتون ولو أنه أبطل خلال فترات قليلة، وأسندت هذه الوظيفة الكبرى إلى إحدى سيدات البلاط ذات النفوذ القوي وذلك إبان العصر الليبي، وحين استولى «كاشتا» على طيبة طلب من السيدة التي كانت تتولى هذه الوظيفة وهي الزوجة الإلهية «شبن أوبت الثانية» إحدى بنات الملك «أوسوركون الثالث» من الأسرة الثالثة والعشرين أن تتبنى ابنته «امنراديس» وتعلنها خليفة لها، وتمسك كل ملوك الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين بهذا التقليد الذي جعل أملاك آمون الضخة تابعة باستمرار للأسرة الحاكمة.

أخذت حركة الحترير التي قام بها «تفنخت» أمير «سايس» تنجح في الدلتا، وحين امتد نفوذه نحو الجنوب وأصبح يهدد إقليم طيبة محاولًا في ذلك إرجاع مصر بقطريها إلأى الوحدة التقليدية، زحف «بعنخى» بن «كاشتا» وخليفته على رأس جيش كامل التسليح ودخل مصر، واستطاع في هذه الغزوة أن يهيمن على قطريها الشمالي والجنوبي، وسجل على لوحة

حجرية كبيرة أقامها في معبد آمون بنباتا، أخبار هذه الغزوة وتفصيلاتها وكان أمينًا واضحًا في ذكر هذه التفصيلات بحيث أتى النص كاملًا، ونعتبره من أهم وأمتع النصوص التاريخية التي وصلت إلينا من مصر القديمة.

تعرف هذه اللوحة باسم «لوحة بعنخى» وهي محفوظة الآن بالمتحف المصري، ونستطيع من هذا النص أن نحكم على شخصية «تفنخت» أمير سايس والعدو اللدود «لبعنخى» فهو يبدو لنا رجلًا شجاعًا واضح الشخصية عنيدًا يقدس قوميته، يعرف تمامًا كيف يتقي الأخطار ويتفادى هجمات «بعنخى» ويخرج منها سالمًا حقيقة انتهت حملة «بعنخى» بانتصار الأثيوبين على مصر، إلا أنه لم يكن انتصارًا كاملًا شاملًا، إذ نعرف أن «تفنخت» استطاع أن يحكم من مدينته «سايس» وأن حكمه امتد حتى عام ٧٢٠ ق.م.

ولعل هذا هو السبب الذي جعل المصريين لا يعترفون «ببعنخى» ملكًا شرعيًا على مصر، ولو أن مدة حكمه في نباتا تبدأ عام ٧٤٦ وتنتهي عام ٧١٠ ق.م كما أن لوحته تعتبره أحد فراعنة مصر الذي استطاع في العام الحادي والعشرين من حكمه أن يغزو القطر الشمالي (أي حوالي عام ٧٢٥ ق.م) ويجدر بنا هنا أن ننوه بناحية أخرى من النواحي التي تميزت بها لوحة «بعنخى» وهي أنها أعطتنا صورة واضحة عن الحالة الداخلية في مصر إذ ذاك، وهناك حملة أخرى وجهها الأثيوبيون ضد مصر، خرج على رأسها الملك «شباكا» (ونحن لا ندري هل كان أخًا لبعنخي أو ابنًا له) واستطاع عام ٧١٥ ق.م أن يقضي على «بوخوريس» وبذلك انتهت الأسرة الرابعة والعشرون، وهكذا استطاع الأثيوبيون أن يجلسوا على عرش الفراعنة وسجل مانيتون لهم الأسرة الخامسة والعشرين، وتمتعت طيبة إبان حكمهم القصير بمركز ممتاز كعاصمة للبلاد، وذلك للمرة الأخيرة في تاريخها، كما فازت

عبادة آمون بتبجيل وتكريم عظيمين ويدلنا على ذلك الأبنية الكثيرة التي شيدها ملوك هذه الأسرة في الكرنك والتي بقيت لنا شاهدة على ذلك، وتتابع على العرش الملوك: «شباكا» و«شباتاكا» و«طهارقا» و«تانوت آمون» ولم يفز من هؤلاء بحكم طويل سوى «طهارقا» الذي يؤكد أنه حكم فترة ٢٦ سنة (٦٩٠ إلى ٦٦٤ ق. م)

كان الآشوريون الذين نبغوا ذروة قوتهم في هذا الوقت يمثلون الخطر الداهم الذي يهدد الأثيوبيين في مصر، وتستطيع أن نتبين موقفهم من الدور الذي لعبوه في تحالفهم مع مملكة يهوذا ضد الآشوريين ثم ضد البابليين، وهو الدور الذي ورد ذكره في نصوص العهد القديم، والذي نفهم منه أن مصر كانت تتزعم كل الشعوب التي تحالفت ضد الآشوريين، ولكن مصر كانت ضعيفة في زعاتها ولم تستطع مطلقًا أن تقف أمام قوة الآشوريين الجارفة حقيقة استطاع المصريون أن يوقعوا الهزيمة بالجيش الأشوري المنتصر الذي وصل إلى الحدود المصرية في عصر الملك «سناحريب» واضطر هذا الجيش إلى الانسحاب بسرعة بعد أن تفشى الوباء بين جنوده، إلا أن الملك «آشور أخي الدين» أعاد الكرة بعد فترة قصيرة واستطاع أن يغزو مصر عام ٦٧٠ ق.م ويهيمن عليها ويجعلها أحد الأقاليم الأشورية لمدة سبع سنوات، ونجت في ذلك الوقت مدينة طيبة بأعجوبة من العدوان، ووصلت إلينا اللوحة التي سجل عليها «أشور أخي الدين» انتصاراته وهي لوحة «زنجرلي» في شمال سوريا، ونرى عليها ملك صيدا، وهي إحدى مواني الساحل الفنيقي كما نرى عليها ملك مصر (طهارقا) وقد ركعا كأسيرين أمام الملك الآشوري، وظهر الأول في صورته التي تكبر صورة ملك مصر أكثر أهمية وأشد بأسًا من الثاني.

وكان «تانوت أمون» أحد أبناء «شاباكا» (وورد اسمه في النصوص الآشورية منطوقًا «تالتاماني») هو آخر ملوك الأثيوبيين الذين هيمنوا على مصر العليا، ووصلت إلينا لوحة منه أقامها في نباتا، سجل عليها أن الهاتف أتاه في المنام وحثه على إعادة غزو مصر والفوز بها، وتمكن من الوصول في زحفه إلى منف إلا أن الدلتا بقيت بعيدة المنال منه نظرًا لتفوق قوة الآشوريين فيها، وعندما ثأر الآشوريون لأنفسهم منه في عصر الملك «آشور بني بعل» وصلوا في زحفهم إلى طيبة وفتكوا بأهلها وهدموا أبنيتها في همجية ورد ذكرها في العهد القديم على لسان «ناحوم» النبي وتمكن «تانوت أمون» من السيطرة على بعض مناطق من مصر العليا بعد القسوة والهمجية التي استخدمها الآشوريون في حملتهم السالفة الذكر إلا أن سيطرته لم تدم إلا سنوات لم تزد على الثمانية كما ورد في بعض النصوص التي عثرنا عليها في طيبة، ولو أن هذه السنوات الأخيرة أي إلى عام ٦٥٤ ق.م لم تحسب للأثيوبيين في مدة حكمهم، إذ اعتبر عام ٦٦٣ ق.م بدء حكم «بسامتيك الأول» أول ملوك الأسرة السادسة والعشرين ومعنى هذا أنه اعتبر ملكًا مباشرة بعد انتهاء حكم «طهارقا» من الأسرة الخامسة والعشرين، وانسحب «تانوت أمون» في آخر الأمر واستقر في عاصمته الجنوبية «نباتا» ونحن لا ندري كم من السنين استمر حكمه هناك إلا أننا نعرف أنه دفن في مقبرته التي شيدها على شكل الهرم والتاريخ يسجل لملوك الأسرة السادسة والعشرين فضل تخليص مصر من الحكم الأجنبي الذي فرضه الآشوريون عليها.

ونتم حديثنا عن الفترة القصيرة التي حكمها ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية وهي الفترة التي لم تزد بأي حال على نصف قرن، نتم هذا الحديث بكلمة وجيزة نبرز فيها الدور الكبير الذي لعبته طيبة للمرة الأخيرة

في التاريخ المصري كعاصمة تحوي تلك الكنوز الهائلة لمعبد أمون، ليس من شك في أن ملوك الأثيوبيين كانوا قد نجحوا في أن يجعلوا السكينة والسلام يرفرفان على العاصمة طيبة، ويسجل التاريخ عليهم أنهم هربوا أمام زحف الآشوريين وأنهم أيضًا لم يحتملوا وجود وطنيين في الشمال يدافعون عن أوطانهم فخرجوا إليهم يعاقبونهم على قوميتهم هذه بحد السلاح، ولكن التاريخ يسجل أيضًا أنهم نجحوا في الهيمنة على زمام الأمور عن طريق تلك الوظيفة «الزوجة الإلهية لأمون» وما يتبعها من بلاط قوامه شخصيات عديدة، وعرفوا كيف يضمون إلى صفوفهم نخبة من كبار الموظفين الذين عاشوا حياتهم منطوين تحت لوائهم، ومن بين هؤلاء نعرف «منتو أم حيت» الذي قام بجهد واضح في تشييد الكثير من الأبنية الكبرى في طيبة وتعميرها وهو يذكر ذلك متفاخرًا في نصه الذي سجله لنا على جدران مقبرته، ولقد وصلت إلينا مجموعة كبيرة من تماثيله ويتميز البعض منها باتجاهه الواضح نحو «الواقعية» في تمثيل ملامح الوجه، مما يؤكد أن أسلوب نحت التماثيل في عصر الأسرة الخامسة والعشرين قد تميز بطابع فني خاص وحذا «منتو أم حيت» وكثير من رجالات مصر في عصر الأسرة الخامسة والعشرين حذو مصريي الدولة الحديثة وأقاموا لأنفسهم مقابر واسعة الأرجاء في جبانة طيبة على الشاطئ الغربي للنيل، وكان الجزء الذي يعلو سطح الأرض من هذه المقابر يشيد من اللبن ويحاط بأسوار عالية من اللبن أيضًا، ولا تزال أطلالها باقية، واستمر هذا الطراز المعماري طوال عصر الأسرة السادسة والعشرين.

٢- العصر الصائي (الأسرة السادسة والعشرون) (٦٦٣ إلى ٥٢٥ قبل الميلاد)

اعتمدت الأسرة السادسة والعشرون في حكمها على ولاء الدلتا لها وهذا هو الفارق بينها وبين الأسرة الخامسة والعشرين التي كانت تعتمد اعتمادًا واضحًا على إقليم طيبة والأقاليم الواقعة إلى الجنوب منها حتى بلاد النوبة الشمالية.

اشترك «نخاو» أمير «سايس» في معاونة الملك الأثيوبي «طهارقا» ضد الحكم الآشوري، وما لبث أن قبض عليه وأرسل إلى «نينوى» مكبلًا بالأغلال، حيث بقى فترة من الزمن استطاع فيها بذكائه وعلمه أن يفوز بتقدير وثقة الملك «آشور بني بعل» الذي أعاده إلى مصر وأرجع إليه حقوقه كأمير «لسايس» هذا الرجل الذي لا نعرف مدى قرابته من «تفنحت» أو «بوكوريس» أميري «سايس» وكان قد فاز بتقدير الملك «آشور أخي الدين» وأعطى الحق بتلقيب نفسه بألقاب الفراعنة وقع «نيخاو» قتيلًا في إحدى المعارك بين الآشوريين و«تانوت آمون» قتله الملك الأثيوبي، فأسرع ابنه «بسامتيك» بالهرب ملتجئًا إلى الآشوريين وكان «بسامتيك» يشتهر بعلمه وذكائه وقوة شكيمته وحين استقرت الأمور بعد القضاء على حكم الأثيوبيين لمصر، أرجع «الآشوريون»«بسامتيك» إلى وطنه وكافأه «أشور بني بعل» على ولائه وتعاونه بإضافة إقليم منف العظيم الأهمية إلى المنطقة التي يسيطر عليها في حين بقيت الدلتا مقسمة إلى إمارات صغيرة عديدة، واستطاع «بسامتيك» بسياسته اللبقة أن يتخلص من الآشوريين، الذين كان كل مصري يشعر في قرارة نفسه بكرههم، دون أن يسفك قطرة دم واحدة، ومن حسن التوفيق أن «آشور بني بعل» كان منهمكًا في حروب دامية مع شعوب أخرى بحيث لم

يستطع أن يوجه عنايته نحو مصر، وهكذا تحققت وحدة مصر على أيد مصرية صميمة وتمكن «بسامتيك الأول» من أن يبدأ أسرة جديدة، هي الأسرة السادسة والعشرون ويطلق عليها أيضًا «الأسرة الصائية» نسبة إلى «صا» (سايس) المدينة التي نشأ فيها «بسامتيك» ووضع فيها أسس الوحدة، ويقوم بعض الجدل العلمي حول اسم «بسامتيك» وتفسير معناه من الناحية اللغوية ولم ينته هذا الجدل بعد إلى رأي حاسم حول هذه الأسرة الجديدة وهل كانت مصرية صميمة أم ترجع في أصلها إلى العنصر الليبي؟ وجعل «بسامتيك» فترة حكمه تبدأ مباشرة بعد انتهاء حكم «طهارقة» ونحن على يقين أنها بدأت عام ٦٦٣ ق.م وانتهت عام ٦٠٩ ق.م

ونعتمد اعتمادًا كبيرًا في سردنا لأحداث العصر الصائي، على ما كتبه المؤرخ الإغريقي هيرودوت فقد أفرد جزءًا في وصف هذه الفترة، ونعتمد كذلك على الفقرات الكثيرة من العهد الريم التي تذكر بعض أحداث هذا العصر، أما النصوص المصرية المعاصرة فهي قليلة بين أيدينا.

زار هيرودوت مصر وتجول فيها حوالي عام ٤٤٥ ق.م ومعنى هذا أن المدة التي تفصل بينه وبين الأحداث التي وقعت في عصر الأسرة السادسة والعشرين هي من ٨٠ إلى ٢٢٠ سنة أو بمعنى آخر كان موقف هيرودوت هو بعينه موقفنا للأحداث التي وقعت حوالي عام ١٧٠٠ ميلادية ولا نستطيع أن نتعرف على الأسباب التي دعت هيرودوت إلى عدم ذكر بعض الحقائق التاريخية المهمة مع أنه كان يؤرخ لعصر لم يسبقه إلا بسنوات قليلة، فلم يذكر هيرودوت مثلًا الهزيمة التي أوقعها «بختنصر» بالملك «نيخاو» في معركة «قرقميش» ولعل السبب في ذلك هو أن هيرودوت كان يكتب للقارئ الإغريقي الذي لم يكن يهمه مطلقًا ما كان يجري في الشرق نفسه، ومن

أجمل هذا أيضًا نجد أن الطريقة التي تحدث بها هيرودوت عن ملوك هذا العصر تكاد تجعل منهم شخصيات إغريقية، ولنضرب لذلك مثلًا الملك «أمازيس» الذي صوره لنا هيرودوت رجلًا يدمن شرب النبيذ وجعل منه شخصية تختلف تمامًا عما تصوره لنا المصادر المصرية كفرعون لمصر، وكذلك يقص علينا هيرودوت الطريقة التي وصل بها بسامتيك إلى العرش وهي قصة تكاد تكون خيالية.

وتمكن «بسامتيك» في أثناء مدة نفيه عند الآشوريين من الاتفاق مع بعض زعماء الإغريق والكاريين ليجمعوا له فرقًا من المرتزقة حتى يساعدوه على تنفيذ أهدافه وهي إعادة الوحدة إلأى القطر المصري واستطاع بهذا أن يفرض سيادته على الكثيرين من أمراء الدلتا، وأسرع الآخرون ومن بينهم ذلك الرجل المحنك «منتو أم حيت» من طيبة في الانطواء تحت لوائه، ولم يتمهل بسامتيك في أن يجعل أملاك أمون في طيبة تنول إلى أسرته، بل اتبع لتنفيذ هذه السياسة نفس الطريقة القديمة فقد طلب إلى «الزوجة الإلهية» إذ ذاك واسمها «شبن – أوبت الثالثة» وهي أخت الملك طهارقا، أن تتبنى ابنته «نيتو كريس» وبذلك لم يبقى للأثيوبيين إلا الاعتراف بأن حدود دولتهم تنتهي عند شمال النوبة وأصبحت هذه الحدود هي جزيرة اليفانتين الحالية، وهي الحدود التي كانت تنتهي عندها الدولة المصرية مُنذ ٢٠٠٠ عام قبل ذلك أي في عصر الدولة القديمة، ودانت مصر كلها لعرض واحد مرة أخرى ووضع بسامتيك قيودًا جديدة للإدارة المصرية تمكن بواسطتها من الهيمنة على شئونها أما العاصمة القديمة طيبة التي لعبت دورها الهام في تاريخ البلاد فقد أهمل أمرها ويرجع ذلك إلى ما أصابها من أعمال التدمير والتخريب على أيدي الآشوريين، ولم يحدث أن قام ملوك الأسرة السادسة والعشرين بأي

عمل إنشائي جديد فيها، ولم يحاولوا ترميم معبد الكرنك أو توسيعه.

وانتقل في عصر الأسرة السادسة والعشرين مركز الثقل إلى الدلتا نفسها فتركزت السلطة في بعض مدنها مثل «سايس» و«بوطو» و«اتريبس» و«بوباستيس» في شرق الدلتا، أما منف فلم تلعب إلا دورًا ثانويًا هذه المدن السالفة الذكر كانت هي أكبر المدن وأكثرها ازدحامًا بالسكان وهي المدن التي أعجب بها هيرودوت أشد الإعجاب وأفرد صفحات كثيرة من كتابه لوصف حفلاتها الرائعة، ويذكر هيرودوت عن «سايس» أنها تحوي أبنية ملكية رائعة الجمال ونخصها بالذكر لأن أطلال هذه المدينة في وقتنا الحالي لا تومئ بذلك، ويذكر هيرودوت أيضًا أن الجبانة الملكية لفراعنة الأسرة السادسة والعشرين كانت بالقرب من مدينة «سايس» وليس من شك في أن آثار الدلتا قد ضاءت واختفت ومن بينها آثار هذه الأسرة التي لم توفق إلى العثور على معبد واحد لها أو على تمثال ملكي واحد عليه نقوش إلا أن الآثار القليلة التي ظهرت لنا في المناطق الأخرى وبخاصة التماثيل ورءوس التماثيل الملكية فهي تعطينا فكرة عابرة عما كان عليه الفن في عصر هذه الأسرة وعلى ذلك نستطيع القول بأن فن نحت التماثيل كان يتجه نحو إتقان صقل السطح الخارجي والعناية الفائقة بتقليد ملامح صاحب التمثال، كما أن الأسلوب الفني لصناعة التماثيل في هذه الفترة كان إحياء للأسلوب الذي انتشر في مصر في عصر الدولة القديمة، ولم يبق لنا من مقابر عظماء هذه الأسرة إلا ما شيد لهم في جبانة طيبة وفي الوادي الذي يقع أمام منطقة الدير البحري، وهي نفس المنطقة التي استخدمها عظماء الدولة في عصر الأسرة الخامسة والعشرين، ونخص بالذكر من بين هذه المقابر مقبرة «بادي أمنحوتب» التي تشبه بحجراتها الإحدى والعشرين قصرًا منيفًا، وتحلت

جدرانها لاداخلية بنقوش مختلفة حفرت بعناية فائقة، ولم يوجه أصحاب مقابر هذا العصر عناية ما للمناظر التي تمثل نشاطهم في حياة الدنيا.

بقى علينا أن نذكر في إيجاز ديانة العصر المتأخر وما جد عليها من مظاهر، ليس من شك في أن هذا العصر أخذ ببعض التجديدات الغريبة على الديانة المصرية وهي مظاهر استرعت أنظار هيرودوت وكل الأجانب الذين زاروا مصر في ذلك الوقت وأثرت فيهم ولا يخلو الأمر من أنها كانت تضطر البعض أن يخفى ابتسامة ترتسم على شفاههم.

ومن أهم ما يتميز به أهل العصر المتأخر أنهم غالوا كثيرًا في تقديسهم للحيوان، وأن تقديس المصريين للحيوان في العصور القديمة لم يدفعهم إلا إلى عبادة نموذج واحد من الحيوان المقدس ومثل ذلك أنهم لم يحتفظوا في منف إلا بثور واحد للإله أبيس.

ومُنذ مطلع القرن العاشر قبل الميلاد أصبح من عاداتهم أن يقدسوا مثلًا جميع القطط الموجودة في إقليم ما، ويقدسون في إقليم آخر كل الكلاب، وليس من شك في أن قيام شجار وخلاف في الرأي بين هذين الفريقين كان يعزى إلى اعتداء أحد الفريقين على أي حيوان من الحيوانات المقدسة عند الفريق الآخر، وكان بسبب هذا لدى الإغريق المستقرين في مصر والذين لم يأخذوا بمذهب عبادة الحيوان، نوعًا من التسلية والتفكه، وكان من أهم الحيوانات المقدسة التي لعبت دورًا هامًا في العصر المتأخر «الثور أبيس» الذي عبد في منف كصورة من صور الإله بتاح وترجع عبادة المصريين لهذا الثور إلى العصور الأولى من تاريخهم، وعثر «ماريت» عام ١٨٥١ على «السرابيوم» المقر الرسمي لدفن الثور «أبيس» في جبانة سقارة، والذي بدئ في استخدامه مُنذ عصر رمسيس الثاني وأصبحت جثث كل الثيران المقدسة

تودع في هذا المقر بعد تحنيطها، وكانت تدفن هناك أيضًا جثث الأبقار التي ولدت هذه الثيران.

واستمر استخدامه حتى أواخر العصر المتأخر ومُنذ عصر الملك «بسامتيك الأول» قام المصريون بتوسيع هذه الجبانة المنقورة في باطن الأرض حتى وصل طولها إلى ٣٥٠ متر ويرتفع سقفها إلى خمسة أمتار ونصف متر، وكانت جثة كل ثور توضح في تابوت حجري ضخم ويعلو سطح الأرض معبد كبير اختفت معالمه تمامًا الآن، وأقيم مقر آخر مشابه لهذا في أرمنت لدفن جثث الثور المقدس هناك، وتعددت جبانات الحيوانات المقدسة فنجد منها ما حوى قططًا أو كلابًا أو قردة أو الطائر أيبس أو غير ذلك.

مضت أيام بسامتيك الأول في سلام وخلفه ابنه «نيخاو» (وينطقه الإغريق «نيقوس» من عام ٦٠٩ إلى ٥٩٣ ق.م) وبدأ حكمه بحملة كبيرة وجهها نحو سورية وهدفه من ذلك هو أن يحقق الحلم الذي لم يختف من أذهان المصريين مُنذ عصر الدولة الحديثة وهو إقامة امبراطورية واسعة الأرجاء، ولعل من الأسباب التي هيأت له هذه الفرصة الموقف الدولي ذاته فقد تداعت أركان الدولة الآشورية بعد عام ٦١٢ ق.م وبعد أن نجح الحل بين الميديين والبابليين في احتلال العاصمة الآشورية نينوى.

وتوغل «نيخاو» نحو الشمال ولم تصادفه في أول الأمر أية عقبة وانتصر عام ٦٠٨ على الملك اليهودي «يوشيا» عند مجدو وهو نفس المكان الذي حدثت فيه تلك الموقعة الشهيرة في عصر تحوتمس الثالث، وسقط «يوشيا» قتيلًا في هذه المعركة واستطاع «نيخاو» من السيطرة على سورية بأكملها، إلا أن الأحداث بدأت تتغير وأخذ الخطر يتجمع ضد «نيخاو» وذلك حين وقعت الأقاليم الغربية التي كانت تابعة لدولة آشور (أي

سورية وفلسطين) من نصيب بابل عند تقسيم الغنائم، وتقابل «نيخاو» عام ٦٠٥ ق.م عند «قرقميش» الواقعة على نهر الفرات في شمال سورية مع عدوه اللدود «بختنصر» ابن الملك البابلي وانتهت المعركة بهزيمة منكرة للملك المصري ضاعت معها كل الانتصارات التي نالها وتقلصت سلطة المصريين في سورية بعد أن دامت فترة أربع سنوات، وبعد أن تبخرت آمال «نيخاو» في سورية حاول أن يوجه جهده نحو مشروعات أخرى، فبدأ على الفور في حفر قناة تصل بين النيل ووادي الطيلات عند البحر الأحمر وهي نفس القناة التي أتمها «داريوس» الملك الفارسي بعد قرن من الزمان، وهذا المشروع لا يقل أهمية عن المشروع المماثل في وقتنا الحالي الذي يصل بين البحر الأحمر والبحر المتوسط أي مشروع قناة السويس.

وخلفه الملك بسامتيك الثاني (ونطق اسمه الإغريق بساميس) الذي حكم فترة قصيرة من عام ٥٩٣ إلى عام ٥٨٨ ق.م وقام بمحاولة فاشلة لبسط النفوذ المصري على بلاد النوبة الشمالية وسجل أحداث هذه المحاولة بعض الجند المرتزقة من الإغريق في نص كتبوه على أحد تماثيل رمسيس الثاني المقامة أمام مدخل معبد أبو سنبل المنقور في الصخر، واستن هذا الملك سنة جديدة كان لها أكبر الأثر في مستقبل البلاد، فقد سمح لكثير من الإغريق أن يستقروا في مصر وأقطعهم مناطق واسعة استوطنوها، وإبان تلك الحركة الواسعة التي قام بها اليونيون في إقامة مستعمرات مختلفة أي حوالي ٥٩٠ ق.م قام أهل ملطيا (إحدى المدن الإغريقية غربي آسيا الصغرى) بتشييد مدينة نقراطيس في غرب الدلتا وعلى مقربة من العاصمة «سايس» وأخذت هذه المدينة مُنذ ظهورها تطبق النظم التي كانت تسود المدن الإغريقية، وعبدت في معابدها «افروديت» و«أبولو» وغيرهما من

الآلهة الإغريقية.. وازدهرت فيها صناعات مختلفة مثل صناعة الفخار اليوناني وصناعة الجعارين المصرية إلا أنها اتخذت طرازًا معينًا في الصناعة لم يتعد نقراطيس، وحمل التجار الإغريق هذه الجعارين وبعضًا من التماثيل الصغيرة التي تجمع في فنها بين المصري والإغريقي - إلى أنحاء البحر المتوسط وعلى الأخص إلى إيطاليا وجزيرة سردينيا، ومُنذ أن نمت هذه المدينة تقاطرت أفواج الإغريق على مصر وانتشرت فيها وكانوا دومًا يتجمعون في أماكن لا يسكنها غيرهم، واعتمد بسامتيك على فرق كاملة من الجند المرتزقة الإغريق وبذلك نشأت في مصر طبقة مهنية من المحاربين الإغريق تشابه تمامًا تلك الطبقة التي تحدثنا عنها فيما سبق والتي تكونت من المحاربين الليبيين ويبدو أن ملوك الأسرة السادسة والعشرين قد جمعوا من بين الجند المرتزقة فرقًا كثيرة تنتمي إلى شعوب متعددة ولم يكن في هذا الجيش الجرار فرقة واحدة من المصريين.

خلف بامستيك الثاني على عرش مصر الملك «أبريس» وقد ورد ذكره في العهد القديم باسم «حفرع» الذي حكم في الفترة بين ٥٨٨-٥٦٩ ق.م وتحالف مع الملك اليهودي ضد «بختنصر» البابلي ولعله كان يهدف من وراء هذا الحلف أن يحقق تلك المشروعات التي بدأها «نيخاو» من قبله كما أنه حاول السيطرة على بعض المدن الفينيقية مثل صيدا وصور ووقعت معركة بحرية بينه وبين أهل صور وحدث إبان هذه المعركة أن تقدم «بختنصر» نحو الجنوب واستولى على «أورشليم» عام ٥٨٦ ق.م ولم يستطع المصريون في هذه الحالة أن يقدموا أية معونة عسكرية لتخليص هذه المدينة من أيدي البابليين، ولقد بدأت في هذه الفترة الحركة الواسعة التي أخذ البابليون إبانها يجمعون أعدادًا ضخمة من الأسرى اليهود، ورجع «أبريس» بعد ذلك إلى

مصر بدون أن يحقق لنفسه نصرًا وبدون أن يتبعه البابليون بقصد جره إلى الحرب، وقام «أبريس» بعد ذلك بحملة ضد ليبيا منى فيها بهزيمة منكرة كان من نتائجها أن قامت ثورة جامحة بين رجال الجيش، وانتهت بتنازله عن العرش وخلفه القائد «امازيس» الذي نادى به الجيش ملكًا على مصر، ولم تصر إلينا من آثاره إلا بعض الجدران التي كان يتكون منها قصره في منف القديمة.

ويمكننا أن نسمى «امازيس» باسم «أحمس الثاني» حتى نفرق بينه وبين صاحب هذا الاسم الذي أسس الأسرة الثامنة عشرة، وتمتع بحكم طويل رفرفت فيه أجنحة السلام على مصر، وتزوج من إحدى بنات «بسامتيك الثاني» حتى تتوافر لديه الشروط التي تجعله ملكًا شرعيًا على البلاد، ودام حكمه من عام ٥٦٩ إلى ٥٢٥ ق.م وتحدث عنه هيرودوت مميزًا إياه بصداقته الشديدة للإغريق وسرد في شيء من التعصب العلاقات الحسنة التي كانت تجمع بينه وبين «يوليكراتس» ملك ساموس كما تحدث هيرودوت على الأبنية الكبيرة التي شيدها هذا الملك في عاصمته سايس وخرج «بختنصر» على رأس حملة كبيرة عازمًا على أن يغزو مصر إلا أن الظروف منعته من مهاجمتها، وكان ملوك فارس يهددون باستمرار كل مناطق آسيا الغربية وبخاصة بعد أن استولى الملك الفارسي «كيروش» على دولة الليديين في آسيا الصغرى وغزا غزوته المعروفة عام ٥٣٨ ق.م نحو بابل والتي انتهت باستيلائه عليها ونرى أمازيس وقد فقد الأمل في القيام بأية حركة لإعادة الاستيلاء على فلسطين أو سورية، ولهذا الملك فضل كبير، وكان له أكبر الأثر في مساعدة البطالمة فيما بعد، وذلك أنه وضع النواة الأولى للأسطول المصري في البحر المتوسط، واستطاع به أن يجعل من جزيرة قبرص إقليمًا يخضع للسيادة المصرية.

خلف بسامتيك الثالث (وينطق الإغريق «بسامينيتوس») أباه «أمازيس» وكانت مدة حكمه قصيرة لا تتعدى ستة أشهر، ويرجع ذلك إلى الحملة القوية التي جهزها الملك الفارسي «قمبيز» بن «كيروش» وخليفته ضد «أمازيس» ووصل بجيش جرار إلى «الفرما» على الحدود المصرية والتقى عام ٥٢٥ ق.م بالجيش المصري تحت قيادة «بسامتيك الثالث» وأوقع به زيمة منكرة ثم تابع الجيش سيره إلى منف ودخلها منتصرًا أما بسامتيك فقد وقد في الأسر وعومل في أول الأمر معاملة حسنة إلا أنه قتل بعد أن ظهر مشتركًا في مؤامرة ضد حكم الفرس، ونعتبر موقعة «الفرما» بمثابة الخاتمة لذلك العصر الطويل من التاريخ المصري الذي يتميز باستقلال المصريين استقلالًا تامًا وننهي بهذا حديثنا عن تاريخ مصر الفرعونية.

٣- العصر الفارسي (الأسرات من السابعة والعشرين إلى الثلاثين) (٥٢٥ إلى ٣٣٣ ق.م)

«إسكندر الأكبر وتأسيس مدينة الإسكندرية»

اعتبر «مانيتون» الأسرة السابعة والعشرين مكونة من ملوك الفرس الذين اتصلوا بمصر، فبعد أن استقر الحكم الفارسي في البلاد قام «قمبيز» ببعض الأعمال العدائية التي جعلته مكروهًا من الشعب، لقد سفه الديانة المصرية بل اعتدى على «أبيس» الثور المقدس وقتله بنفسه، وتحدث هيرودوت عن هذه الأعمال ووصفها بأنها كانت من عمل الشيطان، وقطع الجزء الأكبر من إيرادات المعابد عنها، ولم يستثن من هذا الأمر سوى ثلاثة معابد سمح لها بأن تبقى على إيراداتها المعتادة دون تخفيض، ونحن نعرف أن «قمبيز» أمر في أثناء إقامته بالعاصمة «سايس» بعمل تحقيق شامل عن الأسباب التي جعلت مدرسة الطب الملحقة بمعبد «نايت» فيها تواجه عقبات جمة كادت

تمنعها عن أداء رسالتها، وفي آخر الأمر سمح لهذا المعبد أن يحصل على إيراداته القديمة دون أن يشملها التخفيض، وهذا الحادث سجل مفصلًا على تمثال رجل اسمه «أودجاحور» كان قد اصطحبه الملك «داريوس» الفارسي معه إلى بلاد «عيلام» ولم يلبث أن أرسله مرة أخرى إلى «سايس» ليعيد تنظيم مدرسة الطب السالفة الذكر والملحقة بمعبد «نايت» والتمثال الذي نقش على جوانبه هذا النص الطويل محفوظ الآن بمتحف الفاتيكان.

كان «قمبيز» قد قرر مهاجمة دولة «نباتا» محاولًا ضمها إلى امبراطوريته ولكن الفشل كان من نصيب هذه الحملة ومنى جيشه بخسائر فادحة.

لم يترك قمبيز مصر راجعًا إلى بلاده إلا بعد أن جعل منها ولاية فارسية، ويبدو أن الملوك الذين خلفوه لم يعنوا كثيرًا بأمرها إذ أن الملك الفارسي الوحيد الذي زار مصر بعد قمبيز كان «داريوس الأول» وقد وصل إليها في السنوات الأولى من حكمه الذي بدأ عام ٥٢١ وانتهى عام ٤٨٥ ق.م وسارع هذا الرجل الحكيم بعد وصوله إلى مصر في تخفيف القيود الصارمة التي كان قد فرضها قمبيز على البلاد وبدأت فترة رخاء للمصريين وأتم «داريوس» القناة التي بدأ الحفر فيها «نيخاو» والتي كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر وهكذا اتصلت مصر بحرًا بالخليج الفارسي إلا أن هذه القناة لم تستخدم طويلًا، وشيد «داريوس» أيضًا بعضًا من المعابد المصرية وقام بترميم البعض الآخر، ومن أهم المعابد التي شيدها معبد إقامة في واحة «الخارجية» للإله أمون وتذكر بهذه المناسبة المجموعة من الأوراق البردية المكتوبة باللغة الآرامية والتي عثر عليها في جزيرة اليفانتين وهذه البرديات ترجع في عصرها إلى هذه الفترة وتتميز بأهميتها الكبرى من الناحية اللغوية

والدينية، إذ أنها تتحدث عن بعض العلاقتا التي قامت بين بعض الجند المرابطين هناك وبين يهود استقروا في الجزيرة وذلك لإقامة معبد يهودي وقد دمر هذا المعبد عام ٤١٠ ق.م في أثناء الثورة التي قام بها المصريون ضد الفرس.

لم تصل إلى أيدينا إلا القليل من الآثار المؤرخة من عصر الفرس والسبب في ذلك يرجع ولا شك إلى أن هؤلاء الغزاة بقوا منطوين على أنفسهم دون أن يختلطوا بالشعب تمام الاختلاط وعلى كل حال فقد وردت أسماء «داريوس» و«اكسركسيس» وبعض من الملوك الآخرين مكتوبة باللغة الهيروغليفية وكذلك بالخط «الاسفينى» (المسماري)

وعثر في سقارة على لوحة حجرية غير منقوشة أقامها أحد عظماء العصر الفارسي، وهي محفوظة بمتحف برلين، وهذه اللوحة تتميز بأنها بعيدة في أسلوبها عن الفن المصري ونعتبرها إحدى القطع الأثرية المتأثرة بالفن البابلي الفارسي.

وقام المصريون أكثر من مرة مُنذ عصر الملك «اكسركسيس» بثورات ضد الحكم الفارسي ولعل أشد هذه الثورات وأقساها على الفرس ثورة أحد الأمراء النيبيين «ايناروس» المستقر في غرب الدلتا، حوالي عام ٤٦٠ ق.م استطاع هذا الرجل أن يدخل نفسه في خصم السياسة العليا فاشترك في الحرب التي كانت قد بدأت بين الإغريق والفرس، ورحبت أثينا بمعاونة الثوار المصريين وقدمت لهم أسطولًا بحريًا إلا أن هذه المعاونة انتهت بخسارة فادحة بالنسبة للآثينيين.

وفي آخر الأمر بدأت الأحوال تسوء بالنسبة للفرس في مصر ومُنذ القرن الرابع قبل الميلاد أخذت بعض الأسرات الحاكمة تظهر معلنة ثورتها ضد المستعمر وهذه الأسرات هي التي وردت عند مانيتون كالأسرات من الثامنة والعشرين إلى الثلاثين، وتتكون الأسرة الثامنة والعشرون من ملك واحد هو «أمر تايوس» من مدينة «سايس» وهذا الاسم الذي يبدو إغريقيًا ليس إلا الاسم المصري الذي يعني «آمون هو الذي أعطاه» ولم نسمع عن هذا الملك إلا من كتاب «مانيتون» ولم تذكره النصوص المعاصرة اللهم إلا وثيقة ذكرت العام الخامس من حكمه، كما أن هناك من تسمى باسمه ولعله من أجداده عاش في عصر «أيناروس» السالف الذكر وكان قد اشترك معه في الثورة وتعتبر مدة حكمه هي الفترة فيما بين عام ٤٠٤ وعام ٣٩٩ ق.م.

أما الأسرة التاسعة والعشرون فقد نشأت بحسب «مانيتون» في مدينة «منديس» في شرق الدلتا واستمرت فترة حكمها فيما بين سنة ٣٩٨ ق.م وسنة ٣٧٩ ق.م.

وأسماء ملوكها «نفريتس الأول» ثم «أخوريس» (ويسمى أيضًا هيكوريش) ثم «بساموتيس» و «نفريتس الثاني» ويبدو أن الوحيد بينهم الذي فاز ببعض الأهمية هو «أخوريس» لأنه استطاع أنه يواجه الهجمات الفارسية بل وصدها بنجاح وورد اسمه على بعض الآثار وفي بعض النقوش التي كتبت على المعابد، وليس من شك في أن الثورات المتعددة هي التي سببت سقوط هذه الأسرة بعد فترة وجيزة.

وينهي مانيتون التاريخ المصري بالأسرة الثلاثين، وهي الأسرة التي كانت بمثابة الشعاع الذي لمع في سماء مصر لآخر مرة يضئ العظمة التي وضع أسسها ملوك الدولة الحديثة نشأت هذه الأسرة في «سمنود» في وسط

الدلتا، ولم يذكر التاريخ غير ثلاثة من ملوكها، ينطق الإغريق الأول والثالث منهم «نقطانب» وسبب هذا الاختلاط الأمر على المشتغلين بالآثار المصرية، وعلى كل حال فإن «نقطانب الأول» يعني «نخت نب أف»؛ أي «سيده منتصر» أما «نقطانب الثاني» يعني «نخت حور احبت»؛ أي «المنتصر هو حوريس احبت» (واحبت هو أحد مراكز عبادة الآلهة «ازيس» واشتهرت بمعبدها المعروف باسم «ايزيوم» وتقع هذه المدينة بجوار سمنود)

وحكم نقطانب الأول من عام ٣٧٨ إلى ٣٦١ ق.م والثالث من ٣٥٨ إلى ٣٤١ ق.م وفيما بينهما أتى الملك «ثاغوس» بن نقطانب الأول وحكم لفترة قصيرة لم تتعد السنتين من ٣٦٠ إلى ٣٥٩ ق.م

تعتبر الفترة القصيرة التي لم تكد تبلغ الأربعين عامًا والتي حكمتها هذه الأسرة بمثابة المحاولة الأخيرة لإعادة مجد الفراعنة التليد إلى البلاد، وبدأ الملوك حركة واسعة من الإنشاءات في طول البلاد وعرضها ويدل هذا على أنهم سيطروا على كل أرجائها كما كان حال أسلافهم، ولنذكر من بين هذه الإنشاءات المعبد الكبير الذي شيد على جزيرة «أنس الوجود» وهي الجزيرة التي نالت شهرة كبيرة في عصر حكم الرومان، والبوابة الضخمة العالية التي أقيمت عند النهاية الشرقية لمعبد آمون بالكرنك، ثم البوابة المشابهة التي شيدت أمام معبد «مونتو» بالكرنك أما «نقطانب» الثاني فقد شيد معبدًا ضخمًا في موطن نشأته للآلهة ازيس، لا زلنا حتى الآن نعجب من ضخامة أطلاله.

أما فنون هذا العصر فقد أخذ فن النحت بالأساليب التي كانت منتشرة في عصر الدولة الوسطى وبخاصة في عصر الدولة الحديثة ومعنى هذا أن فن النحت كان يختلف تمامًا في هذا العصر عما كان عليه في عصر الأسرة

السادسة والعشرين، ومن الطريف أن نعلم أن الملك «نقطانب» الأول أطلق على نفسه اسمًا للعرش هو نفس الاسم الذي أطلق على «سنوسرت الأول» من ملوك الأسرة الثانية عشرة وهو «خبر كارع» وإن دل هذا على شيء فهو لا شك يدل على النزعة التي سيطرت على ملوك هذه الفترة وجعلتهم يرنون إلى إرجاع مجدهم القديم، بل أكثر من هذا فإن كثيرًا من التماثيل كتب عليها اسم «خبر كارع» ويتعذر علينا لأول وهلة أن نرجعها إلى أي الأسرتين الثانية عشرة أو الثلاثين، ومن الأمثلة التي نضربها للتدليل على مدى تأثير فن النحت في الأسرة الثانية عشرة على فن النحت في الأسرة الثلاثين التمثالان المحفوظان في متحف الفاتيكان للملك نقطانب الأول والتمثالان الآخران المحفوظان في المتحف البريطاني للملك أمنوفيس الثالث فهذه أربعة تماثيل تمثل أربعة أسود رابضة تكاد تنطبق بتشابه عجيب في أسلوب نحتها، وعلى هذا الأساس يحق لنا أن نرجع القطعة الرائعة من فن النحت والتي تمثل كاهنًا حليق الرأس والمحفوظة بمتحف برلين وكذلك القطع الأخرى المشابهة لها والمحفوظة في متاحف مختلفة إلى الأسرة الثلاثين لا إلى عصر سابق.

وكذلك نرجع النقش المحفوظ بمتحف الإسكندرية والذي يمثل مسنًا يعزف على القيثارة ومعه عازفات في زي إغريقي إلى عصر الأسرة الثلاثين لأسباب تختص بأسلوب الفن، وأنه من الخطأ أن نذهب إلى أنه من العصر المتأخر كما ذهب إليه بعض العلماء من قبل. فلدينا من كل هذا ولا شك أكثر من دليل على عظمة الفن وجماله في عصر هذه الأسرة التي تمثل لنا آخر الفترات للمجد المصري المتداعي.

ولم تصل إلينا إلا بعض المعلومات القليلة عن الأحداث التاريخية التي وقعت إبان هذه الفترة ويقول «ديودور» الصقلي أن الملك «تاخوس» حاول القيام بهجوم عنيف ضد الإمبراطورية الفارسية بقصد استعادة فلسطين وسورية، وساعده على القيام بحملته هذه أن انضم إليه الملك الاسبرطي «أجزيلاؤس» ولكن في الوقت الذي سارت فيه الأمور على أحسن ما يرام ونجحت الحملة في طريقها إلى فينيقية قام أخوه بثورة ضده في مصر وضمن العرش لابنه «نقطانب الثاني» وما كادت أخبار نجاح هذه الثورة تصل إلى «تاخوس» حتى هرب إلى ملك الفرس الذي كان قد خرج لمحاربته، وسارع «أجزيلاؤس» نحو مصر ينضم إلى قائد الثورة فيها واستطاع «نقطانب الثاني» في أول الأمر أن يدافع عن استقلاله أمام الفرس إلا أنه وقع فريسة حركة قوية وجهها إليه «اكسركسيس الثالث» وانتهت بهزيمة منكرة للملك المصري وأصبحت مصر للمرة الثانية ولاية فارسية ولو أن ذلك لم يستمر سوى عشر سنوات فقط إذ كان إسكندر الأكبر قد فاز فوزًا عظيمًا في حملته على آسيا الغربية وقوض أركان الدولة الفارسية واستطاع عام ٣٣٢ دخول مصر بدون حرب.

وكان من أهم ما قام به الإسكندر إنشاء مدينة الإسكندرية عام ٣٣١ ق.م والتي ازدهرت بسرعة وأصبحت بعد فترة وجيزة أهم ميناء تجاري في منطقة شرق البحر المتوسط، وقام الإسكندر عام ٣٣٢ برحلة إلى واحة سيوة لزيارة معبد أمون فيها وهو المعبد الذي اشتهر بالوحي في التنبؤ بالمستقبل، ومن هنا نشأت تلك الصور التي تمثل الإسكندر بقرنين ملتويين إلى الداخل وهما لآمون وهذه الصور كثر ظهورها محفورة على قطع النقود من العصر الإغريقي وتقول المصادر المعاصرة بأن كبار كهنة أمون في هذا المعبد حيوا

الإسكندر على أنه ابن الإله أمون، ومن الطريق أن نعلم بأن هذا المعبد لم ينشأ إلا في عصر الملك الأثيوبي طهارقا من الأسرة الخامسة والعشرين؛ أي أنه بني في عصر متأخر ويؤكد هيرودوت أن سكان واحة سيوه الذين سموا باسم أتباع أمون يمتون بصلة الجنس إلى الإثيوبيين وتؤكد بعض المصادر أن جثة هذا الرجل العظيم الذي ساد العالم والذي مات في سن مبكرة في بابل (عام ٣٢٣ ق.م) قد نقلت إلى الإسكندرية ودفنت فيها، إلا أن مقبرة الإسكندر الأكبر الموجودة في الإسكندرية لم يكشف عنها بعد مع كثرة المحاولات التي قام بها الأثريون للعثور عليها.

وبعد موت الإسكندر قام بطلميوس المقدوني أحد قواده بإدارة شئون مصر كإحدى الولايات التابعة للإمبراطورية المقدونية وذلك باسم وريث الإسكندر أي فيلبس أريدايوس الذي ورد اسمه منقوشًا على قدس الأقداس الخاصة بمعبد أمون في الكرنك ثم حكم مصر باسم إسكندر الثاني، وأعلن نفسه بعد موتهما ملكًا على مصر، ودام حكمه من سنة ٣٠٤ ق.م إلى سنة ٢٨٤ ق.م وقدس بعد موته كإله وأقيمت له عبادة خاصة ولقب بلقب «سوتير» أي المنقذ، ويعتبر منشئ أسرة البطالمة في مصر التي دام حكمها ما يقرب من ثلاثة قرون أي إلى عام ٣٠ ق.م ومن المعروف عن هذه الأسرة أنها أقامت أسس حكمها على الأساليب الإغريقية البحتة بحيث أن علماء الآثار المتخصصين في الدراسات المصرية يعتبرون بدء هذه الأسرة نهاية لفترة تخصصهم ويصبح التحدث عن تاريخ هذه الأسرة من الدراسات التي يقوم بها علماء العصرين اليوناني والروماني، وليس من شك في أن دخول الحضارة اليونانية ومن بعدها الحضارة الرومانية قد قضى مبرمًا على الحضارة المصرية في كل مظاهرها سواء في الفن أو في الدين أو في اللغة وأخذت هذه الموجة

تبدو واضحة ابتداء من أوائل القرن الأول الميلادي بحيث لم يبق من القديم سوى بعض المظاهر السطحية.

عصور التاريخ المصري

عصر ما قبل التاريخ قبل عام ٢٨٥٠ ق.م

الدولة القديمة وتشمل الأسرات من الأولى إلى الثامنة من ٢٨٥٠ إلى ٢٠٥٢ ق.م

العصر الباكر ويشمل الأسرتين الأولى والثانية الملك مينا ٢٨٥٠ إلى ٢٦٥٠ ق.م
حوالي ٢٨٥٠ ق.م

عصر بُناة الأهرام ويشمل الأسرات من الثالثة إلى الثامنة ٢٦٥٠ إلى ٢١٩٠ ق.م

الأسرة الثالثة وأهم ملوكها "زوسر" وغيره ٢٦٥٠ إلى ٢٦٠٠ ق.م

الأسرة الرابعة وأهم ملوكها خوفو وخفرع ومنكاورع ٢٦٠٠ إلى ٢٤٨٠ ق.م
وغيرهم وهم الذين شيدوا أهرام الجيزة

الأسرة الخامسة وأهم ملوكها: ساحورع ونبي اوسر رع ٢٤٨٠ إلى ٢٣٥٠ ق.م
وأوناس وغيرهم

الأسرة السادسة وأهم ملوكها: تيتي وببي الأول وببي ٢٣٥٠ إلى ٢١٩٠ ق.م
الثاني وغيرهم

عصر الاضمحلال الأول

ويشمل الأسرتين التاسعة والعاشرة ٢١٩٠ إلى ٢٠٥٢ ق.م
ويسمى عصر ملوك اهناسيا

الدولة الوُسطى وتشمل الأسرات الحادية عشرة والثانية ٢٠٥٢ إلى ١٧٧٨ ق.م
عشرة

الأسرة الحادية عشرة وأهم ملوكها منتوحتب ٢٠٥٢ إلى ١٩٩١ ق.م

الأسرة الثانية عشرة وأهم ملوكها: أمنمحيت الأول ١٩٩١ إلى ١٩٧٢ ق.م

سنوسرت الأول ١٩٧٢ إلى ١٩٣٠ ق.م

أمنمحيت الثاني ١٩٢٩ إلى ١٨٩٨ ق.م

سنوسرت الثاني ١٨٩٧ إلى ١٨٧٩ ق.م

سنوسرت الثالث ١٨٧٨ إلى ١٨٤١ ق.م

أمنمحيت الثالث ١٨٤٠ إلى ١٧٩٢ ق.م

عصر الاضمحلال الثاني ويشمل الأسرات من الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة ١٧٧٨ إلى ١٦١٠ ق.م

عصر الهكسوس ويشمل الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ١٦٧٠ إلى ١٥٧٠ ق.م

الدولة الحديثة

وتشمل الأسرات من السابعة عشرة إلى الرابعة والعشرين

١٦١٠ إلى ٧١٥ ق.م

الأسرة السابعة عشرة ١٦١٠ إلى ١٥٧٠ ق.م

الأسرة الثامنة عشر ١٥٧٠ إلى ١٣٤٥ ق.م

وأهم ملوكهم:

أمازيس ١٥٧٠ إلى ١٥٤٥ ق.م

أمنوفيس الأول ١٥٤٥ إلى ١٥٢٤ ق.م

تحوتمس الأول والثاني ١٥٢٤ إلى ١٥٠٢ ق.م

حتشبسوت ١٥٠١ إلى ١٤٨٠ ق.م

تحوتمس الثالث ١٥٠٢ إلى ١٤٤٨ ق.م

موقعة مجدو ١٤٨٠ ق.م

أمنوفيس الثاني ١٤٤٨ إلى ١٤٢٢ ق.م

تحوتمس الرابع ١٤٢٢ إلى ١٤١٣ ق.م

أمنوفيس الثالث ١٤١٣ إلى ١٣٧٧ ق.م

أمنوفيس الرابع (أخناتون) ١٣٧٧ إلى ١٣٥٨ ق.م

توت عنخ آمون	١٣٥٨ إلى ١٣٤٩ ق.م
آي	١٣٤٩ إلى ١٣٤٥ ق.م
الأسرة التاسعة عشرة	١٣٤٥ إلى ١٢٠٠ ق.م
حور محب	١٣٤٥ إلى ١٣١٨ ق.م
رمسيس الأول	١٣١٨ إلى ١٣١٧ ق.م
سيتي الأول	١٣١٧ إلى ١٣٠١ ق.م
رمسيس الثاني	١٣٠١ إلى ١٢٣٤ ق.م
موقعة قادش	١٢٦٦ ق.م
مر نبتاح	١٢٣٤ إلى ١٢٢٠ ق.م
سيتي الثاني والاضطرابات في أواخر الأسرة التاسعة عشرة	١٢٢٠ إلى ١٢٠٠ ق.م
الأسرة العشرون	
ست نخت	١٢٠٠ إلى ١١٩٧ ق.م
رمسيس الثالث	١١٩٧ إلى ١١٦٥ ق.م
رمسيس الرابع إلى رمسيس الحادي عشر	١١٦٥ إلى ١٠٨٥ ق.م
الأسرة الحادية والعشرون	
(انقسام مصر إلى منطقتين في طيبة ونانيس)	١٠٨٥ إلى ٩٥٠ ق.م
الأسرتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون	
عصر ملوك الليبيين وأهمهم:	
شبشنق الأول	٩٥٠ إلى ٧٢٠ ق.م
الأسرة الرابعة والعشرون	
الملك بوكوريس من سايس	٧٢٠ إلى ٧١٥ ق.م
العصر المتأخر	٧١٥ إلى ٣٣٢ ق.م
الدولة النوبية التي أسسها كاشتا وكانت عاصمتها نباتا	٧٥٠ ق.م

حملة بمنخي إلى مصر ٧٢٥ ق.م

ملوك الدولة النوبية وأهمهم

الأسرة الخامسة والعشرون شاباكا وطهارقا ٧١٥ إلى ٦٦٣ ق.م

الأسرة السادسة والعشرون (العصر الصائي)

أهم الملوك: بسامتيك الأول والثاني والثالث ونخاو ٦٦٣ إلى ٥٢٥ ق.م

وابريس وأمازيس

موقعة بيلو زيوم وغزو قمبيز لمصر ٥٢٥ ق.م

الأسرة السابعة والعشرون

عصر الفرس وخاصة دا را الأول ٥٢٥ إلى ٣٣٢ ق.م

الأسرة الثامنة والعشرون

أمر تايوس من سايس ٤٠٤ إلى ٣٩٩ ق.م

الأسرة التاسعة والعشرون ملوك منديس ٣٩٨ إلى ٣٧٩ ق.م

الأسرة الثلاثون نقطانب الأول ٣٧٨ إلى ٣٤١ ق.م

دخول اسكندر الأكبر ارض مصر وتأسيس ٣٣٢ ق.م

الإسكندرية

المراجع

المقدمة

١) Meyer, Eduard: Geschichte des Altertums, Bd. I, II, ١, II, III.

٢) Junker, Hermann: Die Aegypter in: Die Voelker des antiken Orients, Geschichte der fuehrenden Voelker, Bd. ٣, Freiburg ١٩٣٣.

٣) Breasted, J. H.: History of Egypt.

٤) Erman, A. - Ranke, H.: Aegypten und aegyptisches Leben im Altertum, Tuebingen ١٩٢٣.

٥) Kees, H.: Aegypten (Kulturgeschichte des Alten Orients), Muenchen ١٩٣٣.

٦) Schaefer, H.: Die Kunst des Alten Orients, Propylaenkunstgeschichte Bd. ٢, ٣. Aufl.

٧) Schaefer, H.: Von aegyptischer Kunst, Leipzig ١٩٣٠.

الفصل الأول: فجر التاريخ

١) مصر – أرضها وشعبها

١) Passarge, S.: Die Urlandschaft Aegyptens und die Lokalisierung der Wiege der altaegyptischen Kultur, N.A. Leopoldina, N.F. Bd. ٩. Nr ٥٨, Halle ١٩٤٠.

٢) Steindorff, G.; Die aegyptischen Gaue und ihre politische Entwick lung, Abh. Saechs. Akad. d. Wiss. Bd. ٢٧, Nr. ٢٥, Leipzig ١٩٠٩.

٢- العصران "الحجري القديم" و"الحجري الحديث" في مصر

١) Scharff, A.: Altertuemer der Vor- und Fruehzeit, Bd. ١. S. ١ ff. Berlin ١٩٣١.

٣- عصور ما قبل التاريخ

أ- (مصر السفلى – حضارة مرمدة)

١) Scharff, A.: Historische Zeitschrift ١٦١, ١٣ (mit Anm ١ - ٣).

٢) Childe, G.: New Light on the Most Ancient East, London ١٩٣٤.

٣) Junker, H.: Merimde, Vorberichte im Anz, der Wiener Akad. der Wiss ab ١٩٢٩.

٤) Scharff, A.: Grab als Wohnhaus, SBAW, Muenchen ١٩٤٤/٦.

٥) Debono, : Helwan, Chronique d'Egypte No. ٤١, ٥٠ ff.

٦) Caton Thompson-Gardner : The Desert Fayum, ٢ vols., London ١٩٣٤.

ب- مصر العليا (حضارتا البداري ونقادة الأولى)

١) Brunton - Caton Thompson: The Badarian Civilization, London ١٩٢٨.

لقد عثر "برنتون" في حقل تنقيباته بالبداري على مجموعة من المقابر

تحوي أدوات بدائية الصنع ويبدو واضحًا أنها تسبق في عصرها عهد البدارى ومن أجل ذلك أطلق عليها اسم "حضارة تاسا" ولكنني أعتقد أن الظروف المحيطة بهذا الكشف تجعلنا نضرب صفحا عن ذكرها وعن تعبين عصرها.

قارن ما ورد في كتاب

١) Brunton, Mostagedda and the Tasian Culture, London ١٩٣٧.

٢) Passarge, S.: Die Urlandschaft Aegypteng und die Lokalisierung der :Wiege der altaegyptischen Kultur, N.A. Leopoldina, N.F. Bd. ٩, Nr. ٥٨, Halle ١٩٤٠.

٣) Ricke, H.: Bemerkungen zur aegyptischen Baukunst, Br. I. Zuerich ١٩٤٤.

٤) Frobenius, : Ekade Ektab, die Felsbilder Fezzans, Leipzig ١٩٣٧, Laf. ٣٦-٤٦.

٥) Winkler, H. A.: Rock Drawings of Southern Upper Egypt (including Uwenat), vol. II, London ١٩٣٩.

٦) Scharff, A.: Altertuemer der Vor- und Fruehzeit Aegyptens, Bd. I. Berlin ١٩٣١.

٧) Scharff, A.: Die Fruehkulturen Aegyptens und Mesopotamiens (Der Alte Orient, Bd. ٤١), Leipzig ١٩٤١.

٨) Baumgaertel, E.: The Cultures of Prehistoric Egypt, Oxford ١٩٤٧.

ج- "حضارة نقادة الثانية"

١) Gardiner, A. H.: Egyptian Grammar, Oxford ١٩٢٧.

٢) Zyhlarz, E.; Ursprung und Sprachcharakter des Altaegyptischen, Zf. fuer Eingeborenensprachen Bd. ٢٣.

٣) Scharff, A.: Archaeologische Beitraege zur Frage der Entstehung der Hieroglyphenschrift SBAW, Muenchen ١٩٤٢.

٤) Menghin-Mustafa Amer : Excavatians of the Egyotian University in the Neolithic Site at Maadi, Cairo ١٩٣٢, ١٩٣٦.

٥) Menghin, : Maadi, Mitt. des Deutschen Instituts zu Kairo, Bd. ٥, ١٩٣٤.

٦) Petrie, F.: Prehistoric Egypt Corpus, London ١٩٢١.

٧) Engberg - Shipton: Notes on the Chalcolithic and early Bronze Age Pottery of Megiddo, Studies in Ancient Orient Civilisations, no. ١٠. Chicago ١٩٣٤.

٨) Scharff, A.: Altertuemer der Vor- und Fruehzeit Aegyptens, Bd. I, ... S. ٢٤ ff, Berlin ١٩٣١.

٩) Kantor,: The Final Phase of Predynastic Culture Gerzean or Semai nean? JNEST ٣, ١١٠ ff.

د. أقدم الصور التي تخيلها المصريون عن آلهتهم

١) Frobenius,: Ekade Ektab; Leipzig ١٩٣٧....

٢) Ayrton-Loat,: Predynastic Cemeteries at El-

Mahasna; London ١٩١١.
٣) Weill,: Sphinx ١٥, ١٢.
٤) Scharff, A.; Die Ausbreitung des Osiriskultes in der Fruehzeit und waehrend des Alten Reiches; SBAW, Muenchen ١٩٤٧.
٥) Junker, H.: Die Goetterlehre von Memphis, SBAW, Berlin ١٩٤٠.
٦) Sethe, K.: Urgeschichte und aelteste Religion der Aegypter, Leipzig ١٩٣٠.
٧) Gardiner,: Journal of Egyptian Archeology ٣٠, London ١٩٤٤.
٨) Schott,: Das mythische Reich von Heliopolis; (Bericht ueber den VI. Internationalen Kongress fuer Archaeologie), Berlin ١٩٣٩, D. ٢٦٦ ff.

٥- فترة الانتقال إلى العصر التاريخي (مملكتا عباد حوريس)

١) Sethe, K.: Beitraege zur aeltesten Geschichte Aegyptens; Unter suchungen Bd. ٣, Leipzig ١٩٠٥.
٢) Kees, H.: Goetterglaube, Leipzig ١٩٤١.
٣) Breasted, J. H.: The Predynastic Union of Egypt; Bull. Inst. Franç. I ٣٠.
٤) Mueller, Hugo: Die formale Entwicklung de: Titulatur der aegyptischen Koenige; Aegyptische Forschungen, Heft ٧, Glueckstadt ١٩٣٨.

الفصل الثاني: التحديد الزمني للتاريخ المصري

١ - كتاب التاريخ لمانيتون

١) Meyer, Ed.: Geschichte des Altertums, Bd. I, ٢, ١٥١ (٣. Auflage).

٢) Ranke, H.: Vom Geschichtsbilde der alten Aegypter; Chronique d'E gypte No. ١٢, Bruessel ١٩٣١.

٢ - قوائم بأسماء الملوك الفراعنة

١) Farina, G.: Il Papiro dei Ré restaurato, Rom ١٩٣٨.

٢) Meyer, E.: Chronologie, Berlin ١٩٠٤.

٣) Schaefer, H.: Ein Bruchstueck altaegyptischer Annalen; Abh. Ak, der Wiss. Berlin ١٩٠٢.

٤) Sethe, K.: Untersuchungen, Bd. ٣, Leipzig ١٩٠٥.

٥) Borchardt, L.: Die Annalen und die zeitliche Festlegung des Alten Reiches, Berlin ١٩١٧.

٦) Gauthier,: Le Livre des Rois, Le Caire ١٩٠٧.

٣- التقويم المصري

٣) Meyer, E.: Aegyptische Chronologie, Berlin ١٩٠٤.

٤) Sethe, K.: Die Zeitrechnung der alten Aegypter, SBAW, Goettingen ١٩١٩ (٣ Hefte).

٥) Neugebauer,: Acta Orientalia XVII, ١٦٩ ff.

٤- أهمية النجم "الشعري اليمانية" في التوقيت المصرى

١) Meyer, E.: Aegyptische Chronologie.

٢) Borchardt, L.: Die Mittel zur zeitlichen Fostlegung, Kairo ١٩٣٥.

٣) Scharff, A.: Grundzuege der aegyptischen Vorgeschichte, Morgenland, Heft ١٢, Leipzig ١٩٢٧.

٤) Moortgat, A.: Die Entstehung der sumerischen Hochkultur, Der Alte Orient Bd. ٤٣, Leipzig ١٩٤٥.

الفصل الثالث

الدولة القديمة

١- عصر الأسرات الأولى

١) Schaefer - Andrae: Die Kunst des Alten Orients, Propylaeenkunst geschichte IT.

٢) Quibell – Green: Hierakonpolis I.

٣) Petrie, F.: The Royal Tombs of the Earliest Dynasties, London ١٩٠٠/١.

٤) Morgan, J. de: Le Tombeau Royale de Negada, La Préhist. Orient. II, Paris ١٩٢٦, p. ١٦٣.

٥) Vikentiev,: Ann. Serv. Antiq. ٣٣, ٢٠٨ ff et ٣٤, ١ ff.

٦) Ricke, H.: Bemerkungen zur aegyptischen Baukunst des Alten Reiches, Zuerich ١٩٤٤.

٧) Scharff, A.: Das Grab als Wohnhaus in der

Aegyptischen Fruehzeit, SBAW, Muenchen ١٩٤٤/٦.

٨) Emery,: Hor - Aha, Excavatians at Saqqara ١٩٣٧ - ٨, Cairo ١٩٣٩.

٩) Sethe, K: Beitrage zur aeltesten Geschichte Aegyptens, Untersu chungen Bd. ٣, Leipzig ١٩٠٥.

١٠) Emery,: The Tomb of Hemaka, Excavations at Saqqara ١٩٣٨.

١١) Mueller, H.: Die formale Entwicklung der Titulatur der aegyptischen Koenige, Glueckstadt ١٩٣٨.

١٢) Scharff, A.: Archaeologische Beitraege zur Frage der Entstehung der Hieroglyphenschrift, SBAW, Muenchen ١٩٤٢, Heft.

١٣) Lucas, A.: Ancient Egyptian Materials and Industries, London ١٩٤٨.

١٤) Montet,: Byblos et l'Egypte, ٢ vols., Paris ١٩٢٨.

١٥) Pendlebury, B.: Aegyptiaca, Cambridge ١٩٣٠.

١٦) Stock, H.: Die Welt des Orients, Wuppertal ١٩٤٨.

٢ - عصر بناة الأهرام

أ-الأحداث التاريخية

١) Edwards, J. E. S.: The Pyramids of Egypt, London ١٩٤٧.

٢) Lauer, J. Ph.: Le problème des Pyramides d'égypte, Paris ١٩٤٨.

٣) Borchardt, L: Die Pyramiden, ihre Entstehung und entwicklung, Berlin ١٩١١.

٤) Meyer, E.: Aegypten zur Zeit der Pyramidenerbauer, Leipzig ١٩٠٨.

٥) Scharff, Ein Beitrag zur Chronologie der ٤. aegyptischen Dynastie, OLZ ٣١, ٧٣ ff.

٦) Firth-Quibell: The Step Pyramid, ٢ vols., Cairo ١٩٣٦.

٧) Lauer: La Pyramide à degrés. L'architecture, ٢ vols., Cairo ١٩٣٦.

٨) Ricke, H.: Bemerkungen uzr aegyptischen Baukunst des Alten Reiches, I, Zuerich ١٩٤٤.

٩) Sethe, K.: Dodekachoinos, Untersuchungen II, ٥٩ ff.

(مراجع عن الأسرة الرابعة)

٤. Dynastie:

١) Borchardt, L: Die Entstehung der Pyramide, an der Baugeschichte der Pyramide yei Mejdum

nachgewie sen, Berlin ١٩٢٨.

٢) Rowe: Excavations of the Eckley B. jr. Expedition at Meydum, Egypt ١٩٢٩/٣٠. The Museum Journal vol. XXII, ١, Philadelphia ١٩٣١.

٣) Varille: A propos des Pyramides de Snefrou, Cairo ١٩٤٧.

٤) Reisner: Tomb of Queen Hetep-heres in Giza, Bull. Fine Arts Museum Boton, Spec. No. Suppl. to Vol. ٢٥, Boston ١٩٢٧.

٥) Hoelscher, V.: Das Grabdenkmale des Koenigs Chephren, Leipzig ١٩١٢.

٦) Reisner: Mycerinus, the Temple of the ٣rd Pyramid at Giza, Cambridge/Mass. ١٩٣.

٧) Jéquier, G.: Le Mastabat Faraoun, Cairo ١٩٢٨.

(مراجع عن الأسرة الخامسة)

٥. Dynastie:

١) Borchardt, L.: Das Grabdenkmal des Koenigs Sahure, ٢ Bde., Leipzig ١٩١٠ und ١٩١٣.

٢) Borchardt, L.: Das Grabdenkmal des Koenigs Neferir-Kare, Leipzig ١٩٠٩.

٣) Borchardt, L.: Das Grabdenkmal des Koenigs Neuserre, Leipzig ١٩٠٧

٤) Borchardt, L.: Das Re-Heilingtum des

Newoserre, Berlin ١٩٠٥.

(مراجع عن الأسرة السادسة)

٦. Dynastie:

١) Jéquier: Le Monument funéraire de Pepi II, ٣ vols., Cairo ١٩٣٦/٤٠.

(مراجع عن الأسرة الثامنة)

٨. Dynastie:

١) Jéquier: La Pyramide d'Aba, Cairo ١٩٣٥.

ب-الملك والدولة

١) Mueller, H.: Die formale Entwicklung der Titulatur der aegyptischen Koenige, Aeg. Forschungen, Heft ٧, Glueckstadt ١٩٣٨.

٢) Schweitzer, U.: Loewe und Sphinx im alten Aegypten, Aeg. Fors chungen, Heft ١٥, Glueckstadt ١٩٤٨.

٣) Reisner: The Development of the Egyptian Tombs down to the Accession of Cheops, Cambridge ١٩٣٦.

٤) Junker, H.: Giza I bis X, Denkschrift Ak. der Wiss. Wien ١٩٢٩ bis ١٩٥٦.

٥) Kees, H.: Beitraege zur altaegyptischen Provinzialverwaltung und zur Geschichte des Feudalismus, SBAW, Goettingen ١٩٣٢/٣. ...

٦) Kees, H.: Beitraege zur Geschichte des Vezirats

im Alten Reich, SBAW. Goettingen ١٩٤٠.

٧) Brunner, H.: Die Anlagen der aegyptischen Felsgraeber bis zum Mittleren Reich, Aeg. Forschungen, Heft ٣, Glueckstadt ١٩٣٦.

٨) Kees, H.: Studien zur aegyptischen Provinzialkunst, Leipzig ١٩٢١.

٩) Saeve-Soederbergh, Torgny: Aegypten und Nubien, Lund ١٩٤١.

ج-الدين والفن

١) Sethe, K: Das hieroglyphische Schrift system, Leipziger Aeg. Stu dien, Heft ٣, Leipzig ١٩٣٥.

٢) Junker, H.: Pyramidenzeit, das Wesen der altaegyptischen Religion, Einsiedeln ١٩٤٩

٣ - عصر الاضمحلال الأول

١) Erman, A: Die Literatur der Aegypter, Leipzig ١٩٢٣.

٢) Scharff, A.: Der historische Abschnitt der Lehre fuer Koenig Meri kare, SBAW, Muenchen ١٩٣٦.

٣) Scharff, A.: Der Bericht ueber das Streitgespraech eines Lebens mueden mit seiner Seele, SBAW, Muenchen ١٩٣٧.

٤) Scharff, A.: Die Ausbreitung des Osiriskultes in der Freuhzeit undwaehrend des Alten Reiches, SBAW, Muenchen ١٩٤٧.

٥) Jéquier: Les frises d'objets, Mém. de l'Inst., tome

٤٧.
٦) Schaefer: Die Entstehung eininger Mumienamulette, ZAS ٤٣, ٦٦.
٧) Brunton: Qau and Badari, ٣ vols., London ١٩٢٧/٨/٣٠.
٨) Brunton: Buttons and Design Scarabs, London ١٩٢٥.
٩) Scharff, A.: Ueber einige fremdartige Darstellungen auf Siegelbil dern usw., ZAS ٦٧, ٩٥ ff.
١٠) Brunner: Die Hefte aus den Graebern der Herakleoplitenzeit von Siut, Aegypt. Forschungen, Heft ٥, Glueckstadt ١٩٣٧.
١١) Wreszinski: Atlas II, ١٥.
١٢) Stock, H.: Die erste Zwischenzeit Aegyptens, Studia Aegyptiaca II Rom ١٩٤٩

الفصل الرابع: الدولة الوسطى

١-انتصار طيبة وتأسيس الأسرة الحادية عشرة

١) Brunner: Die Anlagen der aegyptischen Felsgraeber bis zum Mittleren Reich, Glueckstadt ١٩٣٦.
٢) Winlock: The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York ١٩٤٧.
٣) Naville: The XIth Dynasty Temple at Deir el-Bahari, ٣ vols, London ١٩٠٧/١٠/١٣.

٤) Breasted Jr.: Egyptian Servants Statues, Washington ١٩٤٨.
٥) Sethe, K.: Die Achtung feindlicher Fuersten usw., Abh. Akad. Der Wiss. Berlin ١٩٢٦.
٦) Posener: Princes et pays d'Asie et de Nubie, Bruessel ١٩٤٠.

٢-الأسرة الثانية عشرة

١) Sethe, K.: Amun und die acht Urgoetter von Hermopolis, Abh. Ak. der Wiss, Berlin ١٩٢٩.
٢) Erman: Literatur, S. ٣٩ (Sinuhe). S. ١٠٦ (Lehre des Koenigs Amenemhet).
٣) De Buck: The Instruction of Amenemmes, Mél. Maspero I, ٨٤٧.
٤) Erman-Ranke: Aegypten und das aegyptische Leben in Altertum, S. ١٩٨ (Plan der Siedlung Kahun).
٥) Naumann: Tempel des Mittleren Reiches von Medinet Madi, Mitt. Inst. Kairo Bd. ٨, ١٨٥.
٦) Newberry: Beni Hassan I-IV, London, ١٨٩٠.
٧) Mueller, H. W.: Die Felsengraeber des Fuensten von Elephantine aus der Zeit des Mittleren Reiches, Aeg. Forschungen, Heft ٩, Glueck stadt ١٩٤٠.
٨) Davies: The Tomb of Antefoker, London ١٩٢٠.
٩) Evers: Staat aus dem Stein, Muenchen ١٩٢٩.

١٠)Schaefer: Die Mysterien des Osiris in Abydos, in Sethe: Untersuch ungen Bd. IV, ٤٩.
١١)Bonnet: Bilderatlas zur aegyptischen Religion No. (Der sogenonnte Osirissarkophag von Abydos).
١٢)Borchardt, L.: Altaegyptische Festungen an der zweiten Nilsch welle, Sieglin-Exp. Bd. ٣, Leipzig ١٩٢٣.
١٣)Steindorff: Aniba, Miss. Arch. de Nubie ١٩٢٩/٣٤, Glueckstadt ١٩٣٥.
١٤)Reisner: Kerma, Harvard African Studies vol. ٥/٦, Cambridge/Mass. ١٩٢٣.
١٥)Montet: Byblos et l'Egypte, Paris ١٩٢٩.
١٦)Bison de La Roque: Tod ١٩٣٤/٦, Fouilles de l'Inst., vol. ١٧, Cairo ١٩٣٧
١٧)De Morgan: Dahchour, Cairo ١٨٩٤/٦.
١٨)Winlock: The Treasure of El-Lahun, New York ١٩٣٤.

٣-الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

١)Stock, H.: Studien zur Geschichte und Archaeologie der ١٣. bis ١٧ Dynastie Aegyptens, Forschungen Heft ١٢, Glueckstadt ١٩٤٢.
٢)Scharff, A.: Ein Rechnungsbuch des Kgl. Hofes aus der ١٣. Dynastie, ZAes ٥٧،٥١.

٤- عمر الهكسوس (عصر الاضمحلال الثاني) الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة

١) Engberg: The Hyksos reconsidered, Stud. in ACC, ١٨, Chicago ١٩٣٩.

٢) Gardiner: in J. E, A. ١٩, ١٢٢.

٣) Pahor Labib: Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten und ihr Sturz, Glueckstadt ١٩٣٦.

٤) Wiesner: Fahren und Reiten in Alteuropa und in Alten Orient (Der Alte Orient Bd. ٣٨), Leipzig ١٩٣٩.

الفصل الخامس: كلمة عامة عن الدولة الحديثة

١- Bilabel: Geschichte Vorderasiens und Aegyptens, Bd. I, Heidelberg ١٩٢٧.

١- نشأة الإمبراطورية المصرية

١) Stock, H.: Studien... zur Geschichte...... U.S.W.

٢) Winlock: The Tombs of the ١٧th Dynasty, J.E.A. ١٠.

٣) Elliot-Smith: The Royal Mummies, Cat. Gén. Cairo.

٤) Vercoutter: Les Haou-Nebout, Buil. de l'Institut Franç. ٤٧/٨.

٥) Carter, H.: The Tomb of Amenophis I, J.E.A. ٣.

٦) Sethe, K.: Das Hatschepsut - Problem, Abhdl. der Ak. der Wiss., Berlin ١٩٣٢.

٧) Edgerton: The Thutmosid Successiin, Stud, in AOC ٨, Chicago ١٩٣٣.

٨) Sethe, K.: Urkunden der ١٨. Dynastie, Bd. I, ٥٣ ff. Die Lebens geschichte des Enene.

٩) Kornemann, W.: Grosse Frauen des Altertums, Leipzig,

١٠) Naville: The Temple of Dheir-el-Bahari.

١١) Hilzheimer: Zur geographischen Lokalisierung von Punt, ZAS ٦٨.

١٢) Junker: Das erste Auftreten der Neger in der Geschichte, Wien ١٩٢٠.

١٣) Carter, H.: A Tomb prepared for Qeen Hatschepsut. J.E.A. ٤.

١٤) Grapow: Studien zu den Annalen Thutmosis III, Abh. der Ak. Der Wiss. Berlin ١٩٤٩.

١٥) Nelson: The Battle of Megiddo, Chicago ١٩١٣.

١٦) Meyer, Eduard: Bericht ueber eine Expedition nach Aegypten zur Erforschung der Darstellungen der Fremdvoelker, SBAW, Berlin ١٩١٣.

١٧) Steindorff: Die Kunst der Aegypter, Leipzig ١٩٢٨ (S. ٢٣١).

١٨) Jéquier: L'Architecture, vol. I, Pl. ٥٠ (sog. Festhalle Thutmosis III.)

١٩) Lefebvre: Histoire des Grands Prêtres d'Amon

de Karnak, Paris ١٩٢٩ ٢٠) Sethe, K.: Die Einsetzung des Vezirs unter der
٢٠) Dynastie, Unter suchungen Bd. V, ٤٩, Leipzig ١٩١٢.
٢١) Scharff-Seidl: Einfuehrung in die aegyptische Rechtsgeschichte biszum Ende des Neuen Reiches, Aegypt. Forschungen Heft ١٠, Gleuckstadt ١٩٣٩
٢٢) Brunner: Die Lehre des Cheti, Sohnesdes Duauf, Aeg. Forschungen Heft ١٣, Glueckstadt ١٩٤٤.
٢٣) Helck: Der Einfluss der Militaerfuehrer in der ١٨. aegyptischen Dynastie, Untersuchungen Bd. ١٤, Leipzig ١٩٣٩.
٢٤) Sander-Hansen: Das Gottesweib des Amun, Schwed.-daen. Akademie der Wiss. Kopenhagen ١٩٤٠.
٢٥) Carter Newberry: The Tomb of Thutmosis IV, Cat. Gén. Cairo ١٩٠٤.

٢- مصر في عصر أمنوفيرس الثالث

١) Steindorff-Seeie: When Egypt ruled the East, Chicago ١٩٤١.
٢) Borchardt: Zur Geschichte des Luqsortempels, ZAS ٣٤, ١٢٢.
٣) Robichon-Varille: Le Temple du Scribe royal

Amenhotep fils de Ha pou, vol. I, Fouilles de l'Institut Françaig XI, Cairo ١٩٣٦.

٤) Davies: The Tomb of the Vizier Ramose, London ١٩٤١.

٥) Scharff, A.: Aegyptische Sonnenlieder, Berlin ١٩٢٢,

٣- عصرالعمارنة

١) Schaefer: Amarna in Religion und Kunst, Leipzig ١٩٣١.

٢) Pendlebury: Tell el-Amarna, London ١٩٣٥.

٣) Scharff, A.: Sonnenlieder, S. ٦١ ff.

٤) Frankfort: The Mural Paintings of El Amarnah, Lonrno ١٩٢٩.

٥) Von Bissing: Der Fussboden aus dem Palaste des Koenigs Amenophis IV. zu El Hawata, Muenchen ١٩٤١.

٦) Davies: The Rock Tombs of El Amarna, ٦ vols., London ١٩٠٢.

٧) Wolf: Das schoene Fest von Opet (E. V. Sieglin Exp. Bd. ٥), Leipzig ١٩٣١.

٨) Carter-Mace: Tut-ench-Amun. Leipzig ١٩٢٤, ٢٧, ٣٤.

٩) Winlock: J.E.A. ١٠ ff. (Schreibstatue des Haremheb).

٤-العصر الذهبي الثاني (عصر النهضة)

١) Junker: Gott Seth bereits seit dem Alten Reich bei Tanis, ZAS ٧', ٦٣ ff.

٢) Frankfort: The Cenotaph of Seti I at Abydos, ٢ vols., London ١٩٣٣.

٣) Breasted: The Battle of Kadesh, Chicago ١٩٠٣.

٤) Meissner: Der Staatsvertrag Ramses II. und Hattusils in akkadi scher Fassung. SBAW, Berlin ١٩١٧

٥) Montet: Le Drame d'Avaris, Paris ١٩٤١.

٦) Erman: Literatur der alten Aegypter (Die Weisheit des Anii), S. ٢٩٤ ff.

٧) Von Beckerath: Theben und Tanis, Aegyptische Forschungen heft ٧.

٨) Spiegelberg: Der Aufenthalt Israeles in Aegypten, Strassburg ١٩٠٤.

٩) Hoelscher: Medinet Habu, Morgenland Heft ٢٤, Leipzig ١٩٣٣.

١٠) Schaedel: Die Listen des grossen Papyrus Harris, Leipziger aegypt. Studien Heft ٦, Glueckstadt ١٩٣٦.

هـ- عصر النكسة والانتقال إلى العصر المتأخر

١) Erman: Literatur der alten Aegypter, S. ٢٥٥ ff. (Die Reise des Wan Amon).

٢) Montet: Tanis, ١٩٤٢. ٣.

٣) Montet: Babylos et l'Egypte (pull rell)

(العصر المتأخر)

١- العصر الإثيوبي

١) Reisner: The Barkal Temples, J.E.A. ٤, ٥, ٦.

٢) Reisner: The Meroitic Kingdom of Ethiopia, J.E.A. ٩.

٣) Von Zeissl: Aethiopen und Assyrer in Aegypten, Aegypt. Forschun gen Heft ١٤, Glueckstadt ١٩٤٤.

٤) Sander-Hansen: Das Gottesweib des Amun, Schwed-daen. Akad. Der Wiss. Kopenhagen ١٩٤٠.

٥) Breasted: Ancient Records of Egypt, vol. IV, Chicago ١٩٠٦.

٢- العصر الصائى

١) Herodot II (Uebersetzung von Th. Braun), Leipzig ١٩٢٧.

٣- العصر الفارسى

١) Posener: La première domination perse en Egypte, Cairo, ١٩٣٦.

٢) Tulli: Il Naophro Vaticano, Festschrift der Vatik. Aegypt. Sig.. Rom ١٩٤١.

٣) Scharff, A.: Bemerkungen zur Kunst der ٣٠. Dynastie, Festschrift der Vatik. Aegypt. Sig., Rom ١٩٤١.

٤) Steindorff: Der Orakeltempel in der Ammonoase, ZAes ٦٩, ١ ff.

الفهرس

مقدمة **٥**

الفصل الأَول: **عصور فجر التاريخ** (من حوالي ٥٠٠٠ ق.م إلى ٢٨٥٠ ق.م) **٨**

الفصل الثاني: **التجديد الزمني للتاريخ المصري** **٣١**

الفصل الثالث: **الدولة القديمة** (من عام ٢٨٥٠ إلى ٢٠٥٢ ق.م) **٥٠**

الفصل الرابع: **الدولة الوسطى** (من عام ٢٠٥٢ إلى ١٦١٠ ق.م)........ **١٢٧**

الفصل الخامس: **الدولة الحديثة من** (١٦١٠ إلى ٧١٥ ق.م) **١٧٦**

الفصل السادس: **العصر المتأخر** (من عام ٧١٥ إلى ٣٣١ ق.م) **٢٧١**

المراجع.. **٣٠٠**